كاميلو ميخيا

طريق من الرمادي

التمرد الخاص للرقيب الأول كاميلو ميخيا





نقله إلى العربية

أسعد كامل إلياس

راجعه

معين الإمام

العبيكان
Obekan

طريق من الرمادي

تمرد

الرقيب الأول كاميلو ميخيا

كاميلو ميخيا

نقله إلى العربية

أسعد كامل إلياس

راجعه

معين الإمام

العبيكان
Obeikan



Original Title

ROAD FROM AR RAMADI

The Private Rebellion of Staff Sergeant Camilo Mejia

CAMILO MEJIA

ISBN-13: 978-1-59558-052-8

ISBN: 978 - 603 - 503 - 025 - 0

المحتوى

«سيتردد النحيب والعويل في الشوارع، وتعلو صرخات الألم والتبريح في الساحات».

عاموس (61/5)

إهداء

إلى المناهضين للحرب:

الذين يواجهون القوى الاستعمارية في أصقاع الأرض

أقدم من صميم القلب إلى الشعب العراقي

اعتذاري

وأعبر له عن

احترامي

وإعجابي

«**كيف انتهى بي المطاف في هذا المكان؟**». سؤال خطر لي مراراً في أثناء خدمتي في العراق في صيف عام 2003. كنت أجد نفسي على ظهر شاحنة تعبر الشوارع المغبرة في الرمادي التي مزقتها الحرب، والواقعة في المثلث

السني إلى الغرب من بغداد. كان من المفترض أن أركز انتباهي كله على مراقبة المتمردين، الذين جعلوا امتداد الطريق الذي نسير عليه مصيدة قاتلة للقوات الأمريكية. ولكن حين ألمح الأطفال يركضون أمام بوابات بيوتهم لمشاهدة عرباتنا تهدر قربها، أتذكر الأطفال الذي شاهدتهم في نيكاراغوا، مسقط رأسي: صبية حفاة، هزلت أجسادهم، ورثّت ملابسهم، ولوحت الشمس وجوههم. كانوا يتجمعون بالعشرات أمام الإشارات الضوئية، ويتنافسون على فرصة لمسح زجاج السيارات، أو الحصول من السائقين على أجر مقابل حراسة سياراتهم، حين يتسوقون من متاجر البقالة. فيتشتت انتباهي عن الأخطار المحدقة من كل حدب وصوب، بدءاً بالعبوات الناسفة على جوانب الطريق، وانتهاء برصاص القنص، لأدرك أن هؤلاء الأطفال هم ذواتهم أطفال نيكاراغوا. ثم أعود بالذاكرة إلى طفولتي في نيكاراغوا ما بعد سوموزا، حيث كنت ابن أحد زعماء الحركة الساندينستية البارزين، طفلاً مدللاً يرتع في امتيازات الثورة. فيتردد صدى السؤال مرة أخرى: «**كيف انتهى بي المطاف في هذا المكان؟**».

***

أولا

انقضى زمن طويل مذ غادرت نيكاراغوا في أواخر عام 1991. فعقب سقوط الحكومة الساندينستية في العام السابق، قررت أمي، التي كانت آنذاك وحيدة منذ انفصالها عن أبي بعد أن ولدتني مباشرة في عام 1975، أن تعود مع ابنيها إلى موطنها الأصلي كوستاريكا.

كنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري، أي في مثل عمر والدتي عام 1971، عندما التقت أول مرة مع والدي، الذي كان نجماً مشهوراً في المجال الإذاعي، ويكبرها بأحد عشر عاماً. ارتفعت مكانة والدي، إضافة إلى الاحتفاء به بفضل ذيوع صيته وجاذبية حديثه، الذي يستهوي عامة الناس عبر الإذاعة، بعد الإعلان عن غرامة كبيرة فرضتها عليه ديكتاتورية سوموزا؛ لأنه كان ينتقد الفساد الذي يمارسه النظام دون خجل. كانت البرامج الإذاعية التي يقدمها بأسلوب الدعابة الساخرة التي اشتهر بها العامة، تهزأ من فساد الحكومة عبر انتقاد الشرطة العسكرية المعروفة باسم الحرس الوطني. اعتادت البرامج الإذاعية التهكمية تصوير مشاهد مألوفة لدى الناس، يظهر فيها الحراس وهم

يتلقون الرشى من المواطنين لإعفائهم من المخالفات المرورية، أو فضح اختلاس المعونات المالية الدولية لملء جيوب الديكتاتور والمقربين إليه من المحاسيب والأزلام.

زارت والدتي ذات يوم محطة الإذاعة، حيث يعمل والدي؛ لم تكن لها علاقة بالسياسة، ولا كانت مولهة بألق نجوميته، فقد جاءت من أجل بث رسالة إلى بعض أقاربها. وبما أن الاتصال الهاتفي كان نوعاً من البذخ، وعجز كثيرون عن دفع أجره، اعتاد معظم الناس الاستماع إلى الإذاعة، وكثيراً ما استخدموا موجاتها للاتصال بذويهم في سائر أنحاء البلد.

كان لإحدى شقيقات والدتي قريب، أجريت له جراحة لإزالة المياه الزرقاء من عينه، وتضمنت الرسالة المطلوب بثها: أن كل شيء على ما يرام، وأن ذلك القريب سيصل إلى منزله في يوم معين، ومن الضروري أن يأتي أحد الأشخاص ببغل إلى مدخل المزرعة، لينقله إلى المنزل الرئيس.

أعجب والدي بوالدتي من النظرة الأولى، فاستخدم نفوذه كله في محطة الإذاعة، للتأكد من أن الرسالة قد بثت على الفور. مقابل ذلك أهدته والدتي تذكرة لحضور حفل دعيت إليه. في الأمسية الموعودة سارع بالعودة من حفل غنائي كان يقدمه خارج مدينة ماناغوا ليقابل والدتي. وهكذا بدأت علاقته معها في ذلك المساء.

شعر والدا أمي بسرور بالغ، لأن ابنتهما كانت تواعد ناشطاً ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعارضة السياسية في نيكاراغوا. ومع أن والدتي وجدت في والدي شخصاً فاتناً بهيّ الطلعة، فقد كان السبب الأول لمواعدته متمثلاً في الخروج من المنزل للقاء الناس بصحبة شخص أعجبت به

فعلاً. لكنها لم تكن تقابل شخصاً عادياً. فسرعان ما تعرفت على كبار شخصيات المقاومة الساندينستية، وكانت آنذاك خليطاً من الطلبة والعمال، والطبقة الوسطى والفقيرة، ورجال الدين والملحدين، والأميين والشعراء، والمنظرين ورجال حرب العصابات. ولم يمضِ وقت طويل حتى كانت والدتي قد تزوجت وصارت ناشطة ثورية، منخرطة في حملات سرية وشعبية لتجنيد الناس العاديين ضد دكتاتورية سوموزا. وحتى بعد أن رزقت بطفل وحملت بي، ظلت تعمل بدأب لتنظيم سكان الأحياء الفقيرة في مدن نيكاراغوا واعدادهم للتمرد المسلح.

استخدم والدي على مدى زمن طويل برنامجه الإذاعي «كوربوريتو" لتوجيه الانتقادات لديكتاتورية سوموزا. كان كوربوريتو شخصية إذاعية، جسدها والدي على الهواء مباشرة، ساخراً من الديكتاتورية ومن الحرس الوطني المرهوب الجانب والكلي الحضور، في قصائد شعرية أو أغنيات. في أول الأمر اعتبرت الحكومة والدي إزعاجاً لا ضرر منه، وحصرت ردودها عليه بفرض الغرامات، وتهديده من حين إلى آخر بالسجن، فأعلن بدوره هذه الردود، وهذا ما أبهج عامة الناس وزاد من شعبيته، ولكن لم يمض وقت طويل على لقائه مع والدتي، حتى شهد انخراطه في التمرد السري تحولاً جعله أشد حماسة وولعاً بالمواجهة المباشرة. أخفى عن والدتي هذا الانخراط السري مدة طويلة، إلى أن اعترف لها ذات يوم بانضمامه إلى الجبهة الساندينستية للتحرر الوطني، التي كانت المنظمة الثورية الرئيسة لمحاربة ديكتاتورية سوموزا.

استمدت المنظمة اسمها من الجنرال ساندينو (Sandino)، الذي قاوم احتلال مشاة البحرية الأمريكيين لجمهورية نيكاراغوا في العشرينيات

والثلاثينيات من القرن الماضي، واغتاله الجنرال أناستازيو سوموزا ، قائد الحرس الوطني، في عام 1936. وفي السنة اللاحقة، صار سوموزا ذاته رئيساً للجمهورية، ليرأس نظاماً قمعياً فاسداً ومتوحشاً. حكم نيكاراغوا بمباركة حكومة الولايات المتحدة على مدى قرابة أربعين عاماً. كان تأسيس الجبهة الساندينستية رداً على هذه الديكتاتورية العسكرية.

أبلغت أمي والدي أنها كانت أيضاً عضواً نشطاً في التمرد. غير أنه أبدى معارضته لانخراطها في الثورة، زاعماً أن المجازفة بالغة الخطورة عليهما. ولكن أمي لم تأبه: فهي في مقتبل العمر ومفعمة بالحماس، ولن ترضى باتخاذ موقف المتفرج والثورة تتفجر أمامها.

في ذلك الوقت تقريباً، حدث انقسام في القيادة الساندينستية. ففي عام 1974 اقتحمت مجموعة من المتمردين الملثمين بمناديل حمراء وسوداء (لوني العلم الساندينستي) حفلاً أقامه أحد أقرب الأصدقاء إلى سوموزا في بيته، واستولوا عليه بالقوة، وقتلوا المضيف، وأخذوا جميع الضيوف رهائن. شملت مطالبهم الحصول على فدية، وتحرير عدد من رجال العصابات، الذين احتجزهم نظام الحكم، وحرية المرور للثوار الذين اقتحموا المنزل، وإعلان نداء موجهٍ إلى شعب نيكاراغوا يدعوهم إلى الانتفاضة المسلحة على الديكتاتورية.

أذعن نظام الحكم للمطالب كلها، ولكنه شنّ بعد ذلك حملة قمعٍ شرسة في سائر أنحاء البلاد، في محاولة لسحق الدعم المقدّم للثورة. كان الناس يسجنون لمجرد الاشتباه بأنهم ساعدوا الثوار، وصار التعذيب واختفاء المعتقلين من الأمور الشائعة. أحدث هذا الضغط توترات داخلية

في الجبهة الساندينستية للتحرر الوطني، حيث طالب بعض أعضاء المنظمة بمزيد من المواجهة داخل المدن، ونادى آخرون بمقاربة أكثر اعتدالاً. فنشأت فصائل متعارضة، ونجم عنها انقسام عميق في القيادة.

في أثناء هذه الحقبة القمعية، وبينما كانت القيادة الساندينستية تعيد تكوين نفسها، ويقرر سائر القادة والمفكرين التوجهات والأساليب التي أرادوا تبنيها، تُرك كثير من الناشطين وشأنهم دون توجيه، فكان مصيرهم: إما الذهاب إلى المنفى، أو التوقف عن ممارسة النشاط الثوري. أما والدتي، التي كانت من أعضاء وكوادر القاعدة، فقد كانت من هؤلاء الذين تركوا دون توجيه، فتوقفت عن النشاط آنذاك، وزادت تركيزها على حياتها الشخصية وعلى أسرتها.

بدا الأمر مختلفاً بالنسبة إلى والدي، إذ كان معظم نشاطه خارج نطاق الإشراف المباشر لقادة الساندينستا — لم ينخرط في العمليات المسلحة، ولم يهتم كثيراً بأن يكون العقل المدبر للحركة ـ لذلك تابع تقديم أغنياته الهدامة سراً وجهراً: في الأوبرا، والمراكز الاجتماعية، والكنائس، وجامعة ماناغوا المستقلة، حيث كان الطلاب يتابعون الحشد والتعبئة بأقصى درجة من التنظيم. من أغنياته في تلك المدة أغنية «رجال حرب العصابات»، التي تروي قصة اختفاء رجال حرب العصابات الذين قتلوا، وأخفى حرس سوموزا جثثهم، دون أن يعثر عليها أحد. ثمة أغنية أخرى عنوانها «Las Mujeres del Cua» (نساء كوا)، وهي أغنية تروي حكاية الفلاحات في المناطق الجبلية في نيكاراغوا، اللاتي تعرضن للاغتصاب والذبح من قبل أفراد الحرس الوطني، لرفضهن الكشف عن أماكن وجود الثوار المقاتلين.

في ليلة ممطرة، حين كنت لا أزال في رحم أمي، بلغ حظ والدي السعيد أقصى مدى، فقد ذهب مع والدتي إلى حفلٍ موسيقي في حي فقير من أحياء ماناغوا، حيث أقام السكان مسرحاً في حقل مكشوف ليقدم أغنياته. اكتظ المكان بجمهور غاضب على الديكتاتورية، حيث غنى «الأخ الجندي». كانت كلمات الأغنية موجهة إلى أعضاء الحرس الوطني، ومن ضمنها شطر يقول: «من حقك أن تفكر، مع أن الغوريلات المتوحشة (الحكومة) تضع في يدك آلات القتل". كان من بين الحضور ملازم في الحرس الوطني، أصدر أمره بالقبض فوراً على والدي، فحدث هرج ومرج عند تحرك الحرس لاعتقاله، لكنهم لم يتمكنوا من اختراق الجمهور بسرعة كافية للوصول إلى المسرح، فتمكن من الهرب. بعد ذلك بدقائق تسلّمت والدتي أكورديون والدي من شخص غريب، أبلغها أنه نُقل إلى مكان سري لحمايته من الاعتقال، والمطلوب منها أن تعود إلى المنزل من دونه.

في أثناء عودة والدتي إلى المنزل أوقفتها إلى جانب الطريق قافلة عسكرية، كان برفقتها أحد أصدقاء والدتي، ومعها أيضاً شقيقي كارلوس، الذي كان آنذاك في السنة الثانية من عمره. أمر رجال الحرس الوطني والدتي بالخروج من السيارة في تلك الليلة الممطرة.

تتذكر والدتي أن واحداً من الحراس صرخ قائلاً: «أخرج العاهرة من السيارة».

حاول الشاب المرافق لها أن يقنع الحراس بترك المرأة الحامل وطفلها الصغير في السيارة، مصراً على أن والدي ليس معهم، وأنهم يجهلون مكان وجوده. ولكنهم رفضوا وأخرجوها من السيارة، وانهالوا عليها بالسباب

والشتائم وعاملوها بخشونة، وطالبوها بإعلامهم بمكان وجود والدي. في نهاية الأمر، سمحوا لها بالذهاب، أما والدي فقد عاد إلى منزله بعد ثلاثة أيام.

وبينما استمر والدي في تقديم الأغنيات الانتقادية متى /وحيثما أمكنه ذلك، تخلّت والدتي عن النشاط الثوري. ولدت في أثناء تلك المدة الهادئة نسبياً من حياة أمي، في مدينة ماناغوا بتاريخ 28 آب (أغسطس) 1975. اختار والدي اسمي تيمناً ببطلين ثوريين من أمريكا اللاتينية: كاميلو توريس، الكاهن الكاثوليكي الكولومبي الذي قتل في ميدان المعركة، وإرنستو تشي غيفارا، زعيم حرب العصابات الأرجنتيني المناضل وأحد قادة الثورة الكوبية، الذي قتل وهو يحارب في بوليفيا.

تغيرت الأمور تغيراً جذرياً بالنسبة لأسرتي عقب ولادتي. ففي حقبة القمع التي أعقبت مفاوضات أسر الرهائن، انهمك كبار المنظرين والقادة في التمرد الساندينستي المسلح في إعادة هيكلة الحركة. تمثلت المشكلة في حقيقة أن هؤلاء نسوا، في خضم وضع الإستراتيجيات الجديدة لإطاحة الديكتاتورية، نقل المعلومات والتوجيهات إلى الثوار الأدنى مرتبة مثل والدتي. وبعد أن انقطع اتصال والدتي بالقيادة الساندينستية، وبعد أن أتعبتها خيانات والدي الأخلاقية، بدأت تشعر أنها معزولة ووحيدة ودون هدف، إلى أن قررت ذات يوم أن تترك والدي، ونيكاراغوا والثورة، فأخذتني مع شقيقي إلى مدينة نيويورك، لنعيش مع جدتي.

كانت هذه أول مرة تزور فيها والدتي الولايات المتحدة، وما لبثت أن أدركت أن حي هارلم الإسباني في منتصف السبعينيات من القرن الماضي،

لم يكن بالتأكيد ما خطر ببالها فيما يتعلق بتربية ولديها. كانت جدتي قد هاجرت إلى الولايات المتحدة سعياً وراء مستوى حياة أفضل، وعملت في صنع الملابس التي تحمل أسماء المصممين المشهورين، وتباع في المتاجر الراقية، ولكنها لم تكن تحصل إلا على الفتات، وتبين أن شقتها المزدحمة المكونة من غرفتي نوم في جادة لكسنغتون أصغر من أن تستوعب أُسْرتها الفتيّة.

لم تكن والدتي راغبة في العودة إلى نيكاراغوا، حيث انتهى عملها مع الساندينستا برأيها، وتعلم أن والدي سيحاول العودة إليها ومصالحتها، لذلك قررت أن تعود إلى موطنها الأصلي كوستاريكا، البلد الذي عاشت فيه حتى سن الثالثة عشرة وتعرفه جيداً.

آنذاك، انتقلت مع والدتي وشقيقي، ولما أكمل السنة الأولى من عمري، إلى سان خوسيه عاصمة كوستاريكا، حيث عزمت والدتي على العيش فيها حياة هادئة، لتنصرف إلى تربية ابنيها. لكن تبين لها أن الأمور لم تكن كما حسبت تماماً، فبمجرد وصولنا تقريباً اتصل بها نشطاء ومتعاطفون مع الحركة الساندينستية يعيشون في المنفى، وبعضهم هربوا إلى كوستاريكا جراء الاضطهاد المتزايد في نيكاراغوا. جرت أولى لقاءاتها مع أشخاص ارتبطوا بالثورة ارتباطاً فكرياً على الأغلب، وعقدوا اجتماعاتهم السياسية في منازلهم المريحة لمناقشة النظريات الماركسية والاشتراكية. ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت تلتقي مع ممثلين لما يسمى «المجموعة الثالثة" Tertiery، التي أنشأتها قبل ذلك بأعوام فصائل من القيادة الساندينستية المطالبة بقيام انتفاضة شعبية فورية في المدن. قاد المجموعة الإخوة أورتيغا Ortega ـ دانييل، وهومبيرتو، وكاميلو، من بين آخرين.

وهكذا، خلال شهر ونصف الشهر من وصولنا إلى كوستاريكا، عادت أمي مرة أخرى شخصية ثورية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. فقد عهدت إليها الثورة بمهمات مختلفة، من ضمنها استئجار مساكن وشقق في أحياء راقية، حيث تستطيع التظاهر بأنها سيدة ميسورة الحال. كان زوجها - المزعوم - مناضلاً آخر في الحركة الساندينستية. وفُضلت هذه الأحياء الأكثر غنى على الأحياء الأشد فقراً؛ لأنها أكثر خصوصية، ويقل فيها عدد الجواسيس والمخبرين، الذين يراقبون التحركات المستمرة للمتمردين الساندينستيين، وهم يدخلون /ويخرجون من هذه المنازل تحت جنح الظلام، لإجراء التدريبات السياسية والعسكرية والقيام بالعمليات اللوجستية. ولكن الخصوصية النسبية التي توفرها هذه الأحياء الراقية لم تفلح في الحيلولة دون تسرب المعلومات من حين إلى آخر، وتعرض المنازل الآمنة للاقتحام عدة مرات، ولهذا السبب، اضطررنا لمواصلة التنقل وعدم البقاء في أي منزل معين أكثر من شهرين.

عقدت في هذه المنازل اجتماعات القيادة، التي حضرها قادة المجموعة الثالثة لوضع خطة الإطاحة بنظام سوموزا. في هذا الوقت، بدأت والدتي تقديم تقاريرها إلى هومبيرتو أورتيغا مباشرة، الذي أصبح فيما بعد القائد الأعلى لجيش الساندينستا. في حين تردد شقيقه دانييل، الذي أصبح رئيساً لجمهورية نيكاراغوا، على المنازل التي كانت تستأجرها والدتي، أما الشقيق الأصغر، كاميلو، فقد وصفته لي والدتي بأنه غامض، طويل القامة، نحيل الجسم، مثالي التفكير، حلو التعبير، نشأ بينه وبين أمي حب عميق في أثناء التمرد، وظن كثيرون من الذين علموا بالعلاقة بينهما أنه والدي. ولكني كنت في السنة الأولى من عمري عند لقائهما

الأول، ومع أنه قتل في ساحة المعركة عام 1978، إلا أن والدتي ظلت تذرف الدموع كلما تحدثت عنه.

في هذه الأثناء، غادر والدي نيكاراغوا لتقديم أغنياته في أوروبا. واكتسب شعبية ملحوظة في إسبانيا، إضافة إلى الدول الشيوعية، حيث عُدّ السفير الثقافي للثورة الساندينستية. من إنجازاته الأكثر شهرة «قداس الفلاحين»، وهي مجموعة من الأناشيد التي تمثل مختلف المراحل الموسيقية في القداس الكاثوليكي، كتبت بلغة سكان المناطق الريفية، وعزفت بالآلات الموسيقية التقليدية في نيكاراغوا، وضمت التعابير الشعبية، وتناولت الأوضاع اليومية ... إلخ. سارعت الطبقة الأرستقراطية والكنيسة الكاثوليكية في نيكاراغوا إلى رفض القداس وانتقدوا والدي بسببه. أما في أوروبا فقد لقي استقبالاً حاراً، ولا سيما من الفئات التقدمية من الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا.

مع اقتراب نهاية عام 1978، بدأت الحركة الساندينستية التحضير لشن هجومها النهائي. كانت والدتي تعمل بدأب في توفير الدعم اللوجستي للحركة، وهذا ما جعلنا نتنقل جيئة وذهاباً بين سان خوسيه والحدود الجبلية بين كوستاريكا ونيكاراغوا.

في التاسع عشر من شهر تموز (يوليو) عام 1979، أعلنت الحركة الساندينستية رسمياً إطاحة نظام سوموزا وتحرير شعب نيكاراغوا. بدأ المشهد التلفزيوني لإسقاط تمثال سوموزا في قلب مدينة ماناغوا شديد الشبه بتحطيم تمثال صدام حسين في بغداد بعد نحو عشرين عاماً.

كنت آنذاك في السنة الرابعة من عمري، ولا أعي سوى القليل من الذكريات عن تلك الحقبة، ولكني أتذكر أننا بعد شهرين من اندلاع الثورة،

عدنا إلى نيكاراغوا، حيث عملت والدتي في مهمات مختلفة للحكومة الجديدة، منها وظائف في الجيش والعمليات السرية التي تنفذها إدارة أمن الدولة. وأدى ميلها إلى عدم احترام الآخرين، واعتيادها طوال العمر استقصاء كل شيء وكل شخص، إلى طردها من وظيفتها في أكثر من مناسبة، وهذا بالتأكيد لم يساعدها على الترقي في نظام سياسي يتطلب ولاء أعمى للقادة دون نقاش.

بالرغم من مناوشات والدتي المتكررة مع النخبة في الحركة الساندينستية، فقد عشنا حياة يسرٍ ورغد في السنوات التي أعقبت الثورة، ومع أن أسرتي لم تكدّس مبالغ كبيرة من المال، إلا أن أكثر ما يهم هو النفوذ في نيكاراغوا الجديدة، وهذا ما امتلك والداي الكثير منه. أقمنا في حي من أغنى أحياء ماناغوا، في منزل كبير مؤلف من خمس غرف نوم، وغرفة مكتب صغيرة، وثلاث غرف معيشة، وسطيحتين، وباحتين واحدة أمامية والأخرى خلفية، وحديقة صغيرة خارج غرفة أمي. واستخدمنا خادمة وبستانياً.

أقام والدي، الذي كان في ذلك الحين قد تزوج امرأة أخرى، على بعد عدة مبان من منزلنا في الحي ذاته. والى جانب الخادمة، كان عنده سائق للسيارة، اعتاد الإشارة إليه من باب التهذيب بأنه: «الرفيق الذي يقود السيارة عوضاً عني». وكانت المدرسة التي انتسبنا إليها أنا وأخي مخصصة حصراً لأبناء المسؤولين في الحكومة، إذ كان رئيس جمهورية نيكاراغوا والعديد من كبار وزرائه يرسلون أولادهم إلى هذه المدرسة، أما اللغة الأجنبية التي كنا نتعلمها في المدرسة فهي الروسية.

في وقت لاحق التحقنا بمدرسة يسوعية خاصة Jesuit في ماناغوا. اشتهر اليسوعيون، في نيكاراغوا على الأقل، بأنهم الأكثر تقدمية وانفتاحاً بين أتباع الكنيسة الكاثوليكية، ولم يجد معظم الكهنة اليسوعيين العاملين في المدرسة أي تناقض بين دراسة العلم والدين، بل إن بعضهم كان يحمل درجات علمية.

بالرغم من ذلك، اعتبرت نفسي ملحداً، مع أنني كلما وجدت نفسي في وضع صعب أصلي إلى الله تعالى طلباً للمغفرة، ولم أدرك إلا في وقت متأخر: أن خشية الله تتطلب درجة ما من الإيمان.

في هذا الوقت، عمل والدي نائباً في الجمعية الوطنية في نيكاراغوا، حيث كان له، كما قال لي، مساعد ينوب عنه في التصويت، عندما يغط في النوم أو يكتب أغنية. وعمل أيضاً ملحقاً ثقافياً في سفارة نيكاراغوا في مدريد عاصمة إسبانيا. ذكرياتي الأكثر وضوحاً عن عمله جاءت من النشاطات الفنية العديدة التي أدّاها وحضرتها، من خلف الكواليس غالباً. وعندما أنظر إلى الماضي، تدهشني باستمرار رؤية الآلاف يرفعون عقيرتهم بالغناء، مشاركين والدي في أغانيه، ولكني لم أتأثر كثيراً آنذاك. وبرأيي، كان والدي مشهوراً على الدوام.

ولكن الذكريات عن والدي التي أعتز بها أكثر من غيرها لم تكن تتعلق بكونه شخصية سياسية أو فنية مؤثرة، بل بصفته إنساناً أحب شعبه وبلده. كنت أسافر معه أحياناً إلى أبعد مناطق نيكاراغوا وأشدها فقراً، لكي أشاهده وهو يؤدي أغانيه. في أماكن كهذه، مازال الناس يذهبون إلى النهر للحصول إلى الماء، ويسكنون أكواخاً من الصفيح، ومع ذلك

شعر والدي بالارتياح فيها دائماً. والواقع أن الناس أحبوه ورحبوا به كأنه واحد منهم. واعتاد بعد انتهاء أي حفل موسيقي يؤديه أن يتناول الطعام التقليدي الذي يقدمونه له بكل سرور. وكثيراً ما كنا نتوقف في رحلة العودة في أماكن بدت لأول وهلة عديمة الأهمية، إلى أن ننتبه إلى الشمس وهي تغرب وراء باحة خلفية لكوخ خشبي رابض على قمة تلٍ، أو نتوقف ليتمكن والدي من التقاط صورٍ لزهور دوار الشمس أو لقوس قزح، أو نخوض وسط حقلٍ للذرة في أثناء الريّ. لم يفقد أبداً الشعور بمزيج من الرهبة والتعجب عند مشاهدة أشياء بسيطة، يبدو أن معظم الناس ينسونها ويتركونها وراءهم عندما يكبرون.

وبالرغم من المكاسب الكبيرة والتحسينات المعيشية الواسعة التي حققتها الثورة للناس، فقد أخذت شعبية الحكومة الساندينستية بين سكان نيكاراغوا تتدهور بعد مرور بضع سنوات على تسلّم الحكومة السلطة. إذ بدأت الثورة تنفيذ واحدة من أشهر حركات العدالة الاجتماعية في العالم، ومع أنها لم تكن نظاماً شيوعياً كاملاً، إلا أنها ارتبطت بروابط وثيقة مع كوبا، وأوروبا الشرقية، والاتحاد السوفييتي. وجعلت صداقاتٍ وعلاقات من هذا النوع، مقرونةً بتوزيع الحكومة للأراضي والموارد على الفقراء، من نيكاراغوا هدفاً رئيساً للولايات المتحدة، التي سرعان ما بدأت بتقديم دعمٍ كبيرٍ للمعارضة المسلّحة ضد الحركة، ممثلة بجيش المرتزقة المعروف باسم «الكونترا».

أدى الموقف العدواني الذي تبنته الولايات المتحدة إلى تطبيق نظام الخدمة العسكرية الإلزامية في نيكاراغوا، واقتطاع القوات المسلحة لحصة أكبر من العائدات الحكومية لتمويل الحرب، وهي أموال كان

بالإمكان لولا ذلك إنفاقها على البرامج الاجتماعية. أما الحصار الاقتصادي الذي فرضته الولايات المتحدة فقد زاد الاقتصاد اختناقاً وانكماشاً وقوّض الجهد الذي بذلته الثورة لمكافحة انتشار الجوع والمرض. ومع ركود الاقتصاد دون أن تبدو في الأفق نهاية للحرب التي حصدت أرواح أكثر من خمسين ألف شخصٍ من سكان نيكاراغوا، أخذ دعم الثورة يتلاشى بصورة ثابتة. وفي نهاية الأمر (في عام 1990) خسرت الحركة الساندينستية الانتخابات الرئاسية وتولّت السلطة حكومة أقلية نخبوية جديدة، تمتعت بعلاقات صداقة وثيقة مع الولايات المتحدة.

أصبح جليّاً بعد سقوط الحكومة أن بعض قادة الحركة الساندينستية قد اغتنوا وصاروا من أصحاب الملايين. كان هؤلاء في وضع يتيح لأعمالهم أن تزدهر في الاقتصاد الجديد في نيكاراغوا، الذي فتح أبوابه أمام الأجندة الرأسمالية للولايات المتحدة. لم يكن والدي من بين هؤلاء الذين جنوا ثروات طائلة، ولكنه ظلّ يجد حظوةً من جانب شعب نيكاراغوا، وتمكن من العيش حياة مريحة بفضل نشاطه الموسيقي والفني. أمّا والدتي، من ناحية أخرى، فقد كانت جزءاً من الأرستقراطية السياسية المحطمة والمحتضرة، التي فقدت الموارد والنفوذ بعد انهيار الثورة. ونظراً لعدم استعدادها وعدم قدرتها على العمل في الحكومة الجديدة، وبعد أن أهملها كثير من أصدقائها في الحركة الساندينستية الذين اغتنوا، قررت العودة إلى موطنها الأصلي. وبحلول كانون الثاني (يناير) عام 1992 كنت أنا وشقيقي كارلوس نعيش مرة أخرى في سان خوسيه، حيث انضمت إلينا والدتي بعد ذلك ببضعة أشهر.

للوهلة الأولى، رأيت عودتنا إلى كوستاريكا عودة إلى بيتنا الثاني، إلى مرتع ذكريات الطفولة الحلوة. ولكن سرعان ما اكتشفتُ أن الأمور في سان

خوسيه مختلفة عمّا كانت في الماضي. لقد سبق أن عشت في نيكاراغوا اثني عشر عاماً، حيث شعرت بالانتماء إلى ثقافتها وشعبها. لكن كثيراً من سكان كوستاريكا ينظرون بازدراء إلى القادمين من نيكاراغوا؛ ذلك أن كوستاريكا (التي كثيراً ما وُصفت بأنها سويسرا أميركا الوسطى)، تمتعت باقتصادٍ متقدم بمراحل على جارتها الشمالية الأفقر حالاً. ونتيجة لذلك، عَبَر كثيرون من سكان نيكاراغوا الحدود بين البلدين، أملاً بتحسين مستوى معيشتهم، وكانوا مستعدين لقبول أسوأ الوظائف مقابل أدنى الأجور. وهذا أدّى إلى تمييزٍ حادٍ ضدهم.

انتسبنا، أنا وشقيقي، إلى مدرسة كاثوليكية خاصة يتعلم فيها أبناء العديد من الأسر المرموقة في كوستاريكا، وهؤلاء لم يرحبوا قط بأجانب مثلنا. ثمة حادثة مؤلمة أتذكرها من أيام الدراسة تتعلق برحلة «روحية" إلى منتجع ريفي، برعاية كهنة المدرسة. وصلت في وقتٍ متأخر إلى نقطة التجمع، حيث كانت الحافلة تنتظر، وبينما كنت أركب الحافلة بدأ الطلاب يسخرون مني، ويقلدون لهجة سكان نيكاراغوا، ويطلقون علي أسماء تحقيرية. في أول الأمر حاولت أن أواجه ذلك بالضحك. ولكن الحملة الشعواء لم تتوقف فاضطررت إلى الجلوس في مقعدي منتظراً هدوء موجة الإهانات.

كانت أعمال التمييز العنصري العدائية السافرة من هذا النوع منتشرة في مجتمع كوستاريكا، بدءاً من الناس في الشارع ووصولاً إلى وسائل الإعلام، وحتى إلى السياسيين. شعرت أحياناً أن روح الدعابة الجمعية بكاملها كانت معادية لأهالي نيكاراغوا. كما شعر كثير من القادمين من بلدانٍ أخرى بتأثير الخوف الرهابي الذي يعانيه سكان كوستاريكا تجاه

الأجانب، ولا سيما إذا كان هؤلاء من أبناء المكسيك وغواتيمالا الأكثر سمرة منهم، ولكن أبناء نيكاراغوا ظلوا دائماً الأجانب الأشد تعرضاً للتمييز والتهميش والنبذ من المجتمع.

أثر المناخ العام تأثيراً عميقاً في شخصيتي، وفي طريقة نظرتي للآخرين. في نيكاراغوا، كنت من أطفال الثورة المحظوظين. توافر دائماً شخص يطهو لي الطعام كلما أردت أن آكل، وإذا عدت إلى البيت بملابس متسخة كان هناك من يغسلها ويجففها ويرتبها في خزانة ثيابي قبل أن يحل المساء. كنت محبوباً في المدرسة ولدي كثير من الأصدقاء. انتهى هذا كله في العامين اللذين أمضيناهما في كوستاريكا، وأصبحت مراهقاً منطوياً على الذات، ومنعزلاً عن الآخرين.

حين افتقدت حلقة أصدقاء أخرج معهم، اضطررت إلى تعلم الاعتماد على نفسي، وهذا أمر صعب في ذلك الحين، ولكن غلّ ثماراً مفيدة، إذ بدأت أذهب إلى الحفلات الموسيقية وإلى المسرح، وأتلقى بعض الدروس العملية، وأقرأ الكتب الأدبية الكلاسيكية والشعر الكلاسيكي. ألهمني إدغار آلان بو فكتبت بعض قصص الرعب. ومع اقتراب نهاية إقامتي في كوستاريكا أصبح لدي عدد من الأصدقاء الجدد، بعضهم كانوا من الأجانب أيضاً. وساعدت صداقتي معهم على توسيع نظرتي ومداركي واهتماماتي، ولا يزالون حتى الآن الأقرب إلى نفسي.

في بداية عام 1994 علمنا من جدتي أنها حصلت على إقامة دائمة لوالدتي في الولايات المتحدة، وهذا يعني آنذاك أنها أصبحت مواطنة أمريكية مجنسة. وبما أن شقيقي وأنا لا نزال قاصرين، فقد حصلنا على

الإقامة الدائمة أيضاً. وهكذا، انتقلت مرة أخرى، عندما كنت في الثامنة عشرة، إلى مدينة ميامي Miami في ولاية فلوريدا هذه المرة.

في ذلك الحين، كانت الصورة الذهنية للمدارس الثانوية الأمريكية مستمدة من أفلام هوليوود. لكن واقع الصفوف العليا في مدرسة ميامي ليكس الثانوية Miami Lakes، التي انتسبت إليها آنذاك، لم يشبه أبداً البيئة الودودة في المدارس الثرية المترفة، التي رأيتها في العروض التلفزيونية ودور السينما. فهي مكتظة بالطلاب، ورجال الشرطة يتجولون في القاعات والباحات، فضلاً على ذلك، لم تفهم إدارة المدرسة أنني أنهيت الصف الحادي عشر في كوستاريكا، بل أصرت على أن أدرس سنتين إضافيتين قبل التخرج، فاضطررت إلى الانتساب إلى مدرسة مسائية في محاولة لاختصار العامين في عام واحد. كان قسم كبير من طلاب الصفوف المسائية من المشاغبين، وقد طُردوا من المدرسة النهارية لأسباب تتعلق بسوء السلوك والانضباط.

اضطررت أيضاً للعمل لتأمين لقمة العيش لأول مرة في حياتي. كانت والدتي قد أجرت شقتنا في نيكاراغوا، وظل والدي يُرسل بعض المال لإعالة ولديه، ولكن حتى مع هذا الدخل الإضافي لدعم راتب والدتي، من عملها محاسبة في متجر (سوبر ماركت)، لم يكن كافياً لدفع أجرة الشقة وتأمين الطعام. ولذلك حصلت على عملٍ في مطعم لتقديم الوجبات السريعة، حيث كنت أكنس ساحة وقوف السيارات، وأرتب الكراسي والطاولات، وأنظف الحمامات كل صباح قبل الانتقال إلى المطعم لإعداد شطائر اللحم مدة ست ساعات. وبعد العمل كنت أستريح مدة ساعتين قبل ذهابي إلى مدرستي المسائية، وهكذا كانت أيامي تبدأ عند الساعة الخامسة

والنصف صباحاً، ولا ينتهي اليوم حتى أعود إلى منزلي من المدرسة في العاشرة مساءً.

كان التخرّج أيضاً مختلفاً جداً عن تصوراتي. إذ لم ينظم حفل راقص عند نهاية العام، ولم يكن لي أصدقاء أحتفل معهم. دخلت مكتب مدير المدرسة لتسلم شهادتي، وأظن أنه قال: «تهانيّ وحظاً سعيداً يا بنيّ». ثم ذهبت إلى السوبر ماركت المحلي وجلست على مقعدٍ خارجه، وأخذت أحدق في شهادتي، متسائلاً: هل هذا هو كل ما يحدث عندما تتخرج من المدرسة الثانوية؟

في العام اللاحق، بعد أن درست في كلية متوسطة مدة فصلين، قطعت الحكومة المساعدة المالية الاتحادية، بذريعة أنني حصلت على ما يكفي من المال من الوظيفة، التي عملت فيها دون أي أمل بالترقي، لكي أدفع رسوم الدراسة. وألفيت نفسي دون أي آمال حقيقية بالمستقبل. وبدا كأني سأعمل طول العمر في وظيفة شاقة مسدودة الأفق دون أن تعود عليّ بأي شيء.

هذه الظروف هي التي حملتني على الالتحاق بالجيش الأميركي في مدينة ميامي، وأنا في التاسعة عشرة من عمري. في الواقع، لم يكن المسؤول عن التجنيد مضطراً لبذل الجهد لإقناعي بالتوقيع على العقد الخبيث المخادع، إذ وفر لي الجيش الاستقرار المالي والتعليم الجامعي، وهما ميزتان بدا من الصعب العثور عليهما في مكان آخر. ولكن الجيش، إضافة إلى الاستقرار المالي والتعليم، قدم لي الوعد بمساعدتي للحصول على مكان تحت الشمس. لم ينحصر ما أردته في مجرد أن أصبح مواطناً أمريكياً؛ بل في الانتماء إلى مجموعة من الناس أشاطرهم شيئاً

ما، واكتساب هذا الشعور بالانتماء. لم يكن الهدف من زيارة مكتب التجنيد اتخاذ القرار بالالتحاق بالجيش، وإنما اختيار الفرع العسكري والاختصاص، وتبين أنه سلاح المشاة في الجيش.

عارض والدي ووالدتي كلاهما توقيع العقد، ولم يكن ذلك لأسباب سياسية فقط، وإنما لخوفهما من الحرب، واعتقادهما أنني لست من النوع المناسب للقتال. وكانت حجة والدتي الرئيسة هي أن القوات العسكرية الأميركية تغزو البلدان دائماً، أو تنخرط في نوع من أنواع النزاعات المسلّحة، وحتى لو لم تكن تخوض حرباً آنذاك، فلا بد أن تشنها في أحد الأيام. توسلَتْ إليّ كي لا ألتحق بالجيش وبكت يوم مغادرتي إلى قاعدة فورت بينينغ، بولاية جورجيا، حيث أصبحت جندياً مقاتلاً.

مرّت سنوات الخدمة في الجيش بسرعة كبيرة، أمضيت معظم الوقت في قاعدة فورت هود، بولاية تكساس، حيث مقر وحدتي التابعة لفرقة المشاة الرابعة. أكسبني سجل أدائي الجيّد وانضباطي عدداً من الأوسمة وشهادات التقدير. في بعض الأحيان، كنت أترك العنان للساني، واشتهرت بالتمرد بسبب ملاحظاتي الانتقادية الذكية. ولكن ذلك كلّه لم يتحوّل إلى مشكلة جدية. إذ كنت أنجز المهمة دائماً، واستمرت الترقيات والتنويهات بأدائي.

التحقت بالجيش لأنني رغبت في الحصول على تعليم أعلى مستوى، وبعد ثلاثة أعوام ونصف العام من الخدمة الفعلية تعلمت خلالها كل شيء عن المشاة، أصبحت جاهزاً للالتحاق بالجامعة مرة أخرى.

قبل أن أغادر فورت هود إلى المنزل، تكشفت لي بكل وضوح، ولأول مرة منذ التحاقي بالخدمة العسكرية، المضامين الكاملة لما أقدمت عليه.

إذ شرحت لي مسؤولة في قسم التجنيد برتبة رقيب: أن كل من يدخل في الخدمة العسكرية يلتزم بها مدة لا تقل عن ثماني سنوات. وحتى إذا وقع شخص مثلي عقداً مدة ثلاث سنوات فقط، فإن أمامه خمس سنواتٍ أخرى من الخدمة العسكرية قبل انتهاء العقد، وفي أثناء هذه المدة يمكن إمّا تمديد خدمته في الجيش النظامي العامل، أو في الحرس الوطني، القوة الاحتياطية الجاهزة غير العاملة، الذي يتطلب تدريباً كل شهر مرة في عطلة نهاية الأسبوع وأسبوعين في فصل الصيف. وفي الحالتين كلتيهما، يجب على الجنود الاستعداد دائماً لاستدعائهم للعودة إلى الخدمة الفعليّة قبل انتهاء الأعوام الثمانية. في العادة، يتجاهل المسؤولون عن التجنيد هذه الحقيقة المزعجة، ويزعمون للذين ينتبهون لها، بأنها تفصيل ثانوي بسيط، ويؤكدون أن هجوماً مدمّراً تتعرض له الولايات المتحدة هو وحده الذي يتطلب استدعاء جنود الاحتياط ، ليتركوا حياتهم المدنية ويعودوا إلى الخدمة العسكرية.

شَرَحت «الرقيب» العاملة في مكتب التجنيد قائلة: إن مهمة جنود الحرس الوطني تتركز على أعمال الإغاثة والإنقاذ في حالة حدوث كوارث طبيعية في ولايتهم، وهذا يعني في ولاية فلوريدا المساعدة في تقديم الغوث عند حدوث أي إعصار. وقدرت أن احتمال الذهاب إلى الحرب مع إحدى وحدات الحرس الوطني شبه مستحيل. قارنتُ هذه المعلومات مع واقع أن الحرس الوطني في فلوريدا كان يوفر لي التعليم الجامعي مجاناً، فقررت توقيع العقد مع الحرس الوطني، وانتسبت إلى الكلية بصفتي جندياً بدوام جزئي.

وهكذا عدت إلى فلوريدا في عام 1998 وانتسبت إلى الكلية المتوسطة التي درست فيها بعد المدرسة الثانوية، وأصبحت الآن كلية ميامي ديد

Miami Dade College. بعد أن أمضيت عامين هناك انتقلت إلى جامعة ميامي. ولم أكتشف إلاّ بعد التحاقي بها أن الحرس الوطني لا يدفع رسوم الدراسة في الكليات الخاصة. ولحسن الحظ، كانت درجاتي جيدة، وهذا يعني أنني مؤهل لمنحة دراسية تتكفل بنصف رسوم الدراسة، وحصلت على قرض طلابي لدفع النصف الآخر.

وُلدت ابنتي سامانثا في عام 2000. لم تدم العلاقة مع والدتها طويلاً، ولكنّي أغرمت كثيراً بابنتي، وبذلت قصارى جهدي لأكون مؤثراً في حياتها. وسرعان ما اكتشفت أن الأبوة والدراسة لا تنسجمان مع الحياة العسكرية ولو بدوام جزئي. فبرنامج التدريب كثير المطالب، وبدأت أقصّر في الدراسة، وأسوأ من ذلك بدأت أخسر وقتاً ثميناً أقضيه مع سامانثا.

تبدلت مشاعري عن الخدمة العسكرية تبدلاً جذرياً مع نهاية عام 2002. شعرت أني مقرّب لأصدقائي في الخدمة، ومازلت، من جوانب كثيرة، أعدّ المؤسسة العسكرية بمنزلة الأسرة. فعلى الرغم من كل شيء، كنت جندياً عاملاً في الجيش والحرس الوطني مدة تقرب من ثمانية أعوام. عرفت أسلوب الحياة، والطعام، والعقلية، والنظام والتركيبة، واللغة، وحتى روح الدعابة. ولكن خاب أملي في النظام. لأنه كان يستغل نقاط الضعف في الناس، وافتقارهم إلى خيارات متاحة لدفعهم إلى توقيع العقود، ومن ثم يقيدهم بالخدمة العسكرية مع الوعد المستمر بفوائد لم يحصلوا عليها قط.

مع بداية عام 2003، أصبحت مستعداً للتقاعد من الخدمة. كنت أجري بحثاً في قسم علم النفس في الجامعة، وأعمل مستشاراً متطوعاً في منظمة

غير ربحية في برنامج لمكافحة الإيدز وإغاثة المشردين في منطقة ميامي. كنت أيضاً عضواً في ثلاث جمعيات شرفية في الجامعة. أما عقدي مع المؤسسة العسكرية (لمدة ثمانية أعوام) فسوف ينتهي في شهر أيار (مايو)، فإذا سارت الأمور كما هو منتظر، سأحصل على شهادة البكالوريوس في ذلك الشهر. وقررت أن أتقدم بطلب للانضمام إلى برنامج الحصول على شهادة الدكتوراه في قسم علم النفس، كما كنت أتطلع إلى أن أكون أباً عطوفاً ومرشحاً قوياً لنيل شهادة الدكتوراه مع حلول نهاية ذلك العام.

فجأة، في 14 كانون الثاني (يناير) 2003، أبلغ قائد سرية الحرس الوطني في فلوريدا جميع العاملين في التشكيل بأن الوحدة التي ينتسبون إليها عادت إلى الخدمة الفعلية دعماً لـ «عملية حرية العراق". وأولئك الذين توشك خدمتهم في المؤسسة العسكرية على الانتهاء قد مُدّدت إلى عام 2031 وفقاً لما سُمي «أمر منع الخسارة» بقرار اعتمده الكونغرس. بعد شهرين ونصف الشهر وجدت نفسي في الشرق الأوسط مشاركاً في غزو العراق.



ثانياً

في الليلة التي سبقت المغادرة إلى الشرق الأوسط، نفذت سريّتنا خطة لتفتيش الأمتعة والمعدات برئاسة قائدها النقيب وارفل. كان النقيب طويلاً نحيلاً، في أواخر الثلاثينيات من عمره. أما شعره البني الفاتح وعيناه الزرقاوان، وبزته الصحراوية الجديدة، فقد جعلته يبدو جندياً أمريكياً خرج لتوّه من لعبة فيديو. عند مروره أمامي سألته: هل أستطيع أن أحضر معي الكتاب المقدس؟ وافق، لكنه لم يسمح لي بجلب جهاز الكمبيوتر المحمول الذي نويت استخدامه للكتابة، واضطررت أيضاً للتخلي عن عدة كتب رغبت في قراءتها.

كان من المفترض بموجب خطة التفتيش أن ينشر الجنود معداتهم وأمتعتهم في مكان معين ـ إما على أسرّتهم أو على الأرض ـ حسب ترتيب مقرر مسبقاً. وعمليات التفتيش هذه كانت شائعة، خصوصاً عند الاستعداد لتعبئة الوحدة العسكرية، ولكن التفتيش في تلك الليلة كان على الأغلب نتيجة أمر من الكتيبة للحدّ بصورة صارمة من كمية الأمتعة الشخصية التي نستطيع جلبها معنا. وكان علينا أن نحمل مؤن وحدتنا

الخاصة، بما في ذلك الطعام، والماء، والأسلحة، والذخيرة، ومع هذه الحمولة، إضافة إلى وزن الوقود، خشينا ألا تتمكن الطائرة الثقيلة من قطع الرحلة الطويلة.

ولكن حتى مع التقييد الصارم للوزن، لم تتمكن الطائرة من قطع كامل المسافة بخزانها المتخم بالوقود، ولذلك كان علينا التوقف للتزود به مجدداً في نيويورك، وكندا، واسكتلندا، وإيطاليا قبل أن نصل إلى الأردن، مقصدنا النهائي. وبالرغم من طول المسافة ومحطات التوقف المتعددة، وفرت الطائرة الكبيرة المستأجرة مكاناً مريحاً لأكثر من مئة وثلاثين جندياً على متنها، وغط معظمنا في النوم طوال رحلة الطيران.

كان الليل مخيماً عند وصولنا إلى الحدود الأردنية مع العراق، ولدى خروجنا من الطائرة لم أشاهد سوى حظيرة كبيرة عند مهبط مطار عسكري منعزل وسط صحراء معتمة. وفي داخل الحظيرة، التي زارها بعضنا فور وصولنا، واجهنا أول تباين ثقافي مهم: شكل المراحيض. فهي عبارة عن فتحات في أرض الحظيرة ولكل واحدة صنبور ماء. نظر بعض أفراد الفصيلة إلى هذه المراحيض العربية الطراز واشتكوا من: «أننا سنقضي حاجتنا منذ الآن كالكلاب». انتشر هذا الموقف العنصري من التباينات الثقافية وشاع طوال مدة تمركزنا في الشرق الأوسط.

بعد وصولنا مباشرة شعرت بالتيقظ والانتباه والحذر والخطر. قطعنا نصف العالم ونحن نعلم أن غزو العراق احتمال وشيك. كان انطباعي الأول عن بيئتنا الجديدة أنها مكان مقفر لا يرحب بالقادمين إليه. ولعلي كنت أتهيأ نفسياً للعمل العسكري اللاحق، ولكن خطر لي أن عين العدو

بدأت ترصدنا منذ ذلك الحين. أملت من أعماق قلبي ألا تندلع الحرب، ولكن علمت أيضاً أن علي الاستعداد ذهنياً لإمكانية المشاركة فيها.

زال هذا الانطباع الأول بسرعة صباح اليوم اللاحق عندما فتحت الشمس المشرقة نافذة مطلة على الوجه الحديث للحرب الإمبريالية في القرن الجديد. حين استيقظت من النوم، رأيت أن الخيام التي تعثرنا بها في الليل قد نُصبت على قواعد خشبية، وجُهزت بالكهرباء ومكيفات الهواء. كنا في وسط مدينة خيام عسكرية ضخمة ضمت مطعمين كبيرين يقدمان كل شيء: من الخبز والزبدة، إلى المثلجات والفواكه الاستوائية الطازجة، وفيها أيضاً سوبر ماركت يحوي تشكيلة واسعة من السلع من ضمنها الوجبات السريعة، والسجائر، والأقراص المدمجة، والملابس وحتى كراسي الشاطئ. في القاعدة المعروفة باسم «إتش 5" (H.5) منشأة لرفع المعنويات والترفيه والتسلية جهزت بطاولات كرة الطاولة، والكتب، وشاشة تلفزيونية كبيرة للأفلام السينمائية. إضافة إلى العديد من الهواتف التي جرى تركيبها خارج قاعة طعام، بحيث نستطيع أن نأتي لتناول وجبة سريعة في وقتٍ متأخر من الليل، بعد أن نتحدّث بالهاتف مع عائلاتنا في الوطن.

وحين أخذنا في الحسبان أننا على حدود العراق، وأن طبول الحرب تُقرع بلا توقف في خلفية المشهد، بدا المكان ممتعاً لنا. ولكن مستوى معيشتنا تحسن بعد نقلنا إلى قاعدةٍ للدفاع الجوي تابعة للجيش الأميركي في التلال المغطاة بالضباب التي تُحيط بمدينة عمّان، عاصمة الأردن. وتمثلت مهمتنا في حراسة محيط القاعدة التي تقع على قمة تلّ مشرفٍ على المدينة. كان أذان المسلمين الذي ينادي على المؤمنين لأداء الصلاة

بنبرة مؤثرة وغامضة يتردد صداه في سائر أنحاء عمّان خمس مرآت كل يوم، مضفياً على المكان جواً من القداسة العريقة، ولا سيما في ساعات الصباح الباكر، عندما ينحسر الضباب تدريجياً وتتكشف المدينة أمام أبصارنا.

في القاعدة المحاطة بوحدات الجيش الأردني من الأنواع كلها، منصات لإطلاق صواريخ باتريوت Patriot الجاهزة للتصدّي لصواريخ سكود Scud. كنا في ضيافة الملك كما ساد الاعتقاد. جئنا لحماية عمّان من صواريخ صدام حسين التي قد تخطئ إسرائيل وتصيب العاصمة. إذ قيل: إن صدام حسين أطلق صواريخ سكود على إسرائيل في أثناء حرب الخليج آملاً أن تردّ فتنضم دول عربية أخرى إلى القتال معه. وكثير من صواريخ سكود هذه لم تبلغ أهدافها في إسرائيل، وسقطت في عمّان بدلاً من ذلك. وفي مقابل السماح للقوات الأمريكية باستخدام قاعدة (H.5) لشن هجوم على العراق، أقامت الولايات المتحدة قواعد دفاع جوي من أجل حماية الأردن.

ولأننا ضيوف ملك الأردن، استمتعنا بكرم ضيافته. إذ قدمت لنا شركة إطعام الغداء والعشاء كل يوم إضافة إلى خدمة تنظيف الملابس أيام الثلاثاء والخميس. أما المراحيض، وإن كانت مؤقتة، فهي من النوع الغربي ويمكن الجلوس عليها، فضلاً على مرافق عديدة للاستحمام. هناك أيضاً خيمة لرفع المعنويات والترفيه والتسلية (MWR) إضافة إلى جهازي تلفزيون، بمئة قناة فضائية، وملعب لممارسة لعبة الكرة الطائرة.

أفضل ما شعرنا به وارتحنا له في مدة وجودنا في الأردن، على الأقل فيما يتعلق بي، حقيقة أننا في حالة سلام. كنت الوحيد الذي أعتنق هذه النظرة ضمن رفاقي الجنود. إذ إن معظم أفراد الفصيلة كانوا متشوقين

للذهاب إلى الحرب، ومتحمسين لوضع مهاراتهم القتالية موضع الاختبار. الرقيب المسؤول عن الفصيلة، بالانغو Palango يحمل كل أنواع أوسمة التدريب ونياشين القتال منذ أن خدم في مقتبل العمر في فرقة الجوالة في غرينادا Grenada. سمعته ذات يوم يقول مازحاً: «أعطِ الحرب فرصة». تساءلت عن عدد المعارك التي خاضها في ذلك الغزو السهل الوجيز.

في ذلك الوقت، كنت أدرك، دون أن أمتلك أي خبرة قتالية، أن الحرب لا تشبه تلك الصورة الجميلة النظيفة التي غرستها هوليود في أذهان الشباب، حيث ينطلق الرصاص معظم الأحيان في اتجاه واحد، ولا يسقط من «الأبطال" سوى قلة قليلة. وأظن أن معرفة الثمن البشري للحرب لا تتطلب خوضها بصورة مباشرة وتجربتها على أرض الواقع، ولا يمكن أن أتمنى حالة يسقط فيها من أحبهم وأهتم بهم. ولكن كرهي الشديد للحرب شمل أيضاً حرب العراق، وكان يعود بداية إلى أسباب سياسية.

في أثناء إقامتنا في الأردن تمكنا من متابعة الأخبار، بل إن وسائل الإعلام الرئيسة كانت تنقل معارضة قوية لأي غزو محتمل، ولم يكن مصدرها بلدان العالم فقط، بل انطلقت أيضاً من داخل الولايات المتحدة. وأكبر المظاهرات المناهضة للحرب التي كنا نشاهدها في الولايات المتحدة إنما حدثت قبل الغزو، ولم أستطع إلا التعاطف مع المتظاهرين. ولم أشعر أن حكومتنا قدمت للعالم حجة قوية ومقنعة للعمل العسكري. كنت أعلم أن كبار المفتشين عن الأسلحة التابعين للأمم المتحدة طلبوا مزيداً من الوقت لمحاولة العثور على أسلحة دمار شامل، وقال بعض من أقوى حلفاء الولايات المتحدة: «لا» للحرب. وحقيقة أن معظم الذين خطفوا الطائرات في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) كانوا مواطنين سعوديين، دون أي

صلة مثبتة بالعراق أو بصدام حسين، جعلتني أشد تشككاً. وتيقنت أن دوافع الحرب تتعلق بالنفط والقوة الجيوسياسية، أكثر مما تتعلق بالدفاع عن الولايات المتحدة.

في الولايات المتحدة، قبل تمركزنا خارجها، لم أكن أمتلك الشجاعة، ولا وضوح الرؤية لأعبر علناً عن الشكوك التي تساورني بشأن الاشتراك في حرب اعتقدت أنها غير مبررة. إلى جانب ذلك، لم أكن أريد أن أُوصَم بالجبن، وكنت أعلم أن التعبير العلني عن تحفظاتي يمكن أن يفسر بافتقاد الشعور الوطني وبالخيانة، وقد يؤدي إلى محاكمة عسكرية والسجن.

وعندما تعاظم احتمال الغزو، حاولت أن أجد السلوان في الأعذار التي يستخدمها الجنود عندما يشاركون في قتال لا يؤمنون به. قلت لنفسي: إنني جندي، وليست مهمتي إصدار الحكم على الأسباب الكامنة وراء قرارات رؤسائي في سلسلة القيادة. لقد وقعت عقداً، وارتديت الزي العسكري، وعليّ أن أقوم بواجبي. نقطة. انتهى. إلى جانب ذلك، كنت قائد جماعة من المشاة، وأفرادها بحاجة إليّ.

ومع ذلك، أُرسلت إلى الشرق الأوسط لدعم جهد عسكري كنت أُدينه بشدة، وأعدّه عملاً إجرامياً. خشيت ألاّ تتاح لي فرصة العودة إلى الوطن لإبلاغ ابنتي أنني ضد الحرب بالرغم من مشاركتي فيها. وإذا قتلت، فإن ذلك جزء من تركة أخلفها لها. ولذلك شعرت، في ليلة باردة، أن ما أوشكت على فعله سيُعدّ حتماً خيانة للولاء. كتبت سراً إلى ابنتي، تحت ضوء باهت من مصباح عسكري يدوي على صفحة من الورق طويتها نصفين، الكلمات الآتية: «امنحوا السلام فرصة».

في تلك الليلة وقع اختياري على واحد من جماعة المشاة، كنت أثق به فعلاً، لكي يقوم بواجب الحراسة معي. وفي صقيع تلك الليلة الباردة، وقفنا أنا والاختصاصي غيفارا نراقب من البرج المرتفع عاصمة الأردن الغارقة في النوم. كنا بلباس الميدان الكامل لتوقي رياح الشتاء القارصة. نزعت قفازي من يدي وطلبت من صديقي الابتعاد خطوة عن مدفعه الرشاش دقيقة. أعطيته آلة التصوير التي أحملها. ثم، وكأني على وشك أن أرتكب خيانة عظمى، سحبت من جيبي العلامة الهدّامة وفتحتها أمام صدري. أتلفت الورقة بعد التقاط الصورة، ولكن ليس قبل أن أطلب من غيفارا الذي التقطها وهو يرسم ابتسامة على وجهه، ألاّ يقول شيئاً عن الحادث إلى أحد في الفصيلة أو حتى في الجماعة.

مثلت معارضتي السرية للحرب واحدة من مشكلاتي مع الجيش. فلم تكن علاقتي حسنة مع قائد الفصيلة الملازم دومينغيز Lieutenant Dominguez. فهو شخص مضطرب وقلق. وليست لديه خبرة كافية لقيادة فصيلة مشاة. كان يُخفي افتقاره إلى الثقة بالنفس وراء قناع من الرجولة الواثقة، التي تبدت بدورها في قيادة تفتقد الكفاءة. في إحدى المناسبات في أثناء التدريب، أمر أحد رماة القذائف الصاروخية بالاشتباك مع سيارة مصفحة على بعد ألف متر. واضطررت إلى تنبيهه بلطف إلى أن الهدف خارج المدى المجدي. وفي مرة أخرى كاد أن يحرق جندياً حين رمى قنبلة حارقة من موقع خاطئ بكل وضوح. حاولت عموماً أن أحتفظ بانتقاداتي في سري، ولكني أحياناً لم أتمالك نفسي عن وصفه بالغباء. وتبدى الاحتكاك بيننا في نوع من العلاقة المهينة، التي كان يستغلها في كل مناسبة لتوبيخي علناً.

لكن إذا واجهت صعوبات مع طريقة قيادة رؤسائي، فقد توضح أيضاً أنهم يواجهون مشكلات مع أسلوبي الخاص في القيادة. خصوصاً المخاوف الجدية جراء قراري بإقامة نوع جديد من العلاقة مع الجنود في جماعتي، يختلف عمّا هو معتاد في الجيش. أردت منهم أن يتبعوني لا بسبب العواقب التي ستواجههم إذا لم يطيعوا، وانما لأنهم يحترمونني ويثقون بي. لم يكن هذا أسلوباً معيارياً في القوات المسلحة، حيث تمثل أحد الأساليب المستخدمة على أوسع نطاق لجعل الجنود يطيعون الأوامر، خصوصاً في حالة وجود مشكلات تتعلق بالانضباط، في «التدريب الإصلاحي». وليس هذا أكثر من عقوبة جسدية، يقول بعضهم: إنها ممنوعة في الجيش، ولكنها لا تزال مطبقة على نطاق واسع. يسمونها في اللغة المحكية «التدخين» (Smoking). وشكلها الشائع هو تمارين الضغط. حيث يؤمر الجندي بالجلوس على الأرض («السقوط») ثم أداء التمارين. أتذكر بوضوح واحدة من المناسبات الأخيرة التي عاقبت فيها جندياً، ولست راضياً على شعوري الانتقامي عندما فعلت ذلك. في فورت ستيوارت، بولاية جورجيا Fort Stewart، Georgia، كنت أراقب الجندي توماس، وهو يأكل قطعاً من البيتزا، والبطاطا المقلية، والشوكولاته ويمضغ التبغ ويشرب البيرة والصودا. فزاد وزنه، وشعرت بالازدراء تجاهه. وحين أتذكر الآن ما حدث آنذاك أخجل من نفسي. ولكن الحقيقة هي أنني كنت منزعجاً من الجندي الشاب البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، وهو في حالة مزرية من الاضطراب وفقدان الثقة بالنفس وزيادة الوزن. حاولت أن أساعده قدر استطاعتي، ولكني لم أتمكن من وقت إلى آخر من تفادي ازدرائه. وكنت في الواقع قاسياً عليه.

كانت الجماعة بعد ظهر أحد الأيام تؤدي التدريب البدني، فرأيت توماس متخلفاً عن رفاقه في أثناء مرحلة الركض من التمرين، وبدأ الجنود الأكثر سرعة يتجاوزونه للمرة الثانية، ثم الثالثة. استبدّ بي الغضب وقررت أن أشق طريقي وسط ميدان التدريب وأركض بجانبه. وعندما لم يعد الصراخ يجدي، أمرته بالتوقف وأخرجته من المسار. عندئذ بدأت بمعاقبته إلى حد أنه بلغ مرحلة الإنهاك العضلي، ثم رفع الجزء الأعلى من جسمه إلى الأمام ليأخذ قسطاً من الراحة، واستند إلى ركبتيه وبدأ يبكي. تبللت شفته العليا بالدموع والمخاط، فمسحها بكم ذراعه الأيمن الوسخ والمغطى بالغبار والعرق.

لم يسبق قط أن اعتذرت للجندي توماس على ما ناله من عقاب، مع أني تمنيت أن أفعل. كانت تلك آخر مرة ألجأ فيها إلى العقاب. أحب الاعتقاد أن معاقبة الجنود الأدنى رتبة مخالف لطبيعتي، وناجم عن التوتر بين الملازم وبيني. ولكني أعلم أيضاً أن نوبات الغضب نجمت عن شعوري بالوقوع في فخ جهد عسكري أعارضه.

وعندما أبلغت قائد الفصيلة الأكبر سناً، والأوفر خبرة، الرقيب الأول دوكت Ducket عن قراري بالتوقف عن معاقبة جنودي منذ ذلك الحين، قال لي: إن مثل هذه المقاربة يمكن أن تؤدي إلى عواقب سلبية خطرة علي، بوصفي قائد جماعة في الفصيلة. قلت له إن العقوبة مذلة وتحقيرية، وإن معاملة من هذا القبيل هي أبعد ما تكون عن فرض الاحترام والانضباط، ولا تؤدي إلا إلى زيادة الاستياء. أردت من جنودي أن يحترموني ويثقوا بي، لا أن يخافوني. وقلت له أيضاً إنني شخصياً لن أنفذ أي عقوبة تفرض علي من أي ضابط مهما كانت رتبته. فوجئ بهذا الخبر، وزمّ شفتيه وأومأ رأسه.

حين كنا في الأردن، بدأت مقاربتي المميزة نحو القيادة تثير في الواقع الاستغراب في سلسلة القيادة. بعد ظهر أحد الأيام، بينما كنا نحصّن محيط موقعنا بأسلاك شائكة، طلب الرقيب الأول في الفصيلة، بالانغو، أن يحدثني على انفراد.

سألني بأسلوبه المرح المعتاد: «ما الأمر أيها الرقيب؟».

أجبته: «لا شيء» وتساءلت: تُرى ماذا يريد؟ قلت: «أي أمر؟».

سرنا معاً مبتعدين عن مكان عمل الجنود الآخرين، وكان هذا نمطاً يجسد طبيعة بالانغو الذي فضل الجهد الجسدي لكي يراه الآخرون.

قال: «لاحظت أنك لا تعاقب جنودك».

«كلامك صحيح».

تابع قائلاً: «نعم، تحدثت مع دوكيت، فقال: إنك لا تريد معاقبة رجالك».

«نعم أيها الرقيب».

«حسناً، أنت ترى قادة الجماعات الآخرين، وهم يحسنون التعامل مع رجالهم، ولكنهم أيضاً حازمون ويشددون على الانضباط».

قلت: «أجل، أعرف أنهم يعاقبون جنودهم ويصرخون في وجوههم، أمّا أنت فلا تفعل ذلك، ولا أظن أنني رأيتك تصرخ في وجه أحدٍ منهم أو تعاقبه. تبدو في نظري إنساناً هادئاً ودوداً».

قال: «نعم، أنت في الواقع لا تستطيع المقارنة. لقد أمضيت وقتاً طويلاً

في الخدمة العسكرية، وخضت حرباً وأطلقت النار على الأشرار، وأنا رقيبٌ أول. وهكذا كسبت الاحترام».

فكرت متسائلاً: الأشرار؟ من أين أتى هذا الرجل؟ أعرف أنني كسبت احترام جنودي، ولكن ليس احترامه.

«أحظى باحترام رجالي، أيها الرقيب».

«حسناً، الأمر لا يتعلق بالاحترام فقط، بل بالانضباط أيضاً. ويفترض بقائد جماعة المشاة أن يتبع هذا الأسلوب».

وصلنا في حديثنا إلى لب المسألة. وهو لا يتعلق بما أتمتع به من كفاءة وفاعلية بصفتي قائد جماعة، بل بالمسلك المنتظر مني.

سألت، وأنا أنقل بصري بينه وبين الأرض، وأركل بعض الحجارة الصغيرة: «هل هنالك شيء تفعله الجماعات الأخرى لا تفعله جماعتي؟»

قال وهو يتوقف لحظة، مما جعلني أركّز بصري عليه: «لا، أيها الرقيب، جنودك يبلون بلاء حسناً، وعندك جنديان متفوقان في قيادة الفريق. كلّ ما أريده منك أن تضيف مزيداً من هرمون الذكورة إلى أسلوبك في القيادة. هذا كل ما في الأمر».

سألته، وأنا أفكّر بهذا الوحش البهيمي الذي أحادثه: «مزيداً من هرمون الذكورة؟».

قال: «أنت تعرف أنني أريد أن أراك أكثر سيطرة وتحكماً. نعم، مزيدٌ من هرمون الذكورة، ومزيد من رجولة المشاة». قلت وأنا أنظر إليه بابتسامة مفتعلة: «حسناً أيها الرقيب، أظن أنني أفهم ما تعني».

عرفت بالضبط ما كان يعني، ولكن لم تكن عندي النية لتغيير أي شيء في أسلوبي للقيادة، ولم أفعل ذلك.

مشكلتي الرئيسة مع بالانغو لا علاقة لها بطريقتي في قيادة جنودي، بل بمجمل مقاربتي للقيادة والعلاقات الإنسانية. لقد واجهت وقتاً عسيراً في التعامل مع كل عناصر النفاق والطعن في الظهر التي كانت سائدة داخل الفصيلة. على سبيل المثال، كان ثمة صراع قوي على السلطة بين بالانغو ودومينغيز، بلغ في أحد الأيام مرحلة محرجة. فقد كنّا في اجتماعٍ للقيادة في خيمة الطعام، وفي أثناء ذلك شرع «الكلبان الكبيران» يتبادلان النباح.

قال بالانغو صارخاً أمام الملازم: «إنك تتحدّث كثيراً عن الحرب والمعركة، وعن كل هذه الأمور يا سيدي، ولكن هل سبق لك أن خضت حرباً؟».

رد دومينغيز على سؤال بالانغو رداً ضارياً. سمعناه جميعنا يتحدث عن الحرب، وكأنه والمعارك صديقان قديمان، غير أننا نعلم أنه لم يسبق له قط أن أطلق رصاصة خارج حقل الرمي، مع أنه أمضى في الخدمة العسكرية زهاء عشرين عاماً.

ردّ دومينغيز، وهو يحاول أن يظلّ متماسكاً: «أيها الرقيب بالانغو، لست بحاجة إلى المشاركة في حرب لأكون مستعداً لها أو للحديث عنها، ولا يمكن أن أصدّق أن تطلق تلك الطلقة الرخيصة عليّ. أنا الملازم هنا وأنا قائد الفصيلة، هل يمثل ذلك مشكلة لك؟».

قال بالانغو: «كلا، أنت الملازم وأنا أحترمك ولكن مشكلتي معك هي محاضراتك الدائمة عن المعركة، في حين أنني الوحيد هنا الذي قاتل

فعلاً. كنت في جحيم المعركة، وتعرضت لإطلاق النار وأنا الوحيد الذي أطلق الرصاص على الأشرار».

انتهى الجدل الصاخب بعد قليل، ولكن الاحتكاك بين الرقيب والملازم ظلّ مستمراً، وكلاهما استغلّ كل فرصةٍ لطعن الآخر في الظهر. وعندما اختلفت مع بالانفو مرة أُخرى، تعلقت المشكلة مجدداً بمعاقبة الجنود.

تركز أصل الخلاف الجديد على الجندي ليونارد. كنت أنا وليونارد صديقين مدّة طويلة، مع أنني سبقته رتبة، ولم نكن في الفصيلة نفسها إلى أن تمّ إرسالنا إلى الشرق الأوسط. كان شاباً ذكياً، ولاعباً بارعاً في الشطرنج، ومتفوقاً في الرياضيات وله اهتماماتٌ بالمسائل الفلسفية. ولكنه لم يكن عملياً، وكثيراً ما وجد صعوبة في إغلاق فمه، حتى عندما يورطه الكلام في مشكلة. فضلاً على ذلك، لم يكن أفضل الجنود في الأناقة والنظافة الشخصية. وهذه توليفة من الصفات لابد أن تسبب له مشكلات في وحدة للمشاة.

وبما أن ليونارد كان فوضوياً، احتفظ بأشيائه الشخصية في الكيس ذاته الذي يضع فيه معدات الوقاية من الأسلحة الكيميائية. من هذه الأشياء الخاصة مسجلة الأقراص المدمجة. في أحد الأيام، بينما كان ليونارد يقوم بنوبة الحراسة في برج المراقبة، رأى طبيب الفصيلة، المعروف باسم «المخبر»، المسجلة في كيس ليونارد في أثناء قيامه بجولاته. توجّه الطبيب مباشرة إلى بالانفو، وأخبره أن ليونارد يستمع إلى الموسيقا في أثناء قيامه بمهمة الحراسة. عقب ذلك مباشرة صودرت المسجلة.

بعد ذلك بنحو أسبوع كنت أنا وليونارد نتبادل حديثاً عرضياً حول حالة حذائه، الذي كان يتركه خارج الخيمة، بناءً على طلب زملائه، كل ليلة

قبل أن يذهب إلى النوم. أراد أن يعرف مني طريقة للتخلص من الرائحة الكريهة. قلت له مداعباً: إن الحل الوحيد هو سكب الوقود في الحذاء وحرقه. ولعلّي كنت محقاً في ذلك.

أدرك فجأة أنه تأخر، وقال: إن عليه أن يذهب. كنت أعرف أن دوره لم يأت بعد للحراسة، فسألته: إلى أين ينوي الذهاب بهذه السرعة؟

قال وهو يرسم ابتسامة مصطنعة: «عليّ أن أذهب لأنفذ العقوبة».

سألته عابساً: «ماذا تعني؟».

«كل يوم في الساعة الثامنة مساءً، يعاقبني الرقيب إغليزياس مدة ساعة».

لم يكن ليونارد في جماعة إغليزياس ولكنّه يخضع لإمرته مباشرة لأسباب تتعلق بأمن محيط المعسكر.

قلت: « يا رجل، أنت تسخر منّي».

«كلا، أنا جادّ. ولكن لا يُفترض أن أقول أيّ شيء. إضافة إلى ذلك، الأمر سهل. والرقيب إغليزياس يعاقبني عندما يكون هناك جنود حولنا. وعندما يذهب الجميع يأمرني باتخاذ وضعية مريحة».

قلت وأنا أُمسك بذراعه محاولاً منعه من الذهاب: «هذا ليس سهلاً يا رجل. وغير مسموح به. هل أخبرت دوكيت بذلك؟».

قال: «لا، ولكن الأمر جاء مباشرة من بالانغو، ولذلك لا أظن أن هناك أيّ شيء يمكن أن يفعله في هذا الشأن».

في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة جرى حديثٌ طويل بيني وبين ليونارد. علمت بعد مصادرة المسجلة أن جميع من في خيمة ليونارد منعوا من مشاركته في مسجلاتهم أو أقراصهم المدمجة . فقد عوقب بسبب سلوكه غير المسؤول في أثناء مهمة الحراسة. ولكن تبيّن أن الرقيب إغليزياس وافق على السماح لليونارد باستعمال مسجلته بشرط أن يتحمل المسؤولية في حالة القبض عليه مع المسجلة. في أحد الأيام، سمع أحدهم في الخيمة صوت موسيقا يصدر من كيس النوم الخاص بليونارد. وجدوا مسجلة إغليزياس التي نسي ليونارد أن يقفلها قبل ذهابه للحراسة. ولكن ليونارد بدلاً من أن يشي بإغليزياس قال: إنه سرق المسجلة. فصدرت بحقه العقوبة مدة ساعة كل يوم طوال أسبوعين. ولكن حتى مع معرفة الجميع بما حدث فعلاً، فقد اتهموا ليونارد بأنه لص، وأرغموه على وضع جميع أمتعته خارج الخيمة، لكي يطمئنوا إلى أنه لا يسرق أيّ شيء آخر. وصادروا أيضاً سكاكينه «لحماية الجميع»، وهو إجراء سخيف غرضه إذلاله كما هو واضح، نظراً لأنهم سمحوا له بالاحتفاظ بسلاحه والذخيرة، لكي يستمر في أداء واجب الحراسة.

في مناسبة أُخرى، بعد انتهاء عقوبة الأسبوعين، تحدثنا أنا وليونارد مرة أُخرى. قال لي: إنه بعد موافقة الرقيب الأول بالانغو على إعادة ألعابه إليه، أبلغه بأن عليه أن يحفظ عن ظهر قلب ما هو مكتوبٌ على بطاقة اللغة، التي تضم قرابة 105 كلمات وجمل باللغة العربية، في خمسة أيام. ما من أحدٍ في الفصيلة كان يعرف أكثر من خمس كلمات. حفظ ليونارد أكثر من عشرين كلمة، عرفت ذلك لأنني اختبرته. ولكن لأنه لم يتمكن من حفظ الكلمات كلها، طلب منه بالانغو أن يمُضي تلك الليلة وهو يفرغ أكثر

من مئتي كيس رمل في ملعب الكرة الطائرة. وصدر الأمر إليه بعدم العودة إلى مهمته المعتادة، قبل أن يفرغ آخر كيس.

قال، والحزن بادٍ عليه: «ما من أحد يستطيع مساعدتي، سوف يرسلون الطبيب للإشراف عليّ»، وهو يقصد طبيب الفصيلة الجاسوس.

قلت شارحاً: «يرسلون الطبيب للإشراف عليك لأنهم يعرفون أنك ستؤذي نفسك بتفريغ كل تلك الأكياس وحدك في الليل. هل أبلغت دوكيت؟».

«لا».

قلت، وأنا أجهد للحفاظ على هدوئي: «لا بأس، استمر، سأذهب لإبلاغ دوكيت بهذا الهراء، وإذا لم يفعل شيئاً، فسأفعل أنا؛ لأن هذا يتجاوز الحدود».

شكرني ليونارد ومضيت للعثور على دوكيت، الذي كان غارقاً في النوم، ولعله يستعد لنوبتنا في الحراسة التي تبدأ عند منتصف الليل.

قال دوكيت مزمجراً: «ما الأمر، أيها الرقيب؟». عندما نزع قناع النوم، لاحظت انزعاجه بسبب إيقاظه قبل ساعات من موعد دوره في الحراسة.

«ما الأمر الآن؟».

«ليونارد».

«أوه، كفاك أيها الرقيب، ليس الكل مثلك، ألا تعرف؟»

قلت: «لا، هذا السخف وصل إلى مداه، إذا لم تفعل شيئاً بشأنه، فسأفعل أنا».

«ماذا تعني؟ ما الذي يجري؟». خرج من كيس النوم الموضوع فوق فرشتين على سرير عسكري. كان دوكيت معجباً فعلاً بسريره المريح.

« سوف أذهب لإبلاغ قائد سرية المدفعية والرقيب الأول؛ لأن ما يفعلونه بحق ليونارد خطأ واضح، وغير قانوني».

صرخ في وجهي: «كفى، أيها الرقيب ميخيا. والآن، أخبرني ماذا يجري؟».

«إنهم يجبرون ليونارد على تفريغ أكياس الرمل كلها في ملعب الكرة الطائرة خلال الليل؛ لأنه لم يتمكن من استذكار كل كلمات بطاقة اللغة».

سألني: «من يجبره؟».

«حسب قول ليونارد جاء الأمر من بالانغو، بل إنهم حملوا الطبيب على مراقبته. لا بد أنهم يعرفون أنه سيلحق الأذى بنفسه حين يؤدي العمل وحده خلال الليل. أنا واثق من أن قائد سرية المدفعية لا يوافق على هذه الإجراءات».

قال دوكيت، وهو ينتعل حذاءه: «لا بأس أيها الرقيب، دعني أذهب لأتحدث مع بالانغو، سأرى ماذا أستطيع أن أفعل».

في أثناء ذهاب دوكيت للاجتماع مع بالانغو، ذهبت أنا إلى ملعب الكرة الطائرة لأرى ماذا يفعل ليونارد. وقبل أن ألمحه، صادفت الطبيب الذي صنع لنفسه من أكياس الرمل مقعداً مريحاً، يستطيع منه مراقبة ليونارد وهو يفرغ الرمل.

قال وهو يبصق بعض بذور دوار الشمس: «مرحباً، ما الأمر أيها الرقيب ميخيا؟». قلت بحدة: «لا شيء مهماً. أين ليونارد؟».

أشار بيده في اتجاه أحد الأكوام الكبيرة من أكياس الرمل. قال: «إنه على ما يرام».

«فهمت».

سرت في اتجاه الكومة فلاح شبح ليونارد. وعندما أمكن رؤية صورته الجانبية في الظلام، وجدت أنه نزع سترة بزته، مع أن الجو بارد جداً. كان يتصبب عرقاً ويحمل كيس رمل على كل كتف، ألقاهما بمجرد أن رآني. وأخذ يبكي بصمتٍ.

قال، وهو يبكي لكن مع ابتسامة: «أنا فاشل».

قلت محاولاً أن أخفي مدى انزعاجي: «لا، يا رجل». عرفت أنهم يحاولون تحطيم هذا الفتى. تابعت كلامي: «هؤلاء حفنة من الحمقى، وأنت أذكى منهم جميعاً».

قال، وهو ينكس رأسه، ولعله يحدث نفسه أكثر مما يحدثني: «لا أستطيع أن أفعل شيئاً صحيحاً. عمل بسيط بعد آخر، والفشل مستمر».

قلت وأنا أكاد أصرخ: «باختصار، أنت متفوّق على أي جندي في الفصيلة في معرفة الكلمات العربية. ليس هذا بالأمر البسيط! على أي حال، تحدثت مع دوكيت، ولست متأكداً مما سيفعل، ولكنه قال: إنه سيفعل شيئاً. أما أنت، فكن منتبهاً في أثناء وجودك هنا».

عندما بدأت أبتعد كفّ عن البكاء.

قال: «شكراً أيها الرقيب».

التفتّ إلى الوراء لأراه.

رسمت ابتسامة، وواصلت السير.

في اليوم اللاحق استعاد ليونارد كل معداته وأغراضه.

أخبرني أن بالانغو جاء إلى ملعب الكرة الطائرة بعد وقت قصير من مغادرتي الليلة السابقة. وقال له: إنه لم يقصد أن يجعله يفرغ كل الأكياس، وإنما أراد فقط أن يمتحن قدرته على تنفيذ الأوامر بقدر استطاعته، وهذا نوع من الاختبار للانضباط. في اليوم ذاته انتقل ليونارد إلى خيمتي.

لم يمضِ وقت طويل على هذا الحادث، حتى بدأ قائدا الفريق في جماعتي السؤال عن نقلي الوشيك. قلت لهما بصدق: إني لا أعرف عما يتحدثان.

وفي صباح أحد الأيام، تلقى جندي في جماعتي تهنئة على منصبه الجديد من قائد جماعة آخر. قيل له: إنني على وشك أن أطرد وسيحل محلي. زادت الشائعات انتشاراً وتكراراً. في البداية، لم أفكر بالأمر كثيراً، ولكن مع مرور الوقت أدركت أن الشائعات بدأت تقوّض سلطتي داخل جماعتي، فقررت أن أجابه بالانغو في المسألة.

قال لي صباح أحد الأيام وأنا أقترب منه بعد تناول الفطور: «مرحباً، ما الأمر أيها الرقيب العظيم؟ لماذا لا تأتي لتجلس معنا؟».

قلت له: إنني أفضّل الجلوس مع جماعتي، وهذا صحيح، ولكني عادة أجلس في أي مكان في خيمة الطعام. والواقع أنني لم أكن أحب الجلوس معه أو مع قادة الجماعات الآخرين، والسبب في الغالب أنني لا أحتمل ما يحيكه المنافقون على مائدته من مؤامرات.

سألت، وأنا أعرف أن المشكلة لا علاقة لها بجماعتي، أو حتى أدائي بوصفي قائداً لها: «ما رأيكم بجماعتي؟».

قال متردداً: «أظن أن جنودك يؤدون عملاً جيداً». كان التوتر واضحاً. سألني: «لماذا تسأل أيها الرقيب؟».

قلت وأنا أنظر إليه دون أن أبتسم: «ما برحت أسمع الشائعة القائلة بأني سأُنقل، إذا صح الخبر أريد أن أعرف السبب».

«كلا، هذا ليس صحيحاً، ولكن ما قلته فعلاً إنني سأُنقل كل من يحاول أن يتجاوزني».

سألته وأنا أعرف قصده تماماً: «ماذا تعني؟». أضاف وهو يعرف أن من يقصده يقف أمامه: «حسناً، قال أحدهم: إنه عازم على مقابلة قائد المدفعية ليشتكي من قيادتي، لماذا، هل أنت من فعل ذلك؟».

«إذا كنت تتحدث عما حدث مع ليونارد، أجل، أنا هو».

صرخ: «سأعيدك فوراً إلى القاعدة القديمة إذا حاولت أن تتجاوزني مرة أخرى».

قلت متعمداً الكذب: «حسناً، أنا لم أخطط لتجاوزك قط. بل ذهبت مباشرة إلى دوكيت؛ لأنه لا يزال قائد جماعة ليونارد. ولكنني لم أتجاوزك أيها الرقيب».

«إذاً، هل لديك مشكلة مع طريقة تعاملي مع ليونارد؟ لقد أرسلت الطبيب لأتأكد من أنه لن يؤذي نفسه. هذا تمرين إصلاحي».

«أيها الرقيب، لديّ مشكلة في طريقة التعامل مع ليونارد منذ يوم وصولنا إلى هنا. نعم، أقصد أن الرجل أخرق إلى حدٍ ما، لكن طريقة التعامل معه لا تساعده بأي شكل، بل تحطم معنوياته وتقديره لذاته».

شعرت كأني أتحدث بلغة مختلفة مع كائن غريب من عالم آخر، مع أنني في الواقع الغريب الوحيد بين أفراد الفصيلة. قال: «مهما تكن مشكلاتك، فاحتفظ بها في الفصيلة».

قلت: «حسناً، أيها الرقيب، لهذا السبب ذهبت إلى الرقيب دوكيت. كنت أتبع سلسلة القيادة».

قال بابتسامة مصطنعة: «وهذا هو كل ما يجب أن تفعله أيها الرقيب. في هذه الأثناء لا تقلق من أي شيء تسمعه. أنت تقوم بعمل جيد».

تبادلنا عبارات المجاملة، وفي نهاية الحديث كان كلٌّ منا يربت كتف الآخر. بدا لي كأن الأمور كلها ستسير على ما يرام، غير أن الشائعات عن نقلي الوشيك لم تتوقف، وإنما صارت سرية إلى حد ما.

بعد مرور بضعة أيام على المجابهة مع بالانغو، بدأت حملة قصف بغداد تحت شعار الصدمة والرعب. شعرت أنا أيضاً بالصدمة والرعب، ليس من القصف الهمجي بل من تجاهل حكومة الولايات المتحدة للقانون الدولي، وشن هذه الحرب لا على العراق وحده بل على العالم بأسره.

أسف بعض الجنود في الفصيلة لأنهم لا يشاركون في القتال؛ في حين عبر آخرون عن مشاعر أكثر نضجاً ولكنهم ظلوا متشوقين للحرب: فبصفتهم من جنود المشاة يجب أن يقاتلوا إلى جانب إخوانهم. أما أنا،

من جهة أخرى، فقد كنت أعتقد أن التمنيات السعيدة لزملائي الجنود سوف تتحقق فعلاً. وحين تعاظم الشعور بأن المشاركة في الحرب وشيكة، بدأت آمل ألا تستمر طويلاً، وأن تكون عملية غزو سريعة، ونعود فوراً إلى الوطن.

تلقت وحدة المدفعية التي نتبع لها أوامر بإعادة الانتشار، وقيل لنا: إن أفراد الوحدة سيعودون إلى الولايات المتحدة. لكن لا بد من بقائنا مدة قصيرة من أجل توفير الأمن للمتعهدين في شركة كيلوغ براون أند روت Kellog Brown and Root ريثما يفككون معسكرنا.

وما إن غادرت وحدة المدفعية الموقع، حتى اقترب موعد عيد الفصح. قرر الملازم دومينغيز، الذي أصبح الآن القائد الأعلى للقاعدة، إقامة حفلة شواء لرفع معنويات الجنود، تقدم فيها شرائح اللحم والنقانق وحتى البيرة.

ذهب دومينغيز في جولة لشراء المؤن اللازمة لحفلة الشواء، وأخذ معه فريقاً أمنياً، كما طلب، خلافاً للأوامر المباشرة، من جميع أفراده ارتداء الزي العسكري الكامل في أثناء قيامهم بهذه الجولة القصيرة. شوهدوا وهم يبتاعون زجاجات البيرة في السوبر ماركت من بضعة مواطنين أميركيين يرتدون ملابس مدنية، ولعلهم كانوا دبلوماسيين، أو عملاء سريين لوكالة استخبارات. توجّه هؤلاء مباشرة إلى الجنرال المسؤول عن جميع الجنود الأميركيين في البلد وأبلغوه بما شاهدوا.

لم يمضِ وقتٌ طويل على مغادرتنا الموقع، وحالما عُدنا مرة أخرى إلى قاعدة 5 – (H)، أُعفي دومينغيز من قيادة الفصيلة. وشاع آنذاك أن

رحلة التسوق قضت على حياته المهنية. آخر ما سمعته عنه أنّه كُلِّف بقيادة قافلة متوجهة إلى العراق، ثم أعيد بعد ذلك مباشرة إلى الولايات المتحدة. وحل محله في قيادة الفصيلة الثالثة الرقيب الأول بالانغو.

فيما يتعلق بي، قال بالانغو: إن أمراً صدر بنقلي من الفصيلة الثالثة لأصبح قائد جماعة في الفصيلة الثانية. وأضاف بوجه لا يبدي أي تأثر: «أكره أن أراك تذهب. لكن الأمر ليس بيدي».

بعد أيام من تسلم قيادة الجماعة الأولى في الفصيلة الثانية، ودون إشعار مسبق، استيقظ سائر أفراد السرية من نومهم في الساعة الثالثة فجراً. كانت الأوامر تقضي بأن نجهز كامل معداتنا للمغادرة. لكن فرحة العودة إلى الوطن لم تستمر طويلاً، إذ سرعان ما علمنا أن إعادة الانتشار لن تأخذنا إلى الولايات المتحدة، بل إلى وطن جديد لنقضي فيه زمناً غير محدد: سنذهب إلى العراق.



ثالثاً

ثمة شيءٌ غريب تعلّق بانتشار سريّة تشارلي في العراق. بدا كل شيء متسرّعاً يفتقد التنظيم والإعداد. كان علينا أن ننتظر يوماً كاملاً عند المهبط لنستقل طائرة من طراز (سي 130) من الأردن إلى مطار بغداد الدولي، الذي لا يزال يُسمى مطار صدام الدولي. ولم تتمكن السرايا الأخرى في كتيبتنا من السفر جواً، واضطرت إلى قطع الرحلة إلى العراق براً.

تعززت الشائعات القائلة: إن هناك مَنْ زوّر -على مستوى الكتيبة- وثائق لإرسال وحداتنا للمشاركة في القتال بسرعةٍ، ودون إعداد كاف عندما وصلنا إلى بغداد، وتبين لنا عدم وجود وحدة تنتظرنا، فلا أوامر، ولا مكان للنوم، ولم يتوافر حتى الطعام والماء. كان علينا، أنا والملازم، أن نخرج صباح اليوم اللاحق في عربة همفي Humvee مستعارة؛ في محاولة للعثور على وحدة قريبة لديها فائض من الماء ووجبات الطعام الجاهزة.

قبل المغادرة إلى العراق، كانت وحداتنا جميعها قد عادت من مواقع متفرقة في شتى أرجاء الأردن، وتجمعت مرة أخرى في قاعدة H – 5. ظن

بعض الجنود أنهم يجهزون للتسريح من الخدمة والعودة إلى الولايات المتحدة. ولكني عرفت أن ذلك احتمال بعيد، فقد أراد قائد كتيبتنا العقيد ميرابل أن نشارك في القتال. قبل نحو ثلاثة شهور، حين التقطت صور لكتيبتنا في ساحة العرض في قاعدة فورت ستيوارت، أبلغ الجميع أننا لن نعود إلى الولايات المتحدة دون شارة المشاة القتالية (CIB). وكرر ملاحظاته قائد سريتنا النقيب وارفل قبيل سفرنا إلى الشرق الأوسط.

تمنح شارة المشاة القتالية حصريّاً للجنود المشاة (أو وحدات العمليات الخاصة) الذين انخرطوا مباشرة في قتال العدو. وكان كبار ضباطنا، الذين أمضوا خمسة عشر أو عشرين عاماً في الخدمة العسكرية دون خبرة ميدانية قتالية، يعلمون أن هذا الوسام جوهري لارتقائهم سلم الرتب العليا. ولذلك لم أفاجأ بإرسالنا إلى بغداد بمثل هذه السرعة. والشعور بأن قادتنا على استعداد لفعل أي شيء للحصول على وسام وترقية نما لاحقاً مثل بذرةٍ في خضم المعركة، ليتحول إلى شعور عميق بالخيانة.

تطلب الأمر نحو أسبوع لبدء وصول بقية كتيبتنا في قافلة ضخمة من الأردن. في هذه الأثناء، تجولنا حول المطار الذي دُمر مؤخراً. وكان جلياً، حتى في وضعه المدمّر، أن المباني القائمة كانت فخمة ومترفة ذات يوم ، بسجاجيدها الحمراء السميكة وسقوفها العالية وقاعاتها الرحبة.

أصبح المطار يستخدم الآن من قبل الطائرات العسكرية الأمريكية والحوامات الهجومية مثل بلاك هوك، التي كانت تقلع ليلاً نهاراً للقيام بمهمتها. توقفت جميع رحلات الطيران الدولية وخلا المطار من الطائرات التجارية، باستثناء طائرة ركاب وحيدة رابضة على طرف المهبط، وبدت كأنها قسمت نصفين، بسكين ضخمة مسننّة.

كان تجولنا على غير هدى في أنحاء المباني المدمرة، دون أي مهمة نؤديها ودون أي اتصال مع العالم الخارجي، يكفي وحده ليصيبنا بالجنون، ولذلك رحبنا بخبر انضمامنا إلى وحدة أكبر، هي فوج الفرسان الثالث المدرع. كلما أسرعنا ببدء المهمة في العراق بكرنا بالخروج منه، أو هكذا خيل لنا. تطلبت منا أول مهمة السفر إلى قاعدة جوية عراقية قديمة لا تبعد كثيراً عن مطار بغداد الدولي.

انطلقنا عبر عدد من البلدات الصغيرة المتتابعة، كل واحدة أكثر بؤساً وفقراً من سابقتها. اقترب أطفال حفاة من قافلتنا المؤلفة من شاحنات عسكرية بلون الرمال تزن خمسة أطنان، وهي تشق الطريق. حاول بعضهم بيعنا زجاجات صودا وأكياس من الفستق، ولكن معظمهم أراد مجرد تحيتنا وإلقاء نظرة عن كثب على آخر غزاة لبلدهم. كنا في بداية الاحتلال. ومع أن بنادقنا كانت مصوبة نحو صدور العراقيين مباشرة، لكن لم تبد عليهم ملامح الغضب؛ وفي معظم الحالات ابتسموا ولوحوا لنا. ومسحوا جباههم بلطف تعبيراً عن الشكر لنا مثلما عرفنا مدلول الإشارة فيما بعد.

لم تكن المسافة إلى قاعدة الأسد الجوية طويلة، لكننا بقينا على الطريق قرابة ثماني ساعات، لأن المسؤولين عن القافلة لم تكن لديهم أدنى فكرة عن وجهتهم. في أثناء النهار لم تكن تلك مشكلة كبيرة. ففي تلك المرحلة المبكرة من الاحتلال كانت الهجمات النهارية قليلة، وغير فاعلة عموماً. أما عندما حل الليل ولم تظهر نهاية لرحلتنا، بدأنا نشعر وكأننا نبحر في سفينة تائهة في الظلام في بحر عدائي، ولسنا وحدة مشاة مكلفة بمهمة. أرسل فريق استطلاع للبحث عن المكان المقصود. وانتظرنا عودته زهاء

ساعة، حيث توقفنا على الطريق في مكان مجهول، نراقب غروب الشمس وراء الصحراء.

أخيراً وصلنا إلى قاعدة الأسد متأخرين في تلك الليلة. وتبين أنها مهبط صغير للطائرات محاط بشبكة من القبب الكبيرة، تبدو مثل كثبان كبيرة من الرمل. لكن أمكننا في ضوء الصباح تبين أنها منشآت إسمنتية لها فتحات تكفي لدخول الطائرات المقاتلة. كانت ملاجئ لطائرات سلاح الجو العراقي.

تعرّض كثير من هذه الملاجئ للقصف، ولكن لم تدمر سوى طائرتين اثنتين. أمّا بقية الطائرات، ومعظمها مقاتلات نفاثة، فنُقلت إلى الصحراء وخبأت تحت شبكات تمويه. وبوصفي جندياً في الجيش الأميركي لم أعرف هل يجب أن أضحك أم أخجل، لأن الحقيقة أن مسؤولاً في سلاح الجو العراقي نجح في خداع المخابرات العسكرية الأميركية، فظنت أنها دمّرت جزءاً كبيراً من سلاح الجو العراقي، في حين أنها لم تدمّر سوى مخابئ خالية.

أنشأنا بيتنا الجديد في بناية تضم أربع غرف صغيرة مجاورة لأحد مخابئ الطائرات التي بقيت سليمة، على بعد نحو خمسة أميال خارج حدود القاعدة الجوية. تطلب الأمر وقتاً لتنظيف البناء، بحيث يمكن العيش فيه. وبما أن درجة الحرارة جعلت النوم في الداخل مستحيلاً، فإن معظم الجنود أخرجوا فرشهم وناموا في الخارج، على الأرض المحيطة بالمبنى. ومن هناك أمكننا رؤية المعسكر الذي سيمثل منطقة العمليات في الأيام العشرة القادمة تقريباً، وهي منطقة تقع قرب المخبأ المجاور لبنايتنا.

تمثلت مهمتنا في المساعدة على إدارة معسكر أسرى الحرب. وكانت الوحدة التي أخذنا مكانها بقيادة ملازم أول طويل نحيل نزع قبعته حين دخل فلاح وجهه المهزول، وسأل عن الملازم سريكاس قائد فصيلتنا. انضم سريكاس إلى سرية تشارلي قبيل تمركزنا في الشرق الأوسط، قادماً من الحرس الوطني لولاية أخرى. كان قصيراً نحيلاً، طفولي الوجه. في الوقت الذي دخل فيه ملازم فوج الفرسان الثالث المدرع إلى منطقتنا، كان سريكاس يعلّق جواربه المغسولة للتو على عمود ستارة الاستحمام في مرحاضٍ مدمّر. أعلن الملازم أنه سيقدم إلى سريكاس، عندما يكون جاهزاً، شرحاً لكيفية إدارة المنشأة. وجد ملازمنا الحالي بسرعة جوربين أسودين نظيفين وأسرع بالخروج من المكان.

عند عودة سريكاس لم يكن في حالة مزاجية جيدة. قال لنا: «سوف يحتاجون إلى قادة جماعات؛ لتدريبكم في دورة سريعة. ولكنكم تعرفون أن ذلك لا يبدو صائباً».

سأله الرقيب الأول وليامز، وهو يرسم ابتسامة باهتة ويرفع حاجبيه استنكاراً: «ماذا تعني يا سيدي؟». كان وليامز شاباً أسود وسيماً طويلاً في أواخر العشرينيات من عمره، يظن دائماً أنه على حق ويكره أن يعارضه أحد، حتى في أتفه الأمور.

قال سريكاس، وقد بدأت تظهر علامات الاهتياج عليه: «حسناً، ولكن ألا تعرف أنه لا يوجد هنا حمالات إسعاف ميدانية؟».

رد وليامز بنبرة أقرب إلى الوقاحة: «وما المشكلة في ذلك؟».

تابع سريكاس: «لا أعتقد أن من الممكن إدارة معسكر لأسرى الحرب دون وجود معدات طبية مناسبة. هل تعرفون ماذا قالوا؟».

قال وليامز الذي جلس الآن مسترخياً على صناديق الوجبات الجاهزة: «ماذا قالوا، يا سيدي؟»

«يجب عدم تسمية المكان معسكرًا لأسرى الحرب، بل معسكر احتجاز». نطق كلمة «احتجاز» بنبرة ساخرة.

عدل وليامز جلسته على الصناديق الكرتونية، وضمّ ذراعيه حول صدره. ثم انتظر بدافع الفضول ليعرف إلى أين سيصل الملازم في خط تفكيره.

قال الملازم متنهداً: «أيها الرقيب وليامز، هذا المكان غير قانوني. كل ما لديهم للعناية الطبية ممرض واحد برتبة عريف. يفترض أن تكون في هذا المكان عيادة طبية. فأين هي؟ ماذا يحدث إذا أصيب أحد هؤلاء الأسرى بأذى؟»، ورفع ذراعيه ساخطاً.

تساءل وليامز، مع أن سبب قلق سريكاس قد أصبح الآن جلياً: «إذاً، ما هي وجهة نظرك يا سيدي؟».

«أنا عازم على الاتصال بالصليب الأحمر، أيها الرقيب؛ لأن من المفترض عدم وجودنا هنا. هذه مهمة تخص الشرطة العسكرية، أو المخابرات الحربية. نحن جنود مشاة، ولم نتدرب على هذا العمل. وهؤلاء الشباب من كشافة الفرسان. ولهذا يريدون منا أن نسمي هذا المكان معسكر احتجاز، لأنه لا يحقق المتطلبات القانونية المناسبة لمعسكر أسرى الحرب».

قال وليامز، وهو ينهض عن صناديق الوجبات الجاهزة: «حسناً، ولكن قبل كل شيء لسنا من نحكم على المكان ونحدد هل هو قانوني أم لا يا سيدي».

ردّ عليه سريكاس، فقال: «هذا المكان سيُغلق إذا استدعينا الصليب الأحمر».

قال وليامز بانزعاج ولكن حاول أن يكون مقنعاً بنبرته: «لا يا سيدي، لن يُغلق». كان سريكاس أرفع منه رتبة، ولكن وليامز يتمتع بخبرة عسكرية أكبر وشخصيةٍ أقوى. وبشكل أو بآخر، كان وليامز ينوي إقناع الملازم بترك المسألة، بطريقة تبدو وكأنه هو من اتخذ القرار، على الأقل في نظر سريكاس.

«الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحدث هو طردك من منصبك، ليتولاه شخص آخر».

بدأ سريكاس يهدأ: «ولكن لا نستطيع أن نكون جزءاً من ذلك. أقصد يجب ألا نكون جزءاً من ذلك. أظن أن علينا التبليغ عنه».

قال وليامز: «علينا أن نؤدي مهمتنا. إذا أبلغنا عن أي شيء، سوف ينقلونه إلى ضابطٍ رفيع الرتبة، وعندها من سيكون الرابح في رأيك؟ هل تعتقد فعلاً أنهم سيقبلون الاستماع إلى ملازم في الحرس الوطني؟».

هدأ سريكاس الآن وأخذ يصغي لوليامز.

عرف وليامز أنه أقنعه: «الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحدث هو انتهاء حياتك المهنية يا سيدي».

قال الملازم المذعن، وهو يمشي إلى داخل المبنى: «لا أدري أيها الرقيب وليامز». عرف أننا سنمضي في القيام بالمهمّة، شئنا أم أبينا.

ما إن غادر الملازم سريكاس وبقي وليامز وحده مع قادة الجماعات

وبعض الجنود الآخرين حتى قال: إنه حاول جاهداً ألا يتعدى على صلاحيات الملازم.

قال، وهو يبدو، كعادته، متيقناً من صواب رأيه: «أحياناً أريد أن أتدخل، ولكن يجب أن أدعه يؤدي واجبه، وإلاّ فلن يتعلم أبداً».

كان سريكاس، مثلي، جديداً على الفصيلة الثانية. عندما كنّا في الأردن، حدثت أنواع الاحتكاكات كلها بين قادة الفصائل ورقباء الفصائل في وحدتنا. أدّى ذلك إلى إعادة تشكيل قيادة سرية تشارلي برمتها. آنذاك بدأ وليامز وسريكاس العمل معاً.

وراء وليامز، أمكن رؤية نارٍ تشتعل من مخلفات بشرية في برميل معدني وسط بقعة مكشوفة عند مدخل الملجأ المجاور للمبنى الذي نقيم فيه. أما الملجأ الذي استخدم معسكراً للمحتجزين، فقد سيج بأسلاكٍ شائكة مزدوجة حادة الأطراف.

ثمة نار أخرى تشتعل خارج المعسكر، على بعد نحو خمسين متراً من سياج الأسلاك الشائكة، قرب كوخ خشبي يستخدم مرحاضاً. وعلمنا أن النيران في الموقعين كليهما، داخل مجمع خاص بالمحتجزين، وخارجه حيث الجنود الأمريكيين، تنفث مزيجاً ساماً من الوقود والمخلفات البشرية.

وصلنا إلى المعسكر، وكنا على وشك تلقي دورة تدريبية سريعة على التعامل مع المحتجزين حين قاطعنا وصول سجينين جديدين إلى المجمّع.

قال ملازم وحدة فوج الفرسان الثالث المدرع، صاحب الوجه النحيل: «آه، حسناً، الآن أيها الشباب، سترون كيفية التعامل المباشر مع المحتجزين على أرض الواقع».

راقبنا نقل المحتجزين إلى منطقة الحبس داخل سياج الأسلاك، ولكن جرى تفتيشهما خارج الملجأ. كان هذا التفتيش الجسدي إجراءً أمنياً إضافياً، تحسباً من أن يكون آسروهم الأصليون، وهم جنود من فوج الفرسان الثالث المدرع أيضاً، قد غفلوا عن أي شيء يمكن استخدامه سلاحاً للفرار. وبعد تفتيش الأسرى يحتفظ بهم في المنطقة ذاتها، مع تقييد أيديهم خلف ظهورهم ووضع أغطية على رؤوسهم ريثما يستعد المحققون «الأشباح» لإجراء التحقيق الأولي. وهؤلاء يعملون سراً، ولا يعرف أحد أسماءهم أو وحداتهم ولا يرتدون زياً رسمياً. في العادة، يستخدمون عموماً أسماء مزيفة. ربما يعملون في المؤسسة العسكرية ـ في القوات الخاصة، أو قوة دلتا Delta، أو «عجول البحر» في البحرية ـ أو لصالح مؤسسات حكومية أخرى مثل وكالة المخابرات المركزية، أو وكالة الأمن الوطني، أو ربما يكونون مدنيين، تابعين لوحدات العمليات الخاصة سابقاً ويعملون الآن مقاولين أو مستشارين أمنيين.

عندما اتجهنا نحو غرفة التحقيق، رأينا للمرة الأولى مّا يجري داخل المعسكر. هناك جندي يرسم على وجهه ابتسامة بلهاء عريضة، بدا من النوع الذي كان زملاؤه يهزؤون به ويظلمونه طوال مدة الدراسة الثانوية، يقف بالقرب من مجموعة من المحتجزين الحفاة الجالسين على أرضية المعسكر الإسمنتية، وقد غطيت رؤوسهم بأكياس الرمل، وقيدت أيديهم أمامهم. ثمة جندي آخر ـ قصير، أصلع، موشوم الذراعين مفتول العضلات ـ يحمل مطرقة ثقيلة على كتفه اليمنى. وكان يتنقل حول السجناء، كأنه ملاكم يجول حول الحلبة، رشيقاً، قوياً، دنيئاً، بذيئاً، مستعداً للكم. ولم يكن يبتسم.

انضممنا إلى المحققين (الأشباح) داخل غرفة مظلمة، فيها جنود آخرون من السرية التي نحل محلها، من بينهم ملازم. طلبوا مني الجلوس إلى جانب محقق عربي الملامح. ثمة مصباح يوفر ضوءاً باهتاً يخفف من حلكة الغرفة ولا ينيرها. تمثلت مهمتي في تدوين الملاحظات. بالقرب من المنضدة هناك محقق آخر يبدو متوتراً ومنزعجاً. كان طويلاً أشقر، يوجّه أسئلة باللغة الإنكليزية إلى المحتجزين، فيبادر المحقق الجالس إلى جانبي إلى ترجمتها إلى العربية.

هناك قائد جماعة آخر من فصيلتي جلس إلى جانب المحتجزين، للتأكد من عدم قيامهم بأعمال بطولية وأنهم يفعلون ما يؤمرون. وعند إحضار كل محتجز إلى الغرفة، يُؤمر بأن يخلع ثيابه للتفتيش، ثم يدور ويركع. لاحظت أن محققاً ثالثاً يقف في أقصى مؤخرة الغرفة، يراقب من هناك كل شيء يجري داخلها، ويضع نظارات شمسية بالرغم من العتمة.

بدأ الاستجواب بالأسئلة الأساسية، كالاسم، واسم الأب، والقبيلة، والدين، ومكان الولادة، ومكان الإقامة، والمهنة، إلخ.... بعد ذلك انتقل المحقق إلى سؤال كل سجين عن سبب وجوده هناك، ولماذا يعتقد أنه احتجز. تبين أن السجينين اللذين رأيتهما يخضعان للاستجواب ليس لديهما سوى القليل للإجابة عن هذا السؤال. وقالا إنهما كانا مسافرين بحافلة أياماً عدة، وعندما وصلت إلى وجهتهما نزلا منها وشرعا بالسير.

لسوء حظهما كانت هناك نقطة تفتيش عسكرية أمريكية، بعد موقف الحافلة مباشرة. وعندما رأى الجنود في نقطة التفتيش شخصين ينزلان من الحافلة قبل موقعهم ويسيران مبتعدين في الاتجاه المعاكس، اشتبهوا فيهما وألقوا القبض عليهما.

سأل المحقق الأشقر الطويل: «لماذا نزلت من الحافلة؟»

«لأن المكان هو وجهتنا المقصودة» كما قال المترجم.

«ولماذا ابتعدتما عن الجنود؟».

أجاب أحدهما: «أنا سرت في طريقي المعتاد». توقف المترجم عندئذ لحظة، ثم نظر إلى السجين الآخر، وقال: «يريد أيضاً أن يعرف لماذا اعتقل». رد المحقق بصوت غاضب لكن هادئ ومترو قل له: إنني أنا الذي أطرح الأسئلة اللعينة هنا.

اتضح أن السجين الذي طرح السؤال قد أزعجه الجواب، وأشار بيديه المقيدتين إلى أعضائه التناسلية، وأخذ يتكلم بسرعة ويصرخ باللغة العربية.

«يقول ....»

قاطعه المحقق الذي يطرح الأسئلة قائلاً: «لا أريد أن أعرف ما يقول».

صرخ أحد جنود فوج الفرسان الثالث المدرع، الذي بدا من الواضح أنه يمتلك خبرة كبيرة في عمله، في وجه الرجل العاري: «اخرس يا ابن العاهرة. اخرس! اخرس! اخرس يا ابن العاهرة. اخرس، اخرس أيها الحجي».

«حجي» كلمة تحقيرية جديدة، استخدمها العساكر الأمريكان للإشارة إلى العدو في العراق، وتشبه إلى حد كبير كلمة gook التي استخدمت لوصف الفيتناميين (تعني حرفياً سائل مخاطي قذر)، وتعبير raghead (حرفياً: الرأس المحشو بالخرق) لوصف الأفغان، ثم توسعت في مدلولها

لتشمل كل ما هو عراقي مثل «طعام الحجي» (Hajji Food) أو «بيوت الحجي» (Hajji Homes) أو «موسيقى الحجي» (Hajji Music)، مع أنها في العربية تشير إلى المسلم الذي يؤدي فريضة الحج إلى مكّة المطلوبة منه مرة في العمر على الأقل.

أخيراً صمت المحتجز، وبدأ ينظر إلى السقف، وارتسمت عليه تعابير الغضب، والسخط، والعجز المطلق.

تابع المحقق: «ماذا قال لك الجنود؟ هل ذكروا سبب احتجازك؟»

أجاب المترجم: «لا يوجد واحد من الجنود يتحدث العربية وهو لا يفهم الإنكليزية».

سأل المحقق، وهو ينظر إلى الجندي الذي أوشك قبل لحظة على الاعتداء على المعتقل: «هل وجدتم أي أسلحة في أمتعتهما؟».

أجاب: «لا أعلم، فالجنود الذين سلموهما لنا لم يعطونا أي شيء، لا أمتعة، ولا وثائق، ولا تفسيراً. رموهما هنا وذهبوا».

سأل المحقق وهو ينظر إلى شريكه العربي: «ما سبب وجود هذين هنا؟». هز كتفيه بطريقة توحي بعدم تيقنه.

انتهى التحقيق عند ذلك الحد، وغادر «المحققون الأشباح». قبل إخراج المحتجزين من الغرفة طلب منهما ارتداء ملابسهما مرة أخرى، وأبلغا بأنهما سيطلقان في أقرب وقت ممكن. لم يعتذر لهما أحد. بعد ذلك صنفا في قائمة المحتجزين غير المقاتلين ووضعا في منطقة احتجاز داخل المعسكر، حيث فك قيديهما لكن بقي الغطاء على رأسيهما. وما إن تصل

أعداد المحتجزين إلى مستوى معين يؤخذون إلى مدينة البغدادي القريبة للإفراج عنهم.

قيل لنا: إن الوقت قد حان لنتعلم كيفية التعامل مع المحتجزين الذين وضعوا في فئة المقاتلين. غادرنا الغرفة المظلمة، واحتجنا إلى لحظة لاستعادة القدرة على الإبصار نتيجة الدفق المفاجئ لضوء النهار. ولكن استطعنا على الفور أن نسمع صراخاً يصدر عن إحدى مناطق احتجاز الموقوفين: «ارفع ذراعيك، يا ابن العاهرة، إلى أعلى قلت إلى تحت، تحت، تحت، هيا. إلى أعلى، الآن استدر، الذراعان إلى تحت، يا ابن العاهرة، إلى أعلى، أعلى، أعلى».

استعدنا الرؤية تدريجياً ، فشاهدنا جنديين سبق أن التقيناهما في غرفة التحقيق ـ النحيل صاحب الابتسامة البلهاء والقصير صاحب العضلات المفتولة، الذي تبيّن أنه رقيب أول. وقف هناك بعض الجنود الآخرين، ولكن هذين هما اللاعبان الأساسيان داخل المجمّع كما اتضح. والرجل النحيل ـ المختص كما قيل لنا ـ هو الذي يصدر عنه الصراخ كله.

قال ملازم فوج الفرسان الثالث المدرع، وهو يشير بيده إلى مجموعة من المحتجزين الذي غطيت رؤوسهم، وبدا أنهم مضطربون ومرتكبون ومترددون في مواجهة الصرخات الوحشية التي تستهدفهم: «هنا المكان الذي نحتفظ فيه بمقاتلي العدو».

كان من ضمن مجموعتنا من المراقبين الرقيب الأول ديمريست، وهو رجل أبيض، طويل نحيل، في أواسط الأربعينيات من عمره، وأعلى ضابط صف رتبة في فصيلتنا، لكنه أقل مكانة من وليامز لأنه جديد في سرية

تشارلي، وهذا يعني أنه أقل حظوة عند قيادتها. وهو المسؤول عن جماعة المدافع الرشاشة الثانية في الفصيلة.

سأل ديمريست: «ما الذي يجعلهم مقاتلين؟».

قال الملازم: «الأشباح يقررون».

«نعم، ولكن ما نوع الأشياء التي فعلوها؟».

صرنا الآن أقرب كثيراً إلى العمل الفعلي. ازداد صراخ الاختصاصي النحيل ارتفاعاً كلما اقتربنا. اعتقدت أنه يزداد دناءة وبذاءة مع المحتجزين، لمجرد التظاهر أمامنا. تساءلت في سري: هل يوجد على الأرض مكان آخر يستطيع فيه مثل هذا الرجل الضعيف العاجز ممارسة نصف ما يمارسه هنا من حقارة ووضاعة؟

تابع الملازم كلامه في أثناء الدروس التدريبية السريعة: «ثمة اختلاف وتباين بين الموقوفين هنا. على سبيل المثال، هؤلاء الثلاثة قبض عليهم وبحوزتهم صناديق خشبية تحتوي على متفجرات». ومد ذراعه فوق حاجز الأسلاك ليشير إلى ثلاثة سجناء جالسين داخل منطقة المقاتلين.

سأل ديمريست، الذي دفعني الحَوَل في عينيه إلى الاعتقاد خطأ بأنه يتحدث إلي: «ما نوع المتفجرات؟».

قال الملازم: «لا نعرف، الصناديق كانت فارغة. وادعوا أنهم وجدوها في مكان ما، وأنهم أرادوا تقطيعها لاستخدامها حطباً».

نظر ديمريست إلي. بدا أننا نفكر بالسؤال نفسه.

ثم سأل ديمريست، محولاً انتباهه مرة أخرى إلى الملازم: «لماذا احتجزوا إذاً؟».

قال الملازم بأسلوب إيقاعي مقصود، كاشفاً عن شيء من الانزعاج: «لأنهم يحملون صناديق خشبية تحتوي على متفجرات».

قال ديمريست، وهو يشير إلى محتجز مهزول لا يبدو مؤذياً: «وماذا عن الرجل هناك؟».

توقف الملازم لحظة، ثم تابع بنبرة متباهية: «آه، هذا الرجل اعتقل ومعه بندقية قنص»

لم أتمكن من إخفاء شكي بصدقه. «بندقية قنص؟!»

«أجل، يزعم طبعاً أنه راعٍ، وأنه بحاجة إلى بندقية لحماية خرافه من اللصوص. ويقول إنه يحبّ أمريكا، لكن تعرف أنهم يكذبون كلهم، ويزعمون حب أمريكا».

في وقت لاحق من انتشارنا علمنا أن معظم العراقيين يملكون بنادق ومسدسات، غالباً منذ الحرب مع إيران التي امتدت عقداً من السنين. والأسلحة منتشرة إلى حد أن الحكومة العراقية الجديدة التي نصبتها الولايات المتحدة قررت السماح لكل أسرة بالاحتفاظ ببندقيتين بقصد حمايتها من اللصوص والمعتدين ومن القبائل المنافسة. ويقال إن النزاعات المسلحة بين القبائل منتشرة في بعض قطاعات المجتمع العراقي، وخاصة في البلدات الزراعية، حيث الأرض تمثل سبباً شائعاً للنزاعات. ولكن تطلب الأمر مدة من الزمن قبل توقف السلطة العسكرية الأمريكية عن النظر إلى كل عراقي يمتلك سلاحاً بوصفه متمرداً مسلحاً.

تابعنا السير حول مجموعة المقاتلين، ولنستوعب بهدوء ما يجري. كانت تمر أوقات من الصمت، وكأن الحراس قرروا ترك السجناء وشأنهم، ولكن الصراخ يهدر فجأة مرة أخرى. في واحد من أوقات الهدوء هذه، بينما نستمع إلى شرح الملازم لبعض تفاصيل ما يحدث، سمعنا دوياً هائلاً، جعلنا جميعاً نقفز من شدة الذعر، وتردد في أرجاء المكان صدى كهزيم الرعد. اعتقدت لأول وهلة أنه انفجار حتماً. لكن لم يبد أفراد فوج الفرسان الثالث المدرع أي اهتمام، وتابعوا بهدوء عملهم المعتاد. وقبل أن يتاح لنا أن نسأل: ماذا حدث؟ استفاد الملازم من انتباهنا الشامل.

«مهمتنا هنا، التي ستكون مهمتكم منذ يوم غدٍ، لا تشمل تقرير: من هم المقاتلون الأعداء؟ بل تنحصر فقط في إطعام السجناء حتى يغادروا، وإبقاء المقاتلين الأعداء في حالة انتباه وتيقظ».

تابع كلامه وهو يشير إلى منطقة أخرى: «هؤلاء هم غير المقاتلين، يُقدم لهم الطعام مرتين كل يوم، ويحصلون على الماء ما داموا يطلبونه».

سأل أحد الموجودين: «وماذا عن المقاتلين؟».

«هؤلاء يحصلون على ما يريدون من الماء أيضاً، ولكن تقدم لهم وجبة طعام واحدة في اليوم».

أطلعنا على كدس من الوجبات المعبأة في علبٍ، تشبه كثيراً «وجبات الطعام الجاهزة»، ولكنها موضوعة في علب صفراء بدلاً من البيضاء المعتادة. هذه وجبات تستخدم لإغاثة المنكوبين في سائر أنحاء العالم. وغالبيتها مكونة من طعام نباتي، ولا تحتوي على لحم الخنزير. قبل تقديم الوجبات إلى السجناء يجب أن نفتح الوجبات، ونأخذ منها السكاكين

والشوك البلاستيكية. ولأسبابٍ تتعلق بسلامة السجناء لا يسمح لهم إلا بالملاعق البلاستيكية لتناول الطعام.

سأل ديمريست: «إذاً، تبقيهم في حالة انتباه وتيقظ؟».

قال الملازم، ونحن نقف قرب مكان حجز المقاتلين: «نعم، نحرمهم من النوم».

صرخ الاختصاصي على السجناء: «انهضوا يا أبناء الزنى، كلكم، الآن!».

قفز أحد الجنود، الذي كان يقف هادئاً قبل لحظات،على أحد المحتجزين، الذي تباطأ قليلاً في التحرك، وصاح بأعلى صوته:

«انهض، أيها الحجي الحقير، ألا تسمع ما يقوله لك؟ انهض يا ابن الزانية، قف، قف، قف».

تسارعت نبضات قلبي، وأنا أشاهد ذلك كله؛ وجدت التعامل مع السجناء خاطئاً وصادماً. ولكن لم أرغب بأن أبدو منزعجاً أمام الجنود الآخرين، الذين بدا أنهم لا يعترضون على ما يجري. داومت على طمأنة نفسي إلى حقيقة أن المحتجزين لا يتعرضون للضرب، مع أن الرجفة التي أصابتهم من فرط الذعر، أفصحت عما يعانون من كرب وإرهاق، جسدياً ونفسياً.

سألتُ الملازم: «كيف يفهمون؟».

«بعد أن تصرخ في وجوههم مدة ثمانٍ وأربعين ساعة يفهمون المقصود».

«ثمانٍ وأربعون ساعة؟».

أجاب وكأن المسألة ليست مهمة: «نعم، هكذا يجبر الأشباح هؤلاء على الاعتراف وتقديم المعلومات. فبعد حرمانهم من النوم، يبدأ استجوابهم».

بدأ الاختصاصي الآن التجول في المكان.

«تصرخ في وجوه أبناء الزنى مئات المرات ليبقوا متيقظين، وصدقني إنهم يعرفون ما يحدث حولهم كله».

كلمني بألفة كأنه زميل قديم، وابتسم بطريقة جعلتني أرغب في صفعه. أومأت موافقاً.

كان واضحاً أن المحتجزين، على الرغم من الصراخ والإشارات العدوانية، لا يستجيبون بسرعة كافية، فكثير منهم يتباطؤون ويتعثرون.

قال الرقيب القصير الموشوم: «انظر إليهم. لا يصغون إلى الكلام». وأشار إلى بعض المحتجزين الذين يحاولون النهوض، بينما نهض الآخرون.

قلت في سري: أنهكهم التعب أيها الدنيء. كرهت هذا الرجل منذ البداية، وتصورته كلباً، إلى حدّ أنني دُهشت حين تكلم ولم ينبح.

قال مزمجراً وهو ينظر إليَّ معتقداً أني موافق على أفعاله: «أحياناً يجب أن تكون مبدعاً مع أبناء الزنى هؤلاء».

تابع الاختصاصي الشاب صراخه، بينما ذهب الرقيب إلى خارج سياج الأسلاك، واتجه نحو جدار مجاور للمحتجزين. رأيته يلتقط مطرقة، وشعرت بالرعب فعلاً. قلت في سري: ماذا ينوي هذا المختل أن يفعل الآن؟ شعرت أنني أحمل في داخلي سراً معتماً. كان بمقدوري تقبل فكرة أن العراقيين المحتجزين ربما يكونون أعداء خطرين، وأنا بالتأكيد لم أثق

بهم. واعتقدت أيضاً أن من المعقول تقييد أيديهم وتغطية رؤوسهم، لأننا لا نملك زنزانات لوضعهم فيها، ويمكنهم الانقضاض علينا. ولكن ماذا ينوي هذا المعتوه أن يفعل بتلك المطرقة الضخمة؟ أصابني اضطراب مروع، دون أن أعرف هل كنت خائفاً على المحتجزين أم مما سيحدث لي إذا فعلت شيئاً لمساعدتهم. عرفت أن الإفصاح عن الانزعاج العميق الذي شعرت به جرّاء ما يحدث في المعسكر من شأنه أن يورطني في مشكلة. إذاً، ما الذي سأفعله حيال الرجل الذي يحمل المطرقة الضخمة؟ ربما لن أفعل شيئاً، مثلما اعترفت في سري، ولكنّي لم أشعر بالارتياح إزاء ذلك.

«أبناء الزنى، ألا تريدون النهوض!».

كان الرقيب الأول واقفاً إلى جانب الجدار، بينما بدت المطرقة مثل مضرب البيسبول على كتفه.

«أنتم تريدون فعل ما ترغبون، أليس كذلك يا أبناء الزنى!».

كان الملازم ينظر شذراً من الطرف الآخر من المجمّع، ليعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك، في حين قهقه الاختصاصي النحيل. دهشت من سهولة حمل الرقيب للمطرقة الضخمة وتلويحه بها.

«حسنا، يا أبناء العاهرة...».

ثم دوّى صوت ارتج له الملجأ المحصن برمته، كأنه صادر عن انفجار هائل. قفز المحتجزون كلهم واقفين. «أعجبكم الصوت، أليس كذلك، يا أبناء العاهرة؟».

دوى الصوت الراعد مجدداً، لكنه صار أعلى. وفي كل مرة يضرب

فيها الرقيب الجدار بالمطرقة الضخمة، يبدو كأن قنبلة انفجرت قرب المحتجزين الذين كانوا يرتجفون ذعراً وهلعاً من الهدير الداوي.

قال الملازم: «عليكم بعد مدة أن تتوصلوا لأساليب جديدة لإبقاء هؤلاء دون نوم». ونظر إلى الرقيب الذي أعاد المطرقة الضخمة إلى مكانها عند الجدار. ثم أضاف: «لكن يجب عدم المبالغة في الاستمرار في طريقة واحدة وإلا سيعتادونها».

سأل ديمريست: «كم من الوقت تستمرون في حرمانهم من النوم؟».

«معظم هؤلاء هنا منذ يوم ونصف اليوم، وبعضهم منذ ثمانٍ وأربعين ساعة».

هناك نحو ثمانية محتجزين مأسورين ضمن دائرة المقاتلين، وقفوا الآن كلهم. أمكن سماع أحدهم يبكي من تحت كيس الرمل الذي يغطي رأسه ووجهه. لفت انتباه الملازم صوت نحيبه الواهي.

بدا الملازم رقيقاً وهو يسأل: «ما الأمر؟ هل تعبت؟» ثم قال للحراس الذين ابتسموا له: «اسمحوا لهم بالنوم قليلاً».

تبادلنا أنا واثنان من قادة الجماعة،والرقيب ديمريست، النظرات.

قال الاختصاصي بنبرة سريعة، كأنه على وشك الذهاب إلى مكان ما: «حسناً، اجلسوا، اجلسوا يا أبناء الزنى. تفهمون ما أقول أليس كذلك؟».

جلس جميع المحتجزين على الأرض، وخيم صمت شامل. لكن الحرّاس ظلوا واقفين في مكانهم. نظر الملازم إلى ساعة يده، وبقي طوال الوقت يضرب على الأرض بحذاء قدمه اليمنى، ويحرك رأسه إلى أعلى وإلى أسفل، كأنه يساير إيقاع أغنية.

قال بعد مدة قصيرة: «حسناً، هذا يكفي أيها النائمون الحالمون؛ أيقظهم من جديد؛ اجعلهم يستيقظون».

صرخ الاختصاصي والحرّاس الآخرون بحنق انتقامي: «انهضوا يا أبناء العاهرة، هيا، هيا».

قال الملازم شارحاً، كأننا مجموعة من السياح، وكأنه دليلنا في الجولة: «أترون، عندما تسمحون لهم بالنوم ثلاثين أو خمساً وأربعين ثانية، بعد أن ظلّوا مستيقظين مدّة طويلة، فإنكم تحطمونهم نفسياً. ترون الآن أن هؤلاء السفلة الذين ناموا خمساً وأربعين ثانية، لا يعرفون هل ناموا يوماً، أو ساعة، أو خمس دقائق».

لا يزال المحتجز الذي لفت انتباه الملازم يئن بهدوء. نظر إليه الملازم بانزعاج لكنّه واصل كلامه، ليشرح أن تغطية رؤوس المحتجزين ووجوههم تعزز تشوشهم وارتباكهم، إذ يصعب عليهم معرفة الليل من النهار، عند ذلك يسهل على الأشباح أداء عملهم، حسبما قال، حيث ينهار السجناء جسدياً، وعاطفياً، ونفسانياً.

قال الملازم، وهو يتوجّه نحو السجين المنتحب: «تستطيع دوماً العثور على طرق مبتكرة لإضعاف مقاومتهم وترويضهم وحرمانهم من النوم لإعدادهم للاستجواب». اقترب كثيراً من السجين حتى كاد يلامس وجهه. توقّف النشيج لحظة، حين أدرك السجين اقتراب شخص منه، ثم بدأ مجدداً.

طلب الملازم منه الهدوء بنبرة رقيقة إلى حد مقلق: «ششه!». في هذه الأثناء تقدم الرقيب الأول أيضاً باتجاه المعتقل.

أخرج الملازم علبة سجائر وأشعل واحدة. علا نحيب السجين. الآن، سحب الرقيب الأول مسدساً من عيار 9 مم، وبينما كان الملازم يتفرس في السجين، ضغط الرقيب فوهة المسدس على صدغه.

قال الملازم بالعربية: «سكوت». بدا صوته عادياً ولطيفاً تقريباً.

ولكن الرجل، الذي ظن أنه سيعدم حتماً، تابع نحيبه معبراً عن تبريحه، وأخذ جسده يرتجف ويهتز. هيأ الرقيب المسدس ليوهم السجين بأنه سيطلق النار على رأسه.

كررّ الملازم: «سكوووت!».

بدأ السجين يتنفس بسرعة، وتملكته حالة من الهلع الشديد، لكن نحيبه توقف فابتعد المسدس ببطء عن صدغه. سحب الملازم نفساً عميقاً من سيجارته، ورفع كيس الرمل عن وجه السجين حتى شفتيه.

قال: «جيد». ثم نظر إلينا وأضاف: «أترون، تستطيعون التواصل معهم حين تعرفون كيف». نفخ دخان السيجارة في وجه الرجل، ووضعها بلطف في فمه. سحب السجين نفساً عميقاً منها.

قال الملازم للسجين الصامت الآن: «جيد، يا صديقي، جيد جداً». ابتسم الملازم لنا، معبراً بوضوح عن ارتياحه ورضاه.

في اليوم اللاحق تسلمت فصيلتي العمل من وحدة فوج الفرسان الثالث المدرع، وكان مفترضاً بنّا أن نواصل عملية حرمان السجناء من الأعداء المقاتلين من النوم.

بصفتي قائد جماعة، حاولت دائماً المشاركة في العمل الذي توقعت من رجالي القيام به. ولكن في هذه الحالة استفدت من رتبتي واكتفيت

بمراقبة الآخرين، وهم يسيئون معاملة المحتجزين. لم أكن أشعر بالارتياح، ولكني لم أعرف طريقة أخرى للتعامل مع الوضع. سمحت مدة من الزمن باستعمال المطرقة الضخمة، ولكني طلبت بعد ذلك من الجنود أن يتوقفوا عن استعمالها؛ لأن الضجيج، كما زعمت، أزعجني. من حسن الحظ أننا لم نكن نحمل مسدسات، لذلك انتفت إمكانية تنفيذ إعدامات وهمية. أمضيت أطول مدةٍ ممكنة داخل الملجأ، ألعب الورق.

كان علينا الاستمرار في حرمان الأعداء المقاتلين من النوم يوماً واحداً، ثم ينقل السجناء صباح اليوم اللاحق إلى مكان الاعتقال الدائم، الذي أملت أن يلبي شروط معسكرات أسرى الحرب.

كانت المهمة في قاعدة الأسد واحدة من أصعب المهمات، التي أديتها في أثناء وجودي في العراق، إن لم أقل في الخدمة العسكرية برمتها. فقد كنت، من ناحية، معارضاً بالكامل لطريقة معاملة السجناء في المعسكر، ومن ناحية أخرى، خفت أن أدافع عنهم، فأبدو قائد جماعة ليناً وضعيفاً، بل كنت أخشى أن أُتهم بعدم الطاعة فأُحاكم عسكرياً. هناك طرق متعارف عليها لتسويغ الأشياء التي كنا نفعلها، وجربتها كلها. قلت في نفسي: «عندما وقعت العقد وافقت على طاعة الأوامر، وأنا أفعل ذلك من أجل الجنود الآخرين». ولكني لا أستطيع حتى الآن أن أجد جواباً واحداً مقبولاً عن سبب وقوفي موقف المتفرج في أثناء الإساءة إلى هؤلاء السجناء، ما عدا جبني بطبيعة الحال.

واصلنا إدارة المعسكر والتعامل مع المحتجزين، الذين لم يكونوا من المقاتلين مدة أسبوع آخر أو نحوه، إلى أن وصلت وحدةٌ من الشرطة العسكريّة لتحل محلنا. ذهبنا آنذاك بالسيارات مسافة عشرة أميال على

الطريق المؤدية إلى أماكن سكن ضباط القاعدة الجويّة، وهي منشآت تشمل مسجداً، ونادياً للتمارين الرياضيّة، وبركة كبيرة للسباحة، وثكنات مكيفة ومجهزة بغرفٍ للنوم على الطراز الغربي، وأماكن للاستحمام، ومراحيض. أردنا أن نقيم هناك مدةً أطول، ولكن الوحدة التي أنتمي إليها كُلّفت بعد يومين بمهمة لاحقة، كانت هذه المرّة في مكان يسمى الحديثة.

في الحديثة واحد من أكبر السدود في العراق، ولا بد أن صدّام حسين فخر جداً ببنائه، وما تزال صورته ظاهرة على أوراق النقد العراقية القديمة. أقيم هذا السد العالي فوق نهر الفرات. استطعنا أن نرى من قمته البحيرة خلفه تمتد أميالاً؛ وفي الليل، تمكنا أيضاً رؤية أضواء بلدةٍ قريبة من السد، وهي بلدة كبيرة يبلغ عدد سكانها نحو مئة ألف.

وبسبب الأضرار الكبيرة التي لحقت بالمكان في أثناء القتال العنيف، والافتقار إلى قطع الغيار اللازمة للإصلاحات، فإن المهندسين العراقيين الذين جرى استخدامهم للعمل في السد قبل الغزو، لم يعد لديهم الكثير من العمل للقيام به. ولكن بالرغم من ذلك كله، وحتى حين لم يُدفع لهم أجر للقيام بأي مهمة، فإن المهندسين المخلصين للعمل في مجال الطاقة جاؤوا كل يوم. وتمركزنا هناك لحراستهم في منطقة السد في المناسبات المتفرقة التي عملوا فيها. لم تكن لديّ أي فكرة عما يفعلونه وما هي جدواه، ولكن من المؤكد أنهم كانوا فخورين بعملهم. قالوا لنا ذات مرّة: إن السد وفّر في وقتٍ من الأوقات نسبة 70% من الطاقة التي تحتاج إليها بغداد.

تأكدت لنا الأهمية الإستراتيجية للسد من جنود الفرقة 101 المحمولة جواً الذين أخذنا مكانهم، حين قالوا: إن جنود الجوالة خاضوا قتالاً شرساً مع قوات الحرس الجمهوري من أجل الاستيلاء على المكان.

قيل لنا أيضاً: إن الجوالة قاموا، بعد الانتصار في معركة الاستيلاء على السد، بدفن جثث العراقيين الذين قتلوا في أثناء المعركة في قبورٍ ضحلة خارج أراضي السد مباشرة. بعد مرور بضعة أيام على عملية الدفن المستعجلة، نبشت الكلاب الضالة القبور، وبدأت بالتهام الأشلاء. أخيراً قرر سكان الحديثة أن الوقت قد حان لدفن القتلى، بطريقة لائقة، هذا أمر بالغ الأهمية في التقاليد الإسلامية. قمنا بجولة للتعرف إلى واجباتنا الجديدة، فشاهدنا الحفر التي كانت قبوراً،وتبين أن عمقها لم يزد عن نصف المتر.

بدا العمّال العراقيون سعداء عندما حلّت في النهاية الوحدة التي أنتمي إليها محلّ جنود الفرقة 101 المحمولة جواً، الذين اتهموهم بالقسوة والوحشية. تمثل جزءٌ من المشكلة بين العراقيين والفرقة 101 في شريط فيديو كان العمّال يشاهدونه. ففي أحد الأيام العديدة التي قضاها الجنود دون عمل، خطرت في بال أحدهم فكرة عرض شريط لهجمات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر). وعندما سَمِع الجنود أصوات الهتاف والتصفيق، أرسلوا فريقاً للتحقق من الأمر، فاكتشفوا ما بدا وكأنه حفلٌ. وعندما أدركوا أن الاحتفال ترافق مع عرض صور انهيار البرجين، التي أعادها العمال مراراً وتكراراً، صادروا جهازي التلفزيون والفيديو ، فحولوا العلاقة المتوترة أصلاً إلى عداوة.

في واقع الأمر، لم يصب هتاف العمال وتهليلهم لانهيار البرجين التوأمين في مصلحة العلاقة مع أفراد وحدتي أيضاً، ولكن لأن جنود الاحتياط والحرس الوطني من المدنيين أيضاً، وعملهم الأول هو الإسعاف والإغاثة في حالة الكوارث، كان من الأسهل علينا التعاطف مع العراقيين.

وخلال بضعة أيام من إشرافنا على الموقع تحسنت علاقتنا مع العمال، بل غدت ودية في بعض الأحيان.

كلفت فصيلتي بالعمل داخل منطقة السد. وكما هي الحال في معسكر أسرى الحرب، عملت كل جماعة من الجماعات الأربع بنظام مناوبة، مدتها ست ساعات. وفي أثناء هذه الساعات أتيحت لنا الفرصة للالتقاء بعدد من المهندسين، الذين كانوا جميعاً يتقنون الإنكليزية. وعلمنا أن معظم العراقيين الذين درسوا في الجامعة يتحدثون الإنكليزية بطلاقة. لاحظت أن تواصلهم مع العمال الأقل تعليماً، مثل السباكين وعمال الصيانة، على القدر ذاته من سهولة تواصلهم مع زملائهم المهنيين. فالطبقات الاجتماعية ومكانة أفرادها أقل أهمية مما هي في أمريكا. وعند مناوباتهم الليلية كانوا جميعاً ينامون في الغرفة نفسها، وكثيراً ما أحضروا مسجلات لسماع الأغنيات العربية، ووجبات طعام محضرة في منازلهم يتقاسمونها بينهم وأحياناً معنا. كنا نأكل بأيدينا، ونستعمل الخبز بدلاً من الملاعق، ونغسل الفواكه والخضر بواسطة زجاجات الصودا، التي بدت وكأنها خارجة من الإعلانات التجارية في ثمانينيات القرن الماضي. وبعد كل وجبة، كنا ننخرط في مناقشات طويلة، وندخن السجائر، ونشرب الشاي الغامق المحلى الشائع في الشرق الأوسط.

في إحدى تلك الليالي، تحدثنا مع مهندس كردي.

سألته: «إذاً أنت لست مسلماً؟».

قال، وهو ينظر إلى بقية العراقيين الجالسين حول الطاولة معنا، وينفث دخان سيجارته: «أنا مسلم بطبيعة الحال، نحن جميعاً مسلمون.... ونحن عراقيون، لكن هؤلاء عرب، وأنا كردي».

قلت خشية أن أبدو عنصرياً: «ولكنكم جميعاً في نظري متماثلون».

قال بإلحاح: «لسنا كذلك، أنا كردي وهم عرب». ثم بدأ يترجم كلام العمال الآخرين، الذين لا يتحدثون الإنكليزية، ولعله علق على مدى جهلي.

سألت أحد العمال الذي سمع للتو الترجمة: «هل يمكنك أن تشرح لي الفرق؟». نظر إلى المهندس الذي ترجم سؤالي بدوره.

أجاب بالعربية: «نعم نعم».

ابتسم العمال الآخرون وهم يدخنون سجائرهم، ولاحظوا أنني أهضم المعلومات ببطء. ولتبسيط المسألة، شرح المهندس الكردي أن الأمر يشبه ما نجده في إيران، حيث إن الإيرانيين مسلمون، ولكنهم ليسوا عرباً. قال موضحاً: «إنهم من الفرس».

تحدثنا حول بعض أفراد المجموعة الذين أيدوا الغزو أصلاً، ولاسيما الأكراد والشيعة، ولكن معظم الناس، إن لم يكن كلهم، سئموا من انتظار عودة فرص العمل، وخدمات الماء والكهرباء، وفتح المدارس، وباختصار: عودة بلدهم إلى الحياة الطبيعية. كانوا جميعاً يوافقون على أن هذا لا يتحقق إلاّ بعد رحيل الجيش الأمريكي عن العراق. قلت لهم: إننا سنغادر العراق عمّا قريب، وستكون الأمور أفضل مما كانت سابقاً. ما يصدمني الآن أنني لم أنطق هذه الكلمات فقط، بل كنت أؤمن بها إيماناً راسخاً. بل قلت للمهندسين: إننا إذا أخذنا في الحسبان طلاقتهم في اللغة الإنكليزية ومؤهلاتهم المهنية، فمن المتوقع لهم الحصول على رواتب كبيرة في المستقبل القريب.

أتذكر أنني قلت لهم: «المهندسون من أمثالكم في الولايات المتحدة الذين يعملون في منشآت كبيرة كهذه يكسبون ثروة. صدقوني إن الأمور ستسير على خير ما يرام».

نظروا إليَّ غير مصدقين، ولم يجادلوا، بل اكتفوا بابتسامات دلت على تشككهم. تذكرت تلك الابتسامات بعد شهور، عندما تحدثت مع أحد العمال في الرمادي، بعد أن طلب مني قليلاً من الماء البارد في يوم قائظٍ من أيام شهر آب (أغسطس). كان رث الثياب وينتعل بقايا حذاء، وعرقه يتصبب على وجهه القذر الذي لوحته الشمس، وهو يخلط الإسمنت لتثبيت إطارات بعض النوافذ في المبنى الذي نقيم فيه. لم يكن أجره يزيد عن ثلاثة دولارات في اليوم مع أنه مختص بالجيولوجيا.

مازلت أحب ذكريات تلك الأيام التي أمضيناها في موقع سد الحديثة، ليس فقط لوجودنا في مكان يُعد آمناً نسبياً من الهجمات، ولا لأننا كثيراً ما سبحنا في مياه الفرات، وإنما لأن الحديثة كانت أول ما فتح الباب أمامي لأتعرف على ثراء الثقافة العراقية. بيد أن مهمتنا هناك لم توفر لنا الخبرة القتالية التي حرصت قيادتنا عليها، وفي أواسط شهر مايو عدنا إلى قاعدة الأسد استعداداً لمهمة أخرى. هذه المهمة المقبلة سوف تأخذنا إلى الرمادي، وهي مدينة في قلب المثلث السني. لم أكن أعرف آنذاك أنني على وشك أن أتعلم درساً جديداً عن العراق وشعبه: إصراره على مقاومة الاحتلال الأجنبي، والكفاح من أجل حق تقرير المصير. لا بد أن أقول: لقد تعلمت هذا الدرس بأصعب الطرق.

رابعاً

لم تكن الحياة بالغة السوء بالنسبة لوحدتي، وحدة الحرس الوطني في فلوريدا، بعيد وصولنا إلى الرمادي. أقمنا في مبنى للصيانة موبوء بالبراغيث، سبق أن استعمله الحرس الجمهوري. المكان قذر إلى حد لا يوصف والحرارة لا تحتمل. ولكننا تدربنا، بوصفنا من جنود المشاة، على تحمل أسوأ الأوضاع وأصعب الظروف، ولذلك لم نبالغ في الشكوى. إضافة إلى ذلك، اقتصرت الإصابات في وحدة فوج الفرسان الثالث المدرع التي حللنا محلها على حالة واحدة نتجت عن إصابة جندي أطلق قاذفة قنابل يدوية على جدار مقابله، فارتدت شظايا القنبلة وأصابته في وجهه. وعند نقله جواً إلى مستشفى ميداني لم يتوقع له الأطباء أملاً كبيراً بالنجاة. كان هذا حادثاً مؤسفاً، ولكنه لم يمثل أي شيء مهم فيما يتعلق بالتمرد في الرمادي.

كانت غرفنا صغيرة ومزدحمة، تبعثرت فيها القنابل اليدوية، والبنادق، والألغام المضادة للأفراد، والقاذفات المضادة للدروع، واستندت إلى جدران خرّقها الرصاص، أو تكدست تحت الأسرة الميدانية. وصحيح أن

الناموسيات نجحت في توقي البعوض، لكنها فشلت في منع البق من التسلل إلينا. بحلول الليلة الثالثة في القاعدة، أجبرت تحت وطأة لسع الحشرات والحرارة الشديدة على نقل سريري إلى سطح المبنى المؤلف من ثلاثة طوابق الذي كنا نحتله، حيث كان مكشوفاً بما يكفي لإشعال بعض الوقود في علبة بيبسي كولا فارغة لإبعاد الحشرات وحماية أنفسنا من التسمم بلسعاتها. كنا نستيقظ أحياناً على أزيز الرصاص، الناجم عن هجمات متفرقة على الجنود الأمريكيين أو الاحتفالات المحلية. في بعض الأحيان كنا نراقب الآثار الحمراء لطلقات الرصاص الخطاط في ظلام الليل، مما ذكرنا بأننا في العراق الذي تمزقه الحرب. ولكن على الأغلب، حين نأخذ في الحسبان أننا في منطقة قتالية، فإن حياتنا بدت بخير.

في 29 أيار /مايو 2003، ولأسباب لم أتمكن من سبر غورها، تملكني شعور غريب طوال اليوم. كانت سماء الأصيل البرتقالية لاهبة، حارقة، وابتلعت المدينة عاصفة رملية قادمة من الصحراء الجنوبية. تلقيت للتو رزمة بريدية من والدتي، ولكن قبل أن أتمكن من فتحها جاء الرقيب وليامز لإبلاغي أننا مقبلون على مهمة.

قال لي: «ميخيا، يجب أن تستعد جماعتك، سوف تذهبون مع الضابط التنفيذي».

كان يقصد الملازم غرين، وهو رجلٌ قصير صموت، بدا أنه لا يفتح فمه إلا ليبصق التبغ.

سألت وليامز: «هل تعرف ماذا سنفعل؟».

«عليكم أن توفروا الحماية لجنود مدافع الهاون المتجهين إلى القصر

الشمالي. ومن الواضح أنهم يتعرضون لهجوم، ونفدت منهم القنابل المضيئة». ثم سار مبتعداً، وكأن ما قاله لا يستحق وقفة قصيرة.

سألته: «هل يتعرضون لهجوم؟».

مضى على وجودنا في الرمادي آنذاك نحو عشرة أيام، وفي معظم الوقت اكتفينا بمراقبة عمل وحدة فوج الفرسان، وهي وحدة مدرعة تستخدم في عملياتها عربات، ومدافع ثقيلة، وقذائف صاروخية، بينما كنّا من المشاة المسلحين بأسلحة خفيفة، ونعمل سيراً على الأقدام، ومن ثم لم تكن هناك طريقة تمكنهم من تدريبنا. اكتفينا بمراقبة ما يفعلون دون أن نكثر من الكلام. وعرفنا أنهم يعدون أنفسهم متفوقين علينا. لأنهم من الجنود العاملين (المحترفين)، بينما نحن مجرد حرس وطني. في حين أننا، من جانبٍ آخر، مشاة، والمشاة يعدون أنفسهم دائماً أشدّ صلابة من سواهم. على أي حال، كانت تلك المهمة الأولى التي كلفت بها جماعتي في الرمادي، ولأن المهمة اشتملت على «هجوم» فقد غدت بالغة الأهمية.

قال وليامز بعد أن توقف والتفت إليَّ: «نعم، سرية برافو. يجب أن تسألوا الضابط. في الحقيقة لا أملك الكثير من المعلومات. أبلغني الملازم سريكاس للتو بتجهيز جماعة لمرافقة جنود مدفعية الهاون، وعليكم مرافقتهم هذه الليلة».

أتى أمر المهمة من الملازم غرين الضابط التنفيذي في سرية تشارلي، الذي سيأتي معنا على ما يبدو. كانت طريقة وليامز المرتجلة واللامبالية لنقل الأمر نمطية ومعهودة منه. فلو كان موجهاً إليه لحرص على معرفة التفاصيل؛ وإلا سينأى بنفسه عنه ليتفادى اللوم في حالة حدوث خطأ

ما. ولم يكن من النوع الذي يحب أن يقترن اسمه بمهمات نُفذت بطريقة خاطئة. عاد إلى الحجرة التي يتشاطرها مع سريكاس، والاختصاصي شانكس المسؤول عن تشغيل جهاز اللاسلكي.

لا بد أن الساعة كانت نحو السادسة مساء عندما أبلغني وليامز بالمهمة. فتحت الرزمة لأجد في داخلها رسالة، ثم وضعتها خارج الغرفة المظلمة والحارّة في الطابق الثاني. وعندما نهضت لأرى الضابط، تساءلت: هل ستتاح لي الفرصة لقراءة تلك الرسالة. صعب علي التخلص من هذا الإحساس المنذر بالسوء.

تقسم جماعة المشاة إلى فريقين، ألفا وبرافو، يتألف كل منهما من أربعة جنود، ولكل منهما رئيس فريق. قبل الذهاب في المهمة، أجريت حديثاً سريعاً مع قائد فريق برافو الرقيب روزادو الذي لم يكن سعيداً بالمهمة المكلف بها.

«يا رجل، أكره هذا الوضع. فثمة عاصفة رملية، وسرية برافو تخوض القتال الآن. ما الذي سنفعله هناك؟ لن نتمكن من رؤية شيء بسبب هذا الرمل كله».

تصورت العواصف الرمليّة قبل ذهابنا إلى العراق موجاتٍ كاسحة من الرمال تهب من الصحراء، وتبتلع كل شيءٍ في طريقها. لكن هذه العاصفة مختلفة. فهي ضباب كثيف معلق في الهواء، بنّي اللون، خفض مدى الرؤية إلى متر واحد.

قلت مخاطباً روزادو، وقد أغمضت عينيّ تقريباً، محاولاً توقي سحب الرمل البطيئة: «أعرف يا رجل، ولكن علينا القيام بالمهمّة».

في هذه المرحلة المبكّرة من انتشارنا في العراق، كنت لا أزال متشبثاً بالقواعد، محاولاً أن أكون جندياً جيداً وقائد جماعة كفؤاً، وهذا يعني في الجيش الأميركي الامتناع عن الكلام وتنفيذ الأوامر دون اعتراض. قبل الوصول إلى العراق كاد تساؤلي عن «حكمة القيادة» أن يؤدي إلى فصلي من مركز قائد الجماعة، ولذلك فإن كل ما أردته الآن هو أداء الواجب والخروج من هناك.

لم توفر الألواح المعدنية في مؤخرة الشاحنة، التي صبغت بلون الرمل، أيّ حماية حقيقية، ولكنها مع ذلك منحتنا شعوراً بالأمان عند الاحتماء خلفها. جلست في مؤخرة الشاحنة، واستخدمت الباب الخلفي درعاً. وجه الجنود بنادقهم من الجانبين كليهما، وبلغ عدد أفراد فريقي ألفا وبرافو ثمانية جنود.

نظرت إلى فونيز، رامي القنابل اليدوية في فريق روزادو. كان هكتور فونيز، طويلاً وسيماً، يبدو دائماً وكأنه في حالة تأمل. انسجمنا معاً منذ أول لحظة توليت فيها قيادة الجماعة. كانت له شعبية بين الجنود الآخرين في السرية، وأطلق عليه بعضهم اسم «تشيتو». كنا الوحيدين اللذين ندخن في الجماعة.

«مرحباً تشيتو، هات قداحة».

نظر إليّ بعينين حادتين وشفتين مطبقتين، لعله الوحيد من أفراد الجماعة الذي كان باستطاعته أن يعرف دائماً عندما ينتابني شعور سيئ. رمى القداحة نحوي دون أن يقول كلمة، وعاد بسرعة لمراقبة قطاعه، حتى قبل أن نترك قاعدتنا، التي عرفت باسم «عش النسر».

تطلب الوصول إلى وجهتنا عشر دقائق، وهناك بدا كل شيء هادئاً. خرج الجنود المرابطون في المدخل بسرعة من وراء الحواجز الإسمنتية لإبعاد الأسلاك الشائكة الممتدة، التي كانت تشكل بوابة. دخلنا المجمّع وأوقفنا العربات خارج القصر الذي يبعد مئتي متر عن المدخل الرئيس.

نزل رماة مدافع الهاون من شاحنتهم، وبدؤوا بنصبها. فجأة، دوى انفجار رجّ أرضية القصر. تبعه صراخ وأزيز رصاص. لقد اندلع قتال عند المدخل الرئيس.

قال الرقيب غاليغوس، رئيس فريق ألفا: «رقيب ميخيا، نحن نتعرض لهجوم، هل تريد منا أن نخرج لاتخاذ مواقع؟».

قلت له: «لا، الجنود الأمريكيون يحيطون بنا ويغطون أطراف المكان. يكفي الاحتماء، برأيي».

بدا الجميع سعداء بقراري، الذي لم يعارضه الضابط التنفيذي. كان من السخف الاستلقاء على الأرض، والتحديق في سماء الرمادي الجميلة، بينما تتطاير طلقات بنادق إم 16 والكلاشينكوف فوق رؤوسنا، ولكن ليس باستطاعتنا أن نفعل أي شيء مفيد، وعلى أقل تقدير كنا في مأمن من النيران.

عندما توقف القتال، استأنف رماة مدافع الهاون عملهم بإطلاق القنابل المضيئة، وهي كريات صغيرة بيضاء اللون تقذف إلى السماء ثم تنفجر، فتنير سماء المنطقة. وبطبيعة الحال يمكن للعدو أن يستفيد منها أيضاً لتحديد مواقع الجنود الأمريكيين وقتلهم بالمقابل، ولكن في هذه الليلة انتهى القتال دون وقوع إصابات في كلا الجانبين. صدرت إلينا

الأوامر بالعودة إلى «عش النسر» مع جنود مدافع الهاون والملازم غرين.

في «عش النسر»، بدأت أفتح غلاف بسكويت الغرانولا الذي أرسلته لي أمي في الرزمة عندما استدعيت مرة أخرى. كانت الرسالة التي لم أقرأها بعد في يدي اليمني والبسكويت في اليسرى. حين ذهبت للقاء وليامز.

سألته بقدر ما استطعت من هدوء، وأنا أفكر بالجماعات الأخرى: «نحن مجدداً؟».

قال: «أجل، الدور على جنودك. وسوف يحين دور مانتيلا، وديمريست، وميليغان، للقيام بمهمة المرافقة والحراسة الأمنية». كان يقصد قادة الجماعات الثلاثة الأخرى في سريتنا.

بدا من الظلم، وقد عدنا للتو من المهمة القتالية، أن نؤمر بالخروج مرة أخرى بعد عشرين دقيقة.

أعدت الرسالة إلى صندوقها. قلت لنفسي: لم ينته الأمر. عليّ الذهاب إلى مركز القيادة، حيث يوجد القائد، والضابط التنفيذي، والرقيب الأول. الملازم غرين ينتظر هناك لتزويدي بالمعلومات المتعلقة بمهمتنا المقبلة. قبل أن أغادر، ألقيت نظرة على الممر، حيث تقاسمت الغرفة مع قائد فريق ألفا.

صرخت بأعلى صوتي: «غاليغوس، على الجنود أن يستعدوا، نحن ذاهبون مرة أخرى».

قال، بعد صمتٍ قصير، بنبرة مستسلمة: «حسناً، أيها الرقيب».

عدنا إلى المنطقة التي اندلع فيها القتال من قبل، على بعد نحو مئتي

متر من مدخل القصر الشمالي. وصلنا عند منتصف الليل تقريباً. زال الرمل من الهواء وصفا الجو ولألأت النجوم. ولكن الشعور الظاهري بالسلام عزز حذرنا وفاقم قلقنا، كان الليل الهادئ يحجب الأسرار عنا، عرفنا ذلك كلنا.

شعرت قيادة كتيبتنا، بحكمتها اللامتناهية، أن ثمة ضرورة لإقامة نقطة تفتيش للسيطرة على حركة المرور قرب ميدان المعركة، تحسباً من تجول «الأشرار» ـ أو عصابة علي بابا كما يسميهم العراقيون والأمريكيون على حد سواء ـ في المنطقة. كلفنا بتفتيش واحتجاز أي سيارة تتجول في المكان في ذلك الحين.

كان رامي المدفع الرشاش، الاختصاصي بيان إيم (أحد جنديين من هاييتي في الجماعة)، قد اتخذ مكانه عند الطرف الجنوبي مقابل نهر الفرات. ولدى سماعه وقع خطواتي التفت إليّ من مكمنه.

قال لي وهو ينزع عن وجهه نظارات الرؤية الليلية بيده اليمنى، كي لا يراني شبحاً أخضر اللون عبرها: «الآن أيها الرقيب، أتظن فعلاً أن هؤلاء يعتزمون البقاء في أنحاء المنطقة بعد كل ما حدث؟ لا أقصد أنني ذكي أريب أعرف كل شيء، ولكن هذا نوع من الغباء. أتظنني أتذاكى؟».

قلت بابتسامة مذعنة: «لا أظن أنك تتذاكى يا رجل، أحسب أنك على حق، ولكنها لم تكن مبادرتنا، آمل فقط ألا نبقى هنا مدة طويلة».

كان هذا أملاً عقيماً، فبعد نحو نصف ساعة من إقامة نقطة التفتيش، احتجزنا السيارة الوحيدة التي تتنقل من مكان إلى آخر تلك الليلة. كان الراكبان فيها تاجرين أردنيين في طريقهما إلى عمّان بعد أن باعا بعض

السلع في العراق، وبحوزتهما كيسان كبيران متخمان بالدنانير، واكتشفنا لاحقاً أن المال كله يساوي أقل من ألفي دولار. احتجزت الرجلين سابقاً وحدة فوج الفرسان الثالث المدرع (اسمها الرمزي «البنادق»/ Rifles/)، التي تتبع كتيبتنا قيادتها. وبعد أن أفرجت عنهما، اضطر الأردنيان لتأخير عودتهما إلى الأردن بسبب العاصفة الرملية. استوثقت سريتنا من صحة المعلومات من جنود «البنادق»، لكنها أصرت على عدم إطلاق سراحهما.

اتصلت بعامل اللاسلكي في سريتنا: «إلى كومبات إكس راي. هذا كومبات 2-1، حوّل».

«كومبات» رمز سريتنا. 2: الفصيلة الثانية. 1: الجماعة الأولى.

جاءني الجواب: «تابع يا 2-1».

قلت: «علم. أفرج جنود «البنادق» عن الرجلين. ما سبب التأخير؟ هل بإمكاننا السماح لهما بالذهاب؟ حوّل».

قال الرقيب شيزم، عامل اللاسلكي في مركز قيادة النقيب وارفل: «لا. يريد كومبات 7 التأكد من الكتيبة؛ كن على استعداد، حوّل».

يشير الاسم السري «كومبات 7» إلى الرقيب الأول في سريتنا، وهو رجل طويل أبله الملامح، في الأربعينيات من عمره، اسمه العائلي نوغل، لكن يحب معظم الجنود في وحدتنا أن يطلقوا عليه اسم «نوغيوليتر» على الأقل في السر. تعد وحدة «البنادق» التي أعطت الإذن بإطلاق سراح الأردنيين، أعلى سلطة من الكتيبة، لكن نوغل قرر أن بإمكانه إحراز بعض النقاط لصالحه بإظهار مزيد من التشدد.

قال روزادو، وهو يقترب مني، مطلاً من عربة الهمفي التي كانت متوقفة ضمن القطاع التابع له من محيط الموقع: «رقيب ميخيا، ماذا يجري؟».

«نحن ننتظر الحصول على إذن من الكتيبة لإطلاق سراح الرجلين».

جلس الرجلان المعنيان على الرصيف تحت الحراسة. كانا هادئين ومتعاونين ولم تعصب عيونهم، أو تُقيد أيديهم. واستخدما من حين إلى آخر الإشارات للسؤال عما يجري.

«ماذا؟ اعتقدت أنك قلت إن بإمكانهما الذهاب».

أجبت: «نعم، ولكن وحدة البنادق تنتظر الإذن الآن من الكتيبة أيضاً!».

قال روزادو غاضباً: «يا رجل، هذا سخف، مضى علينا هنا ثلاث ساعات، وهؤلاء لا يتوقفون عن الهذيان».

لم أعترض عموماً عندما يشتكي روزادو. كان دائماً محقاً عندما يتذمر. وهذا ما يفعله غالباً أمامي وأمام غاليغوس، لكن المشكلات تظهر عندما يشتكي أمام الآخرين. أومأت برأسي موافقاً.

عندما أبلغت بالسماح للأردنيين بالذهاب كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة تقريباً. لم أتخلص من الشعور بالانزعاج والقلق، فقد انقضى على وجودنا في المكان ذاته مدة طويلة جداً تكفي ليقوم العدو بالإعداد لكمين. قبل مغادرتنا مباشرة ذهبت إلى العربة الأمامية من موكبنا المؤلف من عربتي همفي، وتحدثت مع السائق، الاختصاصي ستريت، الذي لم يكن في الواقع من جماعتنا. كان هو والاختصاصي مادسن من جماعة الرماة،

ولكن الرقيب وليامز أرسلهما معي؛ لأننا نعاني نقصاً في الرجال. كان مادسن يمسك المدفع الرشاش الذي نُصب على سيارة الهمفي.

قلت: «ستريت، سبق أن تكلمت مع الرقيب غاليغوس». ركب فريق ألفا والرقيب غاليغوس أيضاً في عربة الهمفي الأمامية. أضفت: «لدي شعور بأننا على وشك الوقوع في كمين، فقد مضى علينا وقت طويل جداً هنا. إذا حدث شيءٌ، فلا تحاول التريث هنا، بل عُدْ إلى القاعدة، هل فهمت؟».

قال ستريت، بنبرة تدل على الغرور المتأصل في طبعه: «حسناً». يظن معظم الرجال أنه مدع يتظاهر بالذكاء، ولكني حاولت منعه من التأثير في عملي.

بدأنا العودة إلى عش النسر. جلست في المقعد الأمامي في عربة الهمفي الثانية مع روزادو، ولاحظت أنه يضع في حضنه مسدساً من عيار 9 ملم، ويبدو متوتراً. خشيت أن يطلق النار على رجله عرضاً، ولكني لم أقل شيئاً. كنت قد أوضحت للجماعة كلها إمكانية وقوعنا في كمين. تمثل الأسلوب المعياري الإجرائي عند الوقوع في كمين، بقدر ما أتذكر، في الرد على النار بالمثل ومواصلة التحرك. هذا بالضبط ما قلته لكل فرد في الجماعة الأولى.

لم تكن العربتان مصفحتين جيداً، فهما دون أبواب، والاتصالات بدورها مثلت مشكلة. لم يكن لدينا اتصال لاسلكي بينهما، لأن كل السماعات الصغيرة استخدمت من قبل الحرس في القاعدة، والأسوأ أن واحدة منهما فقط جهزت بلاسلكي لا يمكنه الاتصال إلا مع القاعدة، وارتكبت خطأً أساسياً، بوصفي قائد جماعة، حين ركبت في العربة

الأخرى، وهكذا حُرمت من أي وسيلة لإصدار أو تلقي الأوامر أو الاتصال مع القاعدة.

قطعنا نحو ميلين شرقاً على الطريق 10 التي تقسم شمال مدينة الرمادي عن جنوبها، وكنا على وشك الوصول إلى منعطف عندما سمعت صوت صفارة. عرفت على الفور ما تعني، فسرت رعدة في جسمي كله. ثمة مراقب يكمن عند المنعطف، ويعطي إشارة الهجوم لرفاقه.

عندئذ رأينا شيئاً بحجم علبة حذاء في منتصف الطريق موصولاً بسلك يمتد إلى منحدر صغير. استطعنا رؤيته بوضوح، حتى من كانوا في العربة الخلفية شاهدوه. والغريب أننا لذنا بالصمت، مع أننا عرفنا أن العلبة كانت عبوة ناسفة.

كانت عربتا الهمفي تسيران بسرعة تقارب خمسين ميلاً في الساعة، أي بأقصى سرعة لهما. حدث كل شيء في غضون أجزاء من الثانية، والعلبة الصغيرة تزحف نحونا فجأة، بحيث لم يعد هناك ما يمكن عمله سوى الانتظار. بدا هذا كله مثل مجموعة من الرموز المفتاحية لحل اللغز في مشهد غريب من أفلام الخيال العلمي، حيث يحاول كل واحد جاهداً فهم ما يحدث. بعد ذلك دوى الانفجار.

أول ما أتذكره هو اختفاء مادسن عن بصرنا عندما صدم الانفجار مقدمة عربته. حين أبطأنا خطرت لي فكرة: هل ماتوا كلهم؟ كان احتمالاً فظيعاً. مع ذلك لم أشعر بأي شيء. كنت أراقب المكان وكأن روحي زارته من قبل. رأيت مسبقاً ما سيحدث، ووصفته، وأوجزته لأفراد جماعتي، مع ذلك رفض عقلي قبوله. هذا ببساطة مستحيل.

كنت ما أزال في غشية، حين نظرت إلى الطريق، ورأيت شرراً يتطاير حولنا. تطلب الأمر لحظات لأدرك أن الشرر ناجم عن طلقات رصاص تصيب الإسمنت. تحسست السترة الواقية لأتذكر أنها لا تحمي من رصاص عيار 7.56 الذي تطلقه بنادق كلاشينكوف. بدت المباني المدمرة إلى جانب الطريق كهياكل شبحية مثالية لشن الهجمات من مكانها المشرف عليه. تمكنت من رؤية النوافذ المعتمة الخالية تضاء بوميض فوهات البنادق. تساءلت عن شعوري إذا ما اخترقت رصاصة يدي، أو صدري ونفذت إلى قلبي. يبدو أن مخزون الذخائر لدى مهاجمينا لا ينضب. قال غاليغوس فيما بعد مازحاً، وهو يصف ما حدث بأنه: «مطر من الرصاص انهمر على الجماعة».

أفقت من الغشية فجأة على أزيز الرصاص المنطلق من المدفع الرشاش المنصوب على عربة الهمفي، الذي يتولاه تشيتو. منحني الهدير المزمجر شعوراً بالأمان، وجعلني أدرك المكان والزمان. اللعنة، لقد حدث هذا الأمر اللعين فعلاً. كانت بندقيتي جاهزة طوال الوقت، لكن بعد أن سمعت المدفع الرشاش يطلق جحيماً من الرصاص من فوقي، بدأت أطلق النار باتجاه المهاجمين. لم أكن أسدد على أهداف محددة ما يبدو، ومع ذلك تابعت الضغط على الزناد.

عندما بدأت عربة الهمفي الأمامية تزيد السرعة أخيراً، ورأيت مادسن يعود للظهور من سقفها، ويبدأ بإطلاق الرصاص، شعرت بموجة من الارتياح.

قال روزادو، ومسدس التسعة مم لا يزال في حضنه: «أظن أنهم على ما يرام. ستريت يزيد السرعة، أظن أنهم بخير».

عدنا إلى عش النسر بعد خمس دقائق. استمر الهجوم نحو خُمس تلك المدة، ولكن عندما تبدو الدقيقة الواحدة كأنها الأخيرة في حياتك، فإنها تغدو أبدية. وبقيت تلك الدقيقة، إلى هذا اليوم، أطول دقيقة عشتها.

لدى العودة إلى القاعدة خرجنا جميعاً من عربتي الهمفي قفزاً.

صرخ مادسن: «يا أولاد العاهرة، لم يكن بمقدوركم أن تنالوا منا».

سأل روزادو، وهو ينظر إلي: «هل أصيب أحد بأذى؟».

أجبت، مع أني في الحقيقة لم أكن أعرف: «لا أظن أن أحداً أصيب». ثم صرخت: «هل أنتم جميعاً بخير؟».

صاح غاليغوس: «الأغبياء لم يصيبوا العربة».

قال فونيز بصوت خفيض: «نعم، أظن أن الجميع بخير».

قال إستيم، الجندي الآخر من هاييتي، إلى بيان إيم: «هل تصدق ما حدث؟».

أجابه: «كان ذلك حقيقياً يا رجل».

قال الرقيب غاليغوس: «فريق ألفا بخير».

أجبت، وأنا أنظر إلى روزادو منتظراً رأيه، مع أني عرفت آنذاك أن الجميع بخير: «أجل بخير».

قال: «نعم فريق برافو بخير».

قال غاليغوس، وكان لا يزال بالقرب من عربة الهمفي المزودة

باللاسلكي: «رقيب ميخيا، يريد النقيب وارفل أن نذهب إلى مركز القيادة لاطلاعه على ما جرى للتو».

صعدنا، أنا وغاليغوس وروزادو، الدرج ببطء إلى الطابق الثاني. الدرج المعتم آيل للسقوط وليس له حاجز، في حين نتأت قضبان حديدية صدئة من الإسمنت المهشم. يقع مقر القيادة في البناء الرئيس من المجمع الذي يؤوي معظم أفراد سرية تشارلي. واحتل القائد وقيادة الفصيلة الطابق الثاني. وعلى الطرف الآخر من غرفة القائد توجد غرفة أخرى تحتوي على الأسلحة التي صودرت في أثناء الغارات. في إحدى المراحل، شملت هذه الأسلحة بندقية كلاشينكوف مطلية بالكروم، ولكن شاع أن قائد كتيبتنا، أو ضابط آخر رفيع الرتبة، أغرم بها، وبعد يوم أو يومين من مصادرتها اختفى أثرها.

كان القائد يجلس في الممر خارج غرفته، حيث يراقب عامل اللاسلكي الاتصالات اللاسلكية للسرية والكتيبة. كنا في مرحلة مبكرة من الاحتلال، ولم يأت المتعهدون لتركيب المولدات ومكيفات الهواء بعد، ولذلك أمضى الجنود معظم وقتهم خارج الغرف المغلقة، حيث جعل الهواء المحمّل بالرمل الحياة جحيمية، بالرغم من الرصاص الذي يصيب الأرض بالقرب من البناء بين الحين والآخر. جلس مع النقيب، الرقيب الأول والضابط التنفيذي.

قال نوغل: «وصل الرقيب ميخيا يا سيدي».

سألني النقيب وارفل، وهو ينظر إليّ وكأن كلاً منا يشعر بالامتنان والاندهاش من النجاة من الكمين، دون أن نصاب بخدش: «ماذا حدث يا رقيب ميخيا؟».

شرحت لهم ما حدث كله، وأردت القول: إن الكمين كان مرتقباً، وبالإمكان تجنبه بسهولة لو لم نظل في المكان نفسه ثلاث ساعات. ولكنني قررت أن أحتفظ بآرائي لنفسي، وأن أقصر الحديث على ما حدث فعلياً. اعتقدت أن الأمر لن يتعدى إيجازاً سريعاً ينتهي ربما بطلب لتقديم تقرير خطي.

سأل النقيب بصوت خفيض وهو يحدق في بعينيه الزرقاوين: «إذاً، لماذا لم تتريث جماعتك أيها الرقيب؟».

أجبته عابساً وأنا أنظر إلى قائدي الفريقين في جماعتي: «عفواً يا سيدي؟».

كرر النقيب السؤال: «لماذا لم تقاتل جماعتك؟».

أجبت، وقد استشعرت وجود خطأ ما في وجهة الأسئلة: «شعرت مسبقاً بأننا على وشك الوقوع في كمين، ولذلك شرحت الأمر للجماعة، طالباً الرد على النار بالمثل، والعودة إلى القاعدة».

قال نوغل، الذي رفع رأسه الآن: «نعم، نعلم أنك وجهت النداء أيها الرقيب ميخيا». نظر إليّ عبر نظارة سميكة حصل عليها من الجيش (عرف هذا النوع من النظارات باسم «نظارات منع الحمل». وكما يُقال، ما من امرأة تقبل النوم مع رجل يضعها). ولأن نوغل متزوج وضابط صف قيادي يعمل في منطقة قتالية، لم يهتم كثيراً بالأمر ووضع النظارة متباهياً.

أخذ روزادو نفساً عميقاً وهو يصغي إلى استجواب قيادتنا عن أول كمين نُفّذ بنجاح ضد سريتنا، بينما بدا وجه غاليغوس جامداً، دون تعبير.

تابع الرقيب الأول: «ما نريد معرفته هو لماذا أصدرت الأمر بالانسحاب بدلاً من القتال».

نظرت إليه غير مصدّق. تُرى هل يمزح؟ بدا السؤال خارج حدود المنطق والعقل. ضغطت شفته السفلى على العليا، وانتظر جوابي، عابساً متسائلاً. تساءلت وهلة: هل يحاول تقليد «بيلي أيدول». بدا كذلك، إضافة إلى البلاهة والبشاعة.

قلت أخيراً: «خطر لي أن أسلوب العمل المعياري الإجرائي في حالة الوقوع في كمين هو الرد على النار، والاستمرار في التحرك». زاد خفقان قلبي واحمر وجهي.

قال القائد: «أرسلت الرسالة الخطأ إلى العدو».

سألت بنوع من الدهشة، وعرفت جوابه تقريباً: «عفواً سيدي؟».

تابع، كأنه يقاطعني: «أعني.. يجب ألا تفهم كلامي خطأ، أيها الرقيب. سررنا بنجاة رجالك دون أن يلحق الأذى بهم، ولكن نظن أنه كان بوسعك الخروج من منطقة الخطر، والرد على النار، واستدعاء قوة الرد السريع».

قوة الرد السريع، تعبير عسكري خيالي يعني الدعم أو التعزيزات. في العادة تمثل إحدى الفصائل الثلاثة في سريتنا قوة الرد السريع، بينما تؤدي الفصيلتان الأخريان مهمات مختلفة. استخدمت قوة الرد السريع من حين لآخر، وتطلبت ما بين عشرين وثلاثين دقيقة للرد على الهجمات الفعلية، التي ظلت حتى ذلك الحين ثانوية. أما الحقيقة التي لا مفر منها فهي أن قوة الرد السريع كانت سيئة وبطيئة.

قلت مدافعاً عن نفسي، ومعتقداً أنني وقعت في الفخ مثل شخوص روايات كافكا، أو في حالة من الغموض وعدم اليقين: «لم نكن نعلم ماذا خبؤوا لنا. ربما أعدوا لنا سيارة مفخخة، أو قذائف صاروخية. تمتعوا بميزة علينا، لأنهم كمنوا في مواقع مرتفعة. استعدوا مسبقاً، وتفوقوا عدداً. لقد كان كميناً متقن الإعداد».

سألني النقيب وارفل: «كيف عرفت أنهم متفوقون عددياً؟».

نظرت إلى غاليغوس وروزادو، منتظراً المساندة، فأنا لم أعرف أنهم متفوقون علينا عددياً، لكنني شعرت بذلك حتماً. قلت: «أطلقوا النار علينا من اثنين أو ثلاثة من المباني الواقعة على جانبي الطريق كليهما».

قال روزادو: «لا، لا بد أنها خمسة، ولم يتوقفوا عن إطلاق النار».

تابع نوغل: «نعم، ولكن كم عددهم؟»

قلت: «من الصعب أن أعرف، أيها الرقيب الأول، فقد كان الظلام مخيماً، وكانوا يطلقون النار من جانبي الطريق، وكنا نتحرك بسرعة».

قال الرقيب الأول بإلحاح: «نحن بحاجة إلى إرسال تقرير إلى الكتيبة، وتحديد العدد».

قال روزادو: «أعتقد أنه تراوح بين خمسة عشر وعشرين».

بدا أن العدد غير واقعي، لكن بدا أيضاً كأننا نعتذر عن النجاة. الأسلوب المعياري الإجرائي المتبع عند الوقوع في كمين هو الرد على النار، ومتابعة التحرك، وهذا بالضبط ما فعلناه. أما البقاء لمقاتلة عدو شبحي نجهل قدرته، ولكنه يتمتع بميزة جليّة علينا، بينما نأمل بوصول قوة الرد

السريع - البطيئة! - فسيكون انتحاراً. ومع ذلك، بدا أن القيام بالعمل الصحيح من شأنه أن يورطني في مشكلة مع قيادتي.

قلت أخيراً: «أعتقد أن العدد قرابة خمسة عشر».

سأل نوغل: «هل هذا هو الرقم النهائي؟».

قال روزادو: «رقيب ميخيا، كان العدد أكبر».

قال غاليغوس، وهو ينظر إلي: «لا أعرف كم كان العدد». ثم التفت إلى النقيب: «كل ما أعرفه أنهم استمروا في إطلاق النار مدة من الزمن».

قال النقيب وارفل، وهو يسير ببطء عائداً إلى المبنى، ويضع حداً للإيجاز: «رقيب ميخيا، أظن أن المشكلة هنا تكمن فقط في حقيقة أنك أرسلت رسالة خاطئة إلى العدو».

قلت بصيغة السؤال: «أنا آسف يا سيدي؟».

تابع قائلاً: «كان بمقدورك الانسحاب من منطقة الخطر، وتحديد مواقع المهاجمين، ثم استخدام جماعتك لتطويقهم، في انتظار قوة الرد السريع لتأتي وتقتلهم».

أضاف الرقيب أول نوغل: «حين انسحبتم أظهرتهم لهم أننا خائفون. وهذا انتصار لهم».

تبادلنا، أنا وغاليغوس وروزادو، النظرات، دون أن ننطق بكلمة. قبل دقائق، احتفلنا بنجاتنا من الكمين دون أن نصاب بخدش. أما الآن، فنحن نتعامل مع قيادة تطلب منا أن نعرض أنفسنا دون داع لخطر داهم من أجل

«إرسال الرسالة الصحيحة». عرفوا أننا تصرفنا وفقاً للقواعد المتبعة، مثلما عرفنا أننا عرضنا حياتنا لخطر جسيم بينما جلسوا هم في أمان القاعدة. غادرت موقع القيادة مع قائدي الفريقين، وأنا أسأل نفسي: من هو العدو الحقيقي في العراق، وإلى أي حد كنا غافلين عنه وقريبين منه؟

ضمت الرزمة التي أرسلتها والدتي شرائح البطاطا والبسكويت والفواكه المجففة وعدداً من زجاجات الماء. بعد أن تناولت بعضاً من شرائح البطاطا ونحن نجلس على الدرجات القذرة المؤدية إلى السطح، ذهبت إلى غرفتي وبحثت في كيسي عن المصباح الكهربائي لقراءة الرسالة.

توسلت إلي أمي بالله أن أعود إلى الوطن بأسرع ما يمكن، وذكرت مقدار حاجة سامانثا إليّ. قالت: «لا تحاول أن تكون بطلاً. لا تتطوع وتتهور. لا تعرض نفسك للخطر دون ضرورة، لا تخرج أبداً دون سترتك الواقية من الرصاص، حتى لو كانت ثقيلة». في الواقع، لم يكن في اليد حيلة، إذ لم تكن السترة تقي من الرصاص آنذاك. كان من الممتع والمحزن معاً أن أتلقى هذه الرسائل من أمي. فمن ناحية، أعرف أخبار سامانثا والعائلة؛ ومن ناحية أخرى، أتذكر عالماً لم أعد أشعر بالانتماء إليه. بدت حياتي خارج منطقة الحرب بعيدة عني مليون سنة، ولم تكن احتمالات العودة إلى الوطن واعدة كثيراً.

ثمة اجتماع عقد في مكان ما، في مكتب فخم مريح، ناقشت فيه مجموعة منفصلة عن العالم الواقعي خطة عظيمة. تطلبت الخطة إزهاق أرواح عديدة من أجل بلوغ الأهداف، ونال الثمن الفادح القبول والموافقة. كانت حياتي وحياة جنودي جزءاً من تلك الخسارة المقبولة، ولم يكن بيدنا شيء نفعله. لقد وقعنا العقد، ولم نعد نتحكم بمصائرنا.

رسالة والدتي جعلتني أشعر أنني مذنب بسبب مشاركتي في حرب عبثية، لا تستحق ما تحدثه من قتل وتدمير. أحسست بالضعف، لأنني لم أملك القوة لضمان بقائي حياً من أجل ابنتي، ومن أجل الذين أحبهم والذين يحتاجون إلي. ولكن ما أقلقني ليس احتمال التعرض للقتل فقط، بل إمكانية أن أُقتل هنا، في العراق. ثمة فكرة تكررت في ذهني: «ليس لنا الحق في الوجود هنا». ولكن عرفت ضرورة منع نفسي عن التفكير بهذه الطريقة، فأنا قائد جماعة مشاة ورجالي بحاجة إلي.

بسط الرقيبان فونيز وهودجز فراشهما في منتصف السطح، مثلما فعلت أنا. في وقت لاحق من التمركز هناك، سينضم هودجز إلى جماعتي ومعه مساعده رامي الرشاش، الاختصاصي أيبو. كان الاثنان في جماعة الرماة ومسؤولان عن أحد المدافع الرشاشة (م240-) في فريق برافو. طلبت من فونيز قداحة، فنظر إلي بانزعاج، تذكرت أنه سألني مرات عديدة متى سيكون معي قداحة. على أقل تقدير، توقفت عن طلب السجائر منه. تمكن من الوصول إلى كثير من المواد والسلع المنهوبة من مطار بغداد الدولي: أطنان من صناديق السجائر وزجاجات الشراب من مختلف الأنواع. تمتع فونيز بصلات قوية في سرية تشارلي. أحب الجنود كلهم فونيز وهودجز. كان هودجز قصيراً عادي الملامح، احتفظ ببقايا كرش ضخم. لكنه ذكي أريب اشتهر بروح الدعابة والنقد اللاذع.

منذ أن تسلمت الرزمة البريدية، انتابني شعور بأن شيئاً ما سيحصل ويمنعني من فتحها. أما الآن وقد فتحت الرزمة وقرأت رسالة والدتي، فكرت أنني، على الرغم من الأحداث الخطرة التي جرت اليوم، تمكنت على الأقل من تجاوزه. نجوت بجلدي من كمين بعد ثلاث ساعات من

المعاناة والبقاء في مكان مكشوف كالأبله. تمددت على الفراش بعد أن مرّ اليوم بسلام.

ما زلت إلى اليوم أسمع دوي القذيفة الصاروخية التي سقطت فوق قاعدتنا. قيل لنا مراراً: إن القذائف الصاروخية لا تُحدِث ضجة إلى أن تصيب الهدف، لتنفجر وتنشر شظاياها الفتاكة. ولكني ما زلت أسمع هدير القذائف الصاروخية يدوي في رأسي بعد مرور نصف ساعة على ذهابنا للنوم.

«انهضوا، انهضوا!»

لا أتذكر متى انتعلت فردة الحذاء الأولى، كل ما أتذكره أنني رأيت قدمي داخلها وأنا ألبس الأخرى. أدرك الآن فائدة تمارين التدرب الأساسي، عندما يأمر الرقباء المدربون المجندين المتدربين في منتصف الليل بالنزول إلى الباحة: فيقفز مثنان منهم، ويتدافعون مسرعين لتنفيذ الأمر. ولكن التدريب الأساسي أصبح من الماضي الغابر، انقضى قبل مليون ونصف مليون سنة؛ أما ما نشهده اليوم فهو حقيقي. كان السقف يهتز بعنف.

«قذيفة صاروخية، قذيفة صاروخية، انزلوا جميعاً عن السطح».

صرختُ بأعلى صوتي، ملتفتاً إلى الوراء: «فونيز! هودجز! هيا بنا». أيبو أول من تحرك. لم يخلع حذاءَه، بل لم ينزع واقية ركبتيه، كان رفاقه يسخرون منه بسبب ذلك، ولكنه نفعه الآن.

تبعني هودجز وفونيز. كان يجب علينا أن ننام ومعداتنا بالقرب منا؛ هذا هو الإجراء المعياري المتّبع. وبصفتي قائد جماعة، يفترض أن أطبّقه،

ولكني لم أفعل، فاضطررنا للركض إلى غرفنا في الطابق الثاني لأخذ معداتنا ومن ضمنها الأسلحة. شعرت وأنا أركض أن رأسي يعدو بسرعة لا تُصدّق. فمن ناحية، حاولت ألا أترك أحداً خلفي، ومن ناحية ثانية، أردت الوصول إلى سلاحي. ومن ثالثة، حاولت أن أفكر إلى أين أذهب، لتلقي مزيد من التعليمات. ربما كان عقلي في حالة من الاهتياج المسعور، فمنعني من الشعور بالخوف، لكن جسدي لم يكن كذلك. نظرت إلى أسفل فرأيت بقعة رطبة مستديرة على سراويلي. «اللعنة. بلت على نفسي من الهلع». رجفت ركبتاي، وتعذر التحكم بحركتهما. اللعنة، أنا مذعور، ولكني ما زلت تحت القصف.

أصابت قذيفة صاروخية ثانية عش النسر، ثم ثالثة، فارتجت أساسات المبنى. بدا كأن المتمردين قرروا اجتياح موقعنا، فخطرت لي فكرة رهيبة: نحن على وشك التعرض لهجوم شامل، على الطريقة الفيتنامية.

أخيراً حملت معداتي ونزلت إلى الطابق الأول، حيث كان وليامز ينتظر ويطلب من قادة الجماعات أن يأتوا إليه لإبلاغه بالإصابات.

سألني: «هل رجالك بخير؟».

نظرت إلى روزادو فوجدت رجاله معه؛ ثم نظرت إلى غاليغوس.

صرخت وأنا أثبت خوذتي الواقية: «غاليغوس، أين إستيم بحق الجحيم؟».

قال إستيم من ورائي، وهو يرسم ابتسامة نصف ذكية ونصف خائفة: «أنا هنا أيها الرقيب. نحن بخير».

نظر وليامز إلى ميليغان، قائد الجماعة الثانية. تمتع ميليغان، الرقيب القصير القوي البنية (الفلبيني الأصل)، بالقدرة على الاحتفاظ بهدوئه حتى تحت أصعب الظروف. نظر وراءه بتمهل، بحثاً عن قائدي الفريقين في جماعته، ماشياس الإكوادوري، ومور الأمريكي الإفريقي. كان مور قائد فصيلة في مشاة البحرية (المارينز)، ولكن خطأ ارتكبه في عمله المكتبي في الحرس الوطني حال دون تثبيته في الجيش برتبة ضابط، ولذلك عينوه رقيباً. وفي أثناء التدريب، وفي انتظار الموافقة على منحه الرتبة، أسندوا إليه وظيفة ملازم. وبوصفه قائد فصيلتي، رشحني لمنصب قائد جماعة مشاة قبل إرسالنا إلى الشرق الأوسط. ومن دواعي السخرية أن الجيش لم يسمح له بقيادة فصيلة وهو برتبة رقيب، فأرسله إلى الشرق الأوسط في آخر لحظة برتبة رقيب عادي، وشغل لبعض الوقت قائد فريق تحت إمرتي.

سأل ميليغان بهدوء: «هل أنتما بخير؟».

أومأ الاثنان بالإيجاب.

الآن، بدأ وليامز البحث عن الرقيب خوان كاميلو مانتيلا (الكولومبي الأصل)، المظلي السابق في الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً، والقناص الماهر، وقائد الجماعة الثالثة. سأل وليامز: «مانتيلا، أين أنت؟». الرقيب مانتيلا يجسد النموذج النمطي للجندي الأمريكي، بجسمه القوي، وحركته الرشيقة، وطلعته البهية، وكفاءته ومهارته، فضلاً على طاعة الأوامر دون اعتراض.

«أنا هنا، رجالي كلهم بخير».

قال الرقيب ديمريست، الذي كان أول من جاء إلى وليامز: «رقيب وليامز، أين سريكاس بحق الجحيم؟».

«يتلقى العلاج، يبدو أنه سقط في أثناء نزوله على الدرج».

سأل ديمريست والابتسامة المتباهية لا تفارقه: «هل سيكون على ما يرام؟».

قال وليامز، وهو يحدق لكن دون تركيز: «لا أظن أننا سنراه مرة أخرى». منذ ذلك اليوم سوف تتبدل الأمور جذرياً في الفصيلة الثانية، إذ أصبح الرقيب الأول فيرنون وليامز قائد فصيلتنا المعين ميدانياً.

في وقت لاحق ذلك اليوم، بدأ أطباء السرية يروجون لشائعة مفادها أن سريكاس قفز وتعمد السقوط على كاحله فانكسر. وتوافقت فعلته المزعومة مع سلوكه السابق عند انتشار السرية الثانية. فذات يوم، وفي أثناء تدريب على صد هجوم بصواريخ سكود، حسب سريكاس أن الهجوم حقيقي، ففقد السيطرة على نفسه وركض يأساً باحثاً عن مخبأ، وترك الفصيلة بكاملها خلفه، دون أن يقول: «حظاً سعيداً»، فضلاً على تولي القيادة وإصدار الأوامر.

في مهمة أخرى، وعقب إطلاق النار عليه من عناصر معادية في أثناء قيامه بدورية ليلية راجلة، أصيب بالهلع وأنهى الدوريات في تلك الليلة، وهو قرار لم يشتكِ منه أحدٌ. لكن بعد رحيله، لم يذكره أحد، باستثناء السخرية من الهلع الذي كان يصيبه.

بعد نحو ثلاثين دقيقة من الهجوم الصاروخي بقذائف آر بي جي، صدر أمر للقيام بعملية بحث وتفتيش خارج منطقة القاعدة. وسرعان

ما انتشرت الفصيلة الثانية على شكل إسفين عبر ميدان مكشوف إلى الشرق من القاعدة، يشمل شبكة قديمة من المخازن التي تعرضت للقصف الجوي، ثم الدوران شمالاً نحو ملعب لكرة القدم، حيث كان الصبية العراقيون يلعبون، ثم الالتفاف حول الجانب الغربي لقاعدتنا عبر حي تسكنه الطبقة الوسطى. بحثنا وقمنا بأعمال الدورية مدة تقارب الساعتين، لنشاهد الشمس وهي تشرق من خلف أسطح البلدة الصغيرة الرابضة بين عش النسر والصحراء المجاورة.

بعد انتهاء عملية البحث، التي ثبت أنها عقيمة ودون جدوى، تراجعت الفصيلة ثانية إلى الوراء عبر البوابة. كنا جميعاً نشعر بالإجهاد، جسدياً وعاطفياً. سوف تغدو هذه الحالة المحبطة، جراء تعرضنا للهجوم من مقاومة لا يمكن أبداً تحديد موقعها، هي المعيار السائد. فالعدو الذي واجهناه ليس له وجه، ولا وحدات قتالية، ولا زي موحد ـ ولذلك تعذر علينا رؤيته، ولكن عرفنا أنه موجود في كل مكان، في المنازل وخلف أشجار النخيل، يراقبنا عبر الضباب والرمل والنوافذ المعتمة. في الأزقة والشوارع وفي الأسواق والمساجد. إنهم أبناء العراق وبناته يقاتلون للذود عن حياض وطنهم.

بعد مرافقة وحدة مدافع الهاون وحراستها وسط عاصفة رملية إلى القصر المحاصر، وإقامة نقطة تفتيش لا جدوى منها، بأوامر من قيادة تفتقد الكفاءة، والنجاة من كمين (وتوبيخنا على النجاة!)، والتعرض لهجوم بالقذائف الصاروخية، والقيام ببحث دقيق عبر الظلال في الصباح الباكر في مدينة الرمادي، رغبنا في الحصول على وقت للاسترخاء والنوم. لم يحالفنا حظ كهذا! إذ كانت الفصيلة الثانية مكلفة بأعمال الدورية ذلك اليوم.

ولكن قبل مغادرتنا لأداء سلسلة المهمات اللاحقة عبر شوارع المدينة وأزقتها، طلب الرقيب وليامز أن يتحدث معي دقيقة. تركز الموضوع على الكمين الذي تعرضنا له والحديث الذي أجراه، بصفته قائد فصيلة رُقّي حديثاً، مع النقيب وارفل. يبدو أن النقيب منزعج من حقيقة أن الجماعة احتفلت بالبقاء على قيد الحياة لدى وصولها إلى القاعدة. كان وارفل، والضابط التنفيذي، والرقيب الأول يجلسون في الممر فوق المكان الذي أوقفنا فيه عربات الهمفي. لم نكتفِ بإرسال الرسالة الخطأ إلى العدو عبر انسحابنا من موقع الكمين، بل احتفلنا علناً بنجاتنا فور وصولنا إلى القاعدة، وبذلك وجهنا الرسالة الخطأ إلى الصديق أيضاً، إلى الجنود الآخرين في وحدتنا. أصغيت، جامداً صامتاً، عندما قال وليامز: إنه يتفق في الرأي مع النقيب.



خامساً

كان النهار صافياً، وحاراً، ومشرقاً عندما انطلقنا للقيام بأعمال الدوريات. توجهنا أولاً، بعد تناول طعام الفطور، إلى المكان الذي تعرضت فيه الجماعة الأولى لكمين قبل ساعات. علينا إجراء تفتيش دقيق لمنطقة الكمين للعثور على أي مؤشرات قد تساعدنا في فهم كيفية تنفيذ العدو لهجومه، ثم العودة إلى دورياتنا المعتادة. ولأن الإرهاق أنهكنا جراء أحداث الليلة السابقة، لم نشعر بالإثارة لهذا الاحتمال. مع ذلك، انطلقنا من عش النسر في شاحنتين اثنتين.

ارتفعت الشمس في كبد السماء، والتهب السطح المعدني للشاحنة من شدة الحرارة. مررنا بالشاحنتين في الشوارع قرب المساجد، والمدارس، والسوق، حيث الذبائح معلقة والدم لا يزال يقطر من أعناقها. مركز المدينة يعج بالحياة، والأطفال يجوبون الشوارع، ويبيعون كل شيء، من الفستق وزجاجات الصودا، إلى الحراب الروسية القديمة. تغطت غالبية النساء بملابس سوداء، بينما اكتفت الفتيات بالنقاب. وارتدى معظم الرجال الملابس العربية التقليدية، ولكن بعضهم انتعلوا صنادل، ولبسوا سراويل

وقمصاناً بأكمام طويلة، فبدا مظهرهم أنيقاً ومتطوراً ومتغرباً. شاهدنا بعضهم يمسكون بأيدي زملائهم في أثناء تجوالهم في الشوارع، وتساءلنا: هل هي مجرد عادة ودودة مألوفة، أم أنها دلالة على صلة عاطفية؟

سحرني مدى اختلاف الحياة العراقية عن حياتنا، ورغبت في معرفة المزيد عنها. الاختلافات الثقافية كثيرة، بدءاً من اللغة والدين، الذي يبدو أنه مسيطر على أسلوب الحياة، ولكن هناك اختلافاً آخر يتمثل في علاقة الفرد بالآخر، عبر خطوط القبائل والعشائر، وشعائر الإسلام المختلفة التي يمارسونها. بدا أن ثمة وحدة تجمع العراقيين على الرغم من الاختلافات التي تفرقهم. وتساءلت: هل يزيد وجودنا في العراق من وحدتهم؟ وفي هذه الحالة، لم أشعر بسعادة كبيرة من إسهامنا في وحدتهم، التي تستمد معظم طاقتها على ما يبدو من مقاومتهم لاحتلالنا.

فتنت بثقافة شعب العراق، وعلى الرغم من كرهي للتعرض لإطلاق النار، إلا أنني لا أستطيع القول: إن اللوم يقع على العراقيين. والأغرب أنني لم أستطع القول، وسط كل العنف والمقاومة، أنني شعرت فعلاً بكره من جانب شعب العراق. ولذلك أسفت لحقيقة كوني جندياً أمريكياً، مما منعني من اختبار الثقافة بأي طريقة ذات أهمية. أما التفاعلات المحدودة بيني وبين السكان المحليين، فقد عززت اعتقادي بأن احتلالنا لبلدهم كان خاطئاً. وفي العديد من المناقشات التي أجريتها، أخبرني الشيعة والسنة علناً أن العراقيين قادرون تماماً على حكم بلادهم، دون مساعدة من الجيوش الأجنبية. وحتى أولئك الذين ابتهجوا أول الأمر برؤية القوات الأمريكية والذين كرهوا صدام حسين، صاروا الآن يقولون: إن الوقت قد حان لمغادرة الأمريكيين العراق.

كان القصف الذي نفذته قوات التحالف عنيفاً، وشاهدنا مدى عنفه في المكان الذي تعرضنا فيه لكمين قبل بضع ساعات. صعدنا المباني التي أطلق منها الرصاص علينا، بعضها بارتفاع طابقين أو ثلاثة، وجميعها مجرد أطلال لبنايات سكنية. خطط المتمردون لعمليتهم بطريقة محكمة، واتخذوا مواقع مرتفعة على جانبي الطريق، بحيث يستطيعون إطلاق النار علينا من الجانبين، دون أن يصيبوا بعضهم بعضاً. لم يكن موقع الهجوم مأهولاً، وخيم عليه ظلام الليل الدامس، ليوفر التخفي والحماية لسكان البلدة النائمة. أعدوا الكمين بإتقان، ولم يخفقوا إلا في وضع عائق كبير في وسط الطريق لإبطاء حركتنا قبل الانفجار. أحمد الله على ارتكابهم ذلك الخطأ. عثرنا على مزيد من الأسلاك وكبسولات التفجير، مما جعلنا نعتقد أنهم قد أعدوا مزيداً من المتفجرات الموصولة بالأسلاك.

أحدثت العبوة الناسفة التي فجروها حفرة صغيرة في الطريق، ولكن سرعان ما عثرنا على حفر مشابهة بالقرب من الأولى، وهذا دليل على وقوع هجمات أخرى في منطقة تناسب تماماً تكتيك «اضربْ واهربْ».

وفرت البيوت والأزقة الواقعة خلف المباني التي أطلقوا منها النار علينا سبلاً ومنافذ لهرب المهاجمين بسرعة. وكل ما كان عليهم فعله هو الركض عبر المنازل إلى سياراتهم، التي ربما كانت متوقفة على طريق موازٍ، بعيداً عن الرؤية وخارج مدى أسلحتنا. أو ربما اختبؤوا في منازل قريبة، بموافقة السكان أو دونها. يمتد هذا الصف من المنازل جنوب الطريق مباشرة مسافة ميل تقريباً قبل الوصول إلى أقرب قاعدة صديقة. كلما زاد تفكيري بالهجوم، عظمت المفاجأة بنجاتنا وسعادتي لاختيار الانسحاب من المنطقة بدلاً من انتظار قوة الرد السريع.

اختتمت أعمال الدورية حول منطقة الهجوم بغارة على مبنى قريب مؤلف من سبعة طوابق، هو الأعلى في ذلك الجزء من البلدة. كانت المكاتب كلها قد دمرت بعنف، بسبب القصف الأمريكي، ولأن مسؤولي الحكومة العراقية الذين عملوا فيها حرصوا على عدم ترك وثائق رسمية خلفهم. ولا بد أنها تعرضت أيضاً لعمليات سلب ونهب.

بعد أن اقتحمنا الأبواب وأطلقنا النار على الأقفال، فتشنا كل طابق، ووضعنا حراسة أمنية صغيرة أمام المداخل الأمامية والخلفية، ثم توجهنا إلى السطح، حيث لاحت منطقة مركز مدينة الرمادي بأسرها. ثمة مجموعة كبيرة من البيوت المنخفضة المبنية من القرميد الأصفر تشرف عليها مساجد، لها مآذن عالية بلون الرمل، تدعو المسلمين إلى الصلاة خمس مرات كل يوم. أما الأراضي الزراعية الخصبة على ضفة النهر فتمتد نحو الشمال. في حين تنتشر الصحراء الواسعة من الجنوب، حيث يمكن رؤية مجموعات صغيرة من النقاط المتحركة بين الحين والآخر، لعلها رعاة يبحثون في الرمال القاحلة عن بقع صغيرة من الكلأ لإطعام مواشيهم.

عندما نظرت إلى هذا المشهد الطبيعي الرائع، فكرت في التغاير الصارخ بين جمال البلد وبشاعة العنف المتفجر الذي نواجهه يومياً. أحزنني ذلك كثيراً. ولم تكن تلك المرة الأولى التي أشعر فيها برابطة عميقة مع الشعب العراقي. رأيت من قبل الألم والمعاناة في عيون العراقيين. لم أشعر بالارتياح، وأردت مساعدتهم في إعادة بناء أمتهم العريقة المتهالكة، والأطلال المهدمة الباقية من أرضهم المقدسة. تمنيت لو نتمكن من إعادة السلام إلى هؤلاء الناس، ليس بصفتنا جنوداً أجانب، بل بشر وأخوة، ومواطنون دون حدود فاصلة بيننا.

سرعان ما انحسرت الغشية بإدراك أنني قد أتعرض للهجوم في أي لحظة. واضطراري للبقاء متيقظاً جعلني أفقد أي إحساس بإنسانيتي. فكيف أتعاطف مع العراقيين وأنا أحمل بندقية وقنابل معلقة على حزامي؟ أردت أن أكون أخاً لهم، لكن لم أستطع. فأنا جندي احتلال.

في الساعة الحادية عشرة تقريباً غادرنا المبنى المؤلف من سبعة طوابق قرب موقع الكمين، ووجدت نفسي أقود الجماعة على الطريق الرئيسة في الرمادي. شعرت أن في ذلك نوعاً من السوريالية، ففي لحظة سحرني جمال المشهد، وبعد دقائق واجهت خطراً فتاكاً. كنا نرتدي السترة السميكة التي لا تقي من الرصاص ونعتمر الخوذ. ونحمل ما لا يقل عن 210 رصاصات لكل جندي، إضافة إلى متاعنا وأسلحتنا، تحت شمس لاهبة لا ترحم، جعلت الماء في «المطرات» المحمولة يغلي ويحرق أفواهنا عندما حاولنا أخذ جرعة. كنا نتجه شرقاً نحو مقر رئيس البلدية، وهو بناء مسور من ثلاثة طوابق، خاطب صدام حسين، كما ظهر في شريط فيديو عرضه أحد رجال الشرطة العراقية أمام روزادو، جماهير السنة من شرفته، والبندقية في يده.

مقر رئيس البلدية هو المبنى الحكومي الرئيس في المدينة، ومعظم مكاتبه تشغلها الآن الحكومة الجديدة، ومسؤولو الشرطة. عين ضباط الجيش الأمريكي رئيس البلدية الجديد وقائد الشرطة في أثناء اجتماع وفرت جماعتي الحراسة له جزئياً قبل بضعة أيام، بينما شغل أجزاء أخرى من المقر عدد من أفراد سرية برافو، واستخدمنا أحد مكاتب الطابق الثاني (الذي غطيت أرضيته بالسجاد الأحمر) قاعدة للدوريات.

لدى اقترابنا من المبنى، سمعنا نداءً لاسلكياً يأمرنا بالإسراع.

قال وليامز من خلفي: «اسمع أيها الرقيب ميخيا، ثمة شيء يجري في مقر رئيس البلدية، أمامنا مهمة».

سألت، محاولاً إخفاء خيبة أملي: «ماذا، ما الذي يجري؟». لم نذق طعم النوم منذ يوم ونصف اليوم، وأردت فعلاً أن أستلقي على السجادة الحمراء القذرة في قاعدة الدوريات لأخذ قسط من النوم. كنت مرهقاً إلى درجة الانهيار. أردت أن أقول: «لتذهب المهمة إلى جهنم، أريد أن أنام»؛ لا يهم أين: في الشارع، أو تحت ظل نخلة، أو في أي مكان. ولكنني بذلت قصارى جهدي للمحافظة على هدوئي. تابعت السير بخطوات ثابتة ووجه عليه أمارات الجدية، وكأن كل شيء على ما يرام، مثل قائد جماعة مشاة كفء.

صرخ الرقيب وليامز، بعد أن سحب السماعة من جهاز الإرسال على ظهر الاختصاصي شانكس ووضعها قرب أذنه: «ثمة احتجاج خارج مقر رئيس البلدية». في ذلك الحين، لم تكن لدينا أجهزة إرسال يدوية، ولذلك كانت الاتصالات الداخلية تتم بالصراخ والصياح.

أمكننا رؤية جمهرة من الناس على بعد نحو نصف ميل إلى الغرب من مقر رئيس البلدية. سرنا متجاوزين بناية تعرضت للقصف ملاصقة لمدرسة. ثمة تمثال نصفي مقطوع الرأس لصدام حسين يربض على قمة نُصُب عند المدخل، وعلى الجدران لوحات لنساءٍ يلبسن السواد ويحملن بنادق كلاشينكوف. وخارج المدرسة، هناك تمثال لطفل بالزي المدرسي يحمل رزمة من الكتب تحت ذراعه الأيسر. لا أذكر أنني شاهدت أطفالاً حقيقيين هناك.

كان علينا فتح ممر وسط جمهور المحتجين الغاضبين، الذين لم يتأثروا على ما بدا بأسلحتنا. ثمة رجل حمل لافتة كتب عليها «لا لبوش، نعم لصدام»، وأتذكر أنه خطر ببالي أن من الشجاعة الاحتجاج بهذه الطريقة، ولكني لم أنزعج كثيراً من مضمون اللافتة. لأني لم أكن أفضل الرئيس بوش أيضاً.

حين دخلنا مقر رئيس البلدية طلب منّا الوقوف في الممر. يبدو أن سرية برافو سيطرت على الوضع؛ وتمركزت في الباحة الأمامية لتواجه الجمهور من داخل السور المحيط بالمبنى. وأمرنا بالإسراع بالتمركز إذا ساءت الأمور. أشهر عبارة متكررة في أوامر الجيش هي: «أسرعوا وانتظروا!». ولكن الانتظار لم يمثل مشكلة في ذلك اليوم. شعرت بتعب شديد، ولم أمانع في الجلوس على الأرضية القذرة والصلبة للطابق الثاني في المبنى. أخبرني غاليغوس أنه سيكون على شرفة قريبة، وأخذ معه بيريز رامي المدفع الرشاش.

تميز الاختصاصي بيريز بأسلوبه اللطيف في التواصل مع الآخرين، عراقيين وغيرهم، ولكن الطبيعة الهادئة لهذا الجندي (من جمهورية الدومنيكان)، لم تشكل عقبة تعيق كفاءته القتالية. وثمة نقاش جرى داخل الجماعة حول الأمهر في استخدام الأسلحة الآلية: هل هو بيريز أم بيان إيم؟

بعد وقت قصير، وقف أفراد الجماعة كلهم تقريباً على الشرفة. اجتمعت بهم دقيقة، ثم عدت إلى مكاني المريح والقاسي والقذر في الداخل. عرفت أنني لن أستطيع النوم مع كل ما يجري حولي، ولكني مع ذلك أغمضت عينيّ، محاولاً أن أستريح في العتمة.

بدأت أسترخي. كان جنودي جميعاً حولي، يتبادلون الدعابات والمزاح، ويأكلون ما وجدوا في جيوبهم، ويدخنون سجائرهم. شعرت أنني أستطيع الاسترخاء مدة دقيقة، فقد عرفت أنهم سيستدعونني إذا حدث شيء. وحين أغمضت عينيّ ومددت ساقيّ، وأمسكت ببندقيتي وحزامها ملتف حول ذراعي، بدأت أغفو.

لا بد أنني فتحت عينيّ بعد ثوانٍ من غفوتي، كأنما أستشعر المستقبل، قبل جزء من الثانية من الانفجار الأول الذي زلزل الأرض. تبعه انفجار ثانٍ، ثم ثالث. نظرت إلى الجنود الآخرين من حولي فرأيتهم متململين قلقين، وآملين أن ينتهي الأمر بسلام. ثم دوى انفجار رابع هز المبنى بأكمله، وقفز الجميع من أماكنهم.

عادت جماعتي للتو من الشرفة وانتظرت التعليمات.

قال غاليغوس: «المحتجون يرمون القنابل اليدوية علينا».

أتى الرقيب وليامز ركضاً من الطابق الأول، حاملاً معلومات من سرية برافو. فقد طلب الرقيب الأول في السرية من وليامز أن يثبت في مكانه، لأنهم يستعدون لإرسال فريق مدني ليحاول إقناع الجمهور بالعودة إلى منازلهم بسلام. وضعوا عربة همفي مع مترجمة أمريكية طلبت بالعربية عبر بوق من العراقيين مغادرة المنطقة. لكن قنبلة يدوية انفجرت بالقرب من العربة، فأسرعت بالهرب من المنطقة.

قال الرقيب وليامز: «دعنا نذهب أيها الرقيب ميخيا؛ سنصعد إلى السطح لتأمين المكان».

أتى معنا الرقيب ريتز، القناص الماهر الذي يحمل بندقيته القناصة على الدوام. وضعه الرقيب وليامز عند زاوية إستراتيجية يستطيع منها أن يراقب المنطقة التي يحتشد فيها الجمهور الغاضب بأسرها. أما جماعتي فقد تمركزت عند الجزء الأمامي من السطح.

كان من السهل أن نعرف متى يحاول شخص بين المحتشدين إلقاء قنبلة؛ هدأ الجمهور فوراً، وتجمع إلى جانب الشارع، مبتعداً مسافة كافية لتجنب الإصابة بالقنابل. ولكن على مقربة كافية لمشاهدة مكان الانفجار والهتاف والتهليل له. تمركز جنود سرية برافو في مجمع المباني، وصاحوا على المتظاهرين، وحاولوا إرهابهم بالأسلحة. سقط كيس بلاستيكي أسود بالقرب من أحدهم وبدأ ينفث دخاناً. ركضوا جميعهم بأسرع ما يمكن، ونجوا بصعوبة من الانفجار الضخم. وردت لاحقاً تقارير تفيد أن بعض الذين ألقوا المتفجرات كانوا من الصبية.

صدر الأمر بإبعاد جميع العناصر الصديقة من المنطقة المعنية، وطلب من المرابطين على السطح إطلاق النار على كل من يحاول رمي قنبلة. مازال جمهور المحتشدين في وسط الشارع واستشعرت أنهم عدّوا انسحاب جنودنا من الباحة الأمامية انتصاراً. وعادوا إلى المنطقة الواقعة أمام البوابة الرئيسة مباشرة، هاتفين بأصوات هادرة ورافعين لافتات: «لا لبوش، نعم لصدام».

عند هذه النقطة هدأ العراقيون مرة أخرى، وتحركوا جميعاً إلى جانب الشارع. ثم نظروا نحو منطقة منه مخفية عن أبصارنا. تذكرت أن في تلك الزاوية من الشارع متجراً فوقه شرفة، في المبنى ذاته الذي اندلعت فيه

ذات ليلة معركة وجيزة بالرصاص بين المتمردين والفصيلة الثالثة. وقيل: إن فتاتين صغيرتين أصيبتا في أثناء نومهما تلك الليلة، ولكن سرعان ما نفى مسؤولو الإدارة المدنية هذا الخبر. الآن، أمكننا رؤية شاب في ركن المبنى نفسه يخرج من الجمهور الذي يراقب ما يحدث. كان يرتدي سراويل رمادياً وقميصاً بكمين طويلين من اللون ذاته. بدا صغير السن، لا يتجاوز السادسة أو السابعة عشرة. تابعته عبر منظار بندقيتي. ماذا تفعل يا رجل؟ واصل السير نحو باحة المجمع المسورة والمهجورة الآن. سحب بيده اليمنى شيئاً أسود اللون من جيبه واستعد لرميه.

لا أتذكر أنني ضغطت على الزناد حين انهمر وابل من الرصاص على الشاب، فقتل على الفور. أتذكر أن القنبلة التي رماها انفجرت بالقرب من مكان مقتله، بعيداً عن قاتليه. وأتذكر أيضاً اثنين من الشيوخ يخرجان من الجمهور بعد أن توقفنا عن إطلاق النار، ويرفعان أيديهما دلالة على أنهما لا يحملان سلاحاً، وينكسان رأسيهما. سحب الاثنان جثة الشاب من كتفيه في بركة من دمائه، ثم تراجعا بهدوء إلى الخلف إلى أن ابتلعهما الجمهور، الذي صمت الآن حزناً على الشاب القتيل.

بعد وقت قصير عاد الحشد للتجمع مجدداً، فاضطررنا لطلب الحوامات لتفريقه. بلغ عدد قتلى المظاهرة، وفقاً لإحصاء غير رسمي كالعادة، أربعة إضافة إلى سقوط العديد من الجرحى، كلهم من العراقيين.

أمرنا بالعودة إلى داخل المبنى، بعد أن غادر المتظاهرون أخيراً. كان علينا أن نستعد لإرسال مزيد من الدوريات إلى مختلف أرجاء المدينة، ذهبتُ إلى زاوية مظلمة ومنعزلة في المبنى، وجلست برهة من الزمن بعيداً

عن الأنظار، وسحبت مخزن الرصاص من بندقيتي. وجدت تسع عشرة رصاصة باقية، وهذا يعني أنني أطلقت إحدى عشرة على ذلك الشاب.

استؤنفت الدوريات بعد ذلك مباشرة، وتمثلت مهمة جماعتي في تغطية مؤخرة طابور مؤلف من جماعتين انتشر على طول كتلتين من المباني تقريباً. قمنا بممارسة هذا النوع من المهمات في المنطقة عدة مرات، ولكن الشوارع والأزقة بدت في ذلك اليوم مخيفة ومفزعة أكثر من ذي قبل. ربما لأن الكيس البلاستيكي الأسود قد انفجر داخل المجمع قبل وقت قصير، وبدا لنا أن كل شخص في الرمادي يحمل مثله في ذلك اليوم.

ولكن الخوف من الأطفال كان أسوأ من القلق من الخطر المحتمل الناجم عن الأكياس البلاستيكية. فلأول مرة منذ وجودنا في الرمادي سمعنا أن الأطفال متورطون في الأعمال العدائية المباشرة مثل رمي القنابل. ألفينا أنفسنا لا نثق حتى في أشد دعابات الأطفال سخفاً، وهؤلاء يحبون كالعادة لعبة الحرب مع الجنود. إذ كانت مجموعات من أربعة أو خمسة أطفال تركض إلى جانب الطابور، ثم تكمن خلف السيارات المتوقفة لتباغت الجنود وأيدي أفرادها مرفوعة كأنهم يحملون البنادق، ثم يصرخون مقلدين أصوات المدافع الرشاشة، وقد رسموا ابتسامة على وجوههم الصغيرة الكالحة. كانت مجرد لعبة، لكنها وترت أعصاب إستيم وبيان إيم وتشيتو كثيراً.

أثر الاحتجاج على الاحتلال، وما تبعه من إراقة دماء، إضافة إلى ما أصابنا من إرهاق جسدي، في حكمنا على الأمور تأثيراً بالغاً. أمسك تشيتو مراهقاً من عنقه ودفعه نحو جدار، ووجه له السباب والشتائم بالإنكليزية.

اعتقدت أنه على وشك أن يقتله، وصرخت لمعرفة سبب المشكلة. قال: إن الفتى اللعين نظر إليه وكأنه يريد أن يفعل شيئاً.

كان الفتى العراقي الأعزل أصغر حجماً وعمراً من تشيتو، المدجج بالسلاح الكامل وبالرصاص والقنابل اليدوية الانشطارية، مع بندقية وقاذف. شعرت بالأسف للفتى، وأردت أن أطلب من تشيتو أن يخلي سبيله، ولكني لم أستطع. غضبت من كل شيء وكل شخص. أردت من تشيتو أن يزرع الخوف في قلب الشاب، بطريقة تجعل جميع العراقيين في المنطقة المجاورة يعلمون ذلك.

تمكنت من رؤية ملامح الغضب في وجه الشاب العراقي، ثم خطر لي أن العراقيين الذين وقفوا صامتين ومراقبين ربما يفخرون به. بعضهم نظر من بعيد، وحدق غيرهم في الأرض. ولكن أدرك الكل ما يحدث، وشعرت بقبولهم لتحديه. بحلول هذا الوقت أخلى تشيتو سبيل الشاب، وراقبته عن بعد بينما كنت أسير عائداً مع الطابور. حدّق إلي بعينين متحديتين؛ وبدا بتحديه مثيراً للريبة. التفتّ ببطء، متفحصاً المحيط بدقة. ألقيت نظرة عن قرب على كل شيءٍ وكل شخص: الرجال، والنساء، والأطفال، والشوارع، والأزقة، والحيوانات، والمركبات، وبائعي البوظة على الرصيف، والمساجد، والمدارس، والمباني السكنية. بدا كل شيءٍ مريباً.

أطلقنا على هذا الحي الفقير القذر من المدينة اسم «زقاق روث الدجاج». إذ لم يشابه بمجاريره المفتوحة وقمامته النتنة معظم مناطق الرمادي فقط، بل أضاف أيضاً رائحة روث الدجاج الذي يقطر من أقفاصها في المنطقة. كنّا نقترب من نهاية دوريتنا ونوشك على العودة إلى مقر رئيس البلدية، عندما تلقينا نداءً من القيادة.

قال غاليغوس: «مرحباً أيها الرقيب ميخيا، طلب الرقيب وليامز إبلاغكم بالتوجه مباشرة إلى المصرف في مهمة أخرى».

سألتُ غاليغوس: «هل تعرف ما هي؟».

قال وليامز الذي سمع سؤالي الموجه إلى غاليغوس، مع أنه كان يمشي بعيداً عنا: «لا أعرف حتى الآن، سأطلعكم أيها الرجال عليها حالما أسمع من القيادة».

سألتُ: «أيّ مصرف هذا؟».

المصرف الوحيد التي كنت أعرفه هو القريب من القصر الشمالي، بينما كنّا نمشي في الاتجاه المعاكس.

أجاب: «أظنه المصرف القريب من محطة الوقود في مركز المدينة».

نظرت إلى غاليغوس، الذي لم يعرف أين يقع المصرف، بيد أنّه نظر إلي محدّقاً دون أي تعبير على وجهه. لم يكن ذلك مهماً؛ عرفت أين تقع محطة الوقود في مركز المدينة، ولذلك واصلت السير في الاتجاه ذاته، معتقداً أننا بمجرد أن نصل قرب المكان سنتمكن من معرفته.

بحلول هذا الوقت شعرت بتعبٍ شديدٍ، لقد انتقل جسمي إلى مخزون الطاقة الاحتياطية. بإمكاني أداء الوظائف الجسدية، كالمشي والتحدّث، ولكن عقلي في غشية. شعرت كأنني أنظر إلى الأشياء من جسد آخر، الشعور ذاته الذي عهدته في أثناء الكمين، مع أني، خلافاً لحالي آنذاك، أدرك الآن الأخطار المحدقة بي. تابعت السير محافظاً على التحكم بعواطفي، بسبب التركيز على البقاء على قيد الحياة في منطقة خطرة

من ناحية، ومن ناحية أخرى لحماية روحي المعنوية من عذاب التورط في قتل إنسانٍ.

عندما وصلت الأوامر من الكتيبة تبيّن أن علينا حراسة المصرف الذي يستعد لتلقي مبلغ نقدي من الدنانير العراقية يعادل خمسين ألف دولار أميركي. سيصرف المبلغ لدفع رواتب رجال الشرطة المحليّة ومسؤولين آخرين، وذلك للمرة الأولى منذ تعيينهم من قِبَل قوات التحالف. وقد علم أحد رجال الشرطة أن مجموعة من المتمردين سوف تهاجم المصرف. ولم يتضح الهدف: هل هو العاملون الذين يتعاونون مع سلطات الاحتلال الأميركي، أم المال ذاته، أم نحن؟!

ما توضح لنا لدى وصولنا إلى المنطقة وجود إجراءات أمنية مشددة. فقد تمركزت عناصر السرايا المقاتلة الثلاثة من كتيبة المشاة 1-124. وهناك جنودٌ من سرية القيادة أيضاً. كما رابطت ثلاث عربات همفي أمام المصرف، وتوقفت سيارات الشرطة في الأزقة الخلفية، واختلط الجنود بالمدنيين والشرطة العراقية على امتداد الرصيف.

دخلنا المصرف لنعرف ما هي مهمة جماعتنا، فوجدنا الرقيب الأول ديمريست، الذي تولّى دور رقيب الفصيلة منذ أن أصيب سريكاس بطريقة غامضة وفي وقت غير مناسب.

خاطبني قائلاً: «رقيب ميخيا، سنضع جماعتك على سطح المستشفى الكائن على الطرف الآخر من الشارع».

لم أرد الاعتراف بجهلي بمكان المستشفى الذي يتحدث عنه. عرفت «مستشفى صدام»، ولكنه يقع على ضفة النهر على بعد نحو ميل إلى

الشمال من المدينة. وعرفت الطريق وضرورة عبور نصف مركز مدينة الرمادي للوصول إليه. من المؤكد أنه لم يقصد ذلك المستشفى. ورأيت منذ ذلك الحين أننا سنخترق أمواجاً من البشر في السوق، لنصل إلى الطريق الدائرية، ومنها إلى الأحياء السكنية. لم تكن الاحتمالات جذابة.

قلت: «علم، وأي مستشفى؟»

قال ديمريست، وهو ينظر إلي بعينيه الزرقاوين اللذين أصابهما حول خفيف: «مستشفى الأمراض النفسية على الطرف الآخر من الشارع. ألا تعرفه؟».

قلت: «لا».

اعترف ضاحكاً «ولا أنا».

سرني أن أعرف أنني لست غبياً لا يفرق اليمين من الشمال. ذهب ديمريست ليسأل رقيباً أول شكله يثير الضحك ويقف في الخارج متباهياً بشارة الجوالة. جلست على الأرض بالقرب من سريرٍ كان موضوعاً، وهذا أمر غريب، في منتصف ردهة المصرف قرب مكان الصرافين. السرير عتيق وبدائي الصنع، لكنه بدا ناعماً ومريحاً ومغرياً. حاولت عدم التفكير بالنوم عليه عندما رأيت يداً تقلب الفراش. رفعت رأسي فوجدت شرطياً عراقياً يرتدي ملابس مدنية، وقد شذب لحيته بطريقة أنيقة. أومأ لي برأسه باتجاه السرير، فرأيت بندقية كلاشينكوف تحت الفراش.

قال الشرطي الشاب مبتسماً: «جيد».

نظرت إلى السلاح الذي أخذ «يلاطفه»، كأنه كلب أليف لا يهتم كثيراً بسيده. بادلته الابتسام.

عاد ديمريست دون تأخير بالمعلومات، وسرنا معاً في الخارج بمحاذاة الرقيب الأول المتباهي. أشار إلى المبنى ودلني على المدخل في الطابق الأرضي. تجمعت بعض السيدات المسنات خارج المبنى بأثوابهن السوداء لكن دون نقاب. هناك أيضاً أكشاك تبيع مجوهرات مقلدة رخيصة، وأقراصاً مدمجة على رصيف المستشفى. الشوارع مزدحمة بالناس، غالبيتهم من الرجال الذين يرتدون أثواباً بيضاء طويلة ويدخلون ويخرجون من المسجد القريب.

سألني ديمريست، وهو يشير إلى المبنى أمامنا: «هل ترى المبنى المجاور للمصرف؟».

سألته، محاولاً أن أتأكد: «أي مبنى، هذا؟».

قال: «أجل، هذا، أترى؟ إنه مبنى مانتيلا، وهؤلاء جنود مانتيلا».

قلت: «نعم، فهمت».

كان وليامز قد أمر جماعة مانتيلا بالتمركز في المكان.

«سيبقى ميليغان معي داخل المصرف. أما أنت فتأخذ هودجز وأيبو معك».

كان يتحدث عن فريق رماة المدافع الرشاشة المؤلف من هودجز الذي يتولى مدفع رشاش سرية برافو (M - 240)، ومساعده الرامي أيبو. تسلم ديمريست قيادة جماعة رماة المدافع الرشاشة، فمن عادة وحدات المشاة إسناد الإشراف على المدافع الكبيرة إلى أرفع قادة الجماعة رتبة.

مع غياب الملازم سريكاس وتولي وليامز مهمة قائد الفصيلة بالوكالة، أصبح ديمريست رقيب الفصيلة، وقسمت جماعة رماة المدافع الرشاشة إلى نصفين. توليتُ قيادة أحدهما، وتولى ميليغان الآخر.

قلت: «علم» وأنا أنظر إلى موقعي، وأفكر باحتمالات التعرض لهجمات العدو.

عدت إلى الداخل لأجمع الفرق فوجدت أفرادها في حالة راحة واسترخاء، ولم أقلق كثيراً، نظراً للإجراءات الأمنية المشددة في الخارج. حاول روزادو إرسال أحد أفراد الشرطة العراقية لشراء بعض زجاجات الصودا. أما بيان إيم فقد جلس على مقعد خشبي، مصغياً إلى مترجم عراقي طويل بدين يتحدّث عن صدّام حسين. كان المترجم يتحدّث الإنكليزية بطلاقة وبلكنة أميركية مميزة.

«نعم، يا رجل. ساءت الأمور اللعينة. بدؤوا باستهداف العراقيين الذين يساعدون الأميركيين. أعني أنني أتحدّث الإنكليزية بطلاقة، ولكنني عراقيّ، صدام حسين هو السبب وراء كل ما يجري».

لم أعرف من هو هذا الرجل، ولا أردت أن أعرف. لسبب ما - لم يكن باستطاعتي أن أحدّده بالضبط– لم أجده صادقاً. بدا أميركياً وليس عراقياً. فضلاً على أنه بدين خلافاً لمعظم العراقيين العاديين. ومع أنه لم يكن في الجيش الأميركي، إلا أنه لبس سترة عسكرية واقية من الرصاص فعلاً.

ربما اعترضت على حقيقة أنه يرتدي سترة لم نتمكن –حتى نحن– من الحصول على مثلها في ذلك الوقت. فالستر التي نرتديها لم توفر وقاية كافية من الرصاص. اعتقدت أنّه يعمل في المقر العام مع قائد كتيبتنا،

والأرجح أنّه يقيم في القصر. فالعمل مع كبار القادة له فوائده ومكافآته، حتى لو لم تكن جندياً.

قلت محاولاً وقف التسلية: «حسناً يا رجال، علينا أن نوفر الأمن والحماية لمحيط المبنى».

سأل غاليفوس: «ماذا سنفعل؟».

«رقيب ميخيا».

قلت وأنا أنقل بصري من روزادو إلى غاليفوس: «انتظر لحظة يا روزادو، سوف نصعد إلى سطح المبنى، ونوفر الحماية للمصرف».

قال روزادو وهو يرسم ابتسامة عريضة: «طلبت للتو بعض زجاجات الصودا للجماعة».

أنهكنا التعب، ويمكن لقليل من السكّر أن يرفع مستويات طاقتنا، ولكن لم نستطع البقاء والانتظار، عرفنا ذلك كلنا. جر كل واحد قدميه، مبتسماً باستسلام. لم تكن خطيئتي، ومع ذلك كنت الملام. راقب المترجم ما يجري دون أن ينطق بحرف، إلى أن بدأنا بالمغادرة.

«أيها الرجال، كونوا على حذر هناك».

تردّد صدى كلماته داخل رأسي. سألت نفسي: «أي عراقي هذا؟». ضايقني وأزعجني، بكل ما قاله وفعله، حتى حين كان حسن النية والمقصد. كنت منهكاً وخائفاً، وأتساءل الآن: هل هو طيب فعلاً؟ ربما كنا سنصبح صديقين مقربين، أو ربما هو في عداد الأموات الآن. خرجت للانضمام إلى الجماعة دون أن أنظر إلى الخلف.

بعد دخولنا إلى ردهة مستشفى الأمراض النفسية القذرة والمزدحمة، صعدنا الدرج إلى سطح الطابق الرابع. تمركز الاختصاصي بيريز، رامي المدفع الرشّاش في فريق ألفا، عند المدخل لتوفير الأمن والحماية لبقية الجماعة. بينما توزع الباقون حول محيط السطح المربع، خصوصاً عند الجانب المواجه للمصرف، والشارع المزدحم الممتد في الأسفل مباشرة.

لأول مرة منذ بدء انتشارنا أُسندت إليّ مسؤولية تحديد الموقع الإستراتيجي للاختصاصي هودجز، رامي المدفع الرشاش الثقيل والفاعل في فريق برافو (M-240) . يجب وضع هذا المدفع دوماً في مكان يستطيع منه الرامي أن يحدث أشدّ الضرر، فهو معروف عند المشاة الخفيفة بأنه السلاح الأمضى الذي يوقع أفدح الإصابات في العدو. ويجب أن يتمركز الاختصاصي أيبو، مساعد هودجز، إلى جانبه ليأخذ مكانه إذ حدث له شيء.

يطلب من مساعدي الرماة حمل نصف كمية الذخيرة تقريباً. ويتمثل جزء من مهمتهم في تغذية المدافع الرشاشة بالرصاص المثبت في أشرطة، وتوجيه الرماة بحيث تحدث الرشقات أكبر عدد ممكن من الإصابات. ولأن معدّل الإطلاق السريع يرفع حرارة ماسورة المدفع الرشاش (M-240) إلى درجة الاحمرار، يجب على مساعد الرامي حمل ماسورة احتياطية لاستبدال الأساسية بعد إطلاق عدد محدد من الطلقات لكي لا تنصهر.

قال هودجز الذي استقرّ خلف مدفعه الرشاش والسيجارة في فمه: «ما الذي يحدث أيها الرقيب ميخيا؟ هل الموقع مناسب برأيك؟». تحققت من موقعه.

قلت بابتسامة صادقة، ولكنها تدلّ على التعب: «ما يناسبك يناسبني».

أحببت هودجز فعلاً. فقد التحقنا بسريّة تشارلي في الوقت ذاته تقريباً. كلانا من الجنود العاملين وحملنا رتبة اختصاصيّ والمسؤوليات المترتبة عليها. أتذكر كيف كلفنا بتدريب زملائنا في أثناء أيام التدريب. وأتذكر بصورة خاصة كيف علم المتدربين تشغيل جهاز اللاسلكي. وكان الانطباع السائد أنه ساخر ولكنه ذكي أريب.

لم يحصل هودجز على الرتبة نفسها التي حصلت عليها، لأنه حسب ما أتذكر عمل في وظيفة أبعدته عن التدريب بضعة شهور، فعُدّ متغيباً دون إذن. وحالت هذه المخالفة دون ترقيته لاحقاً، ومع ذلك ظل واحداً من أكثر الجنود خبرة في الفصيلة وعمل في كوسوفو عندما كان الوضع متفجراً هناك. وما افتقر إليه في الرتبة عوّضه بالخبرة. لم يتبجح بمعارفه المتفوقة، ولم أتفاخر برتبتي الأرفع. ونتيجة لذلك أطاع أوامري، دون أن يتردّد أبداً في إعطاء رأيه عندما اعتقد أنني مخطئ.

قلت لهودجز، وأنا أنظر إلى الكتلة المتحركة من الجمهور: «لا أظن أنهم قادرون على إيذائنا. نحن مدججون بالسلاح».

أجاب: «لا أعرف أيها الرقيب، لا يمكن توقع ما يفعله هؤلاء المجانين من أبناء الزنى».

نظراً لمستوى الإجراءات الأمنية المشددة، بدا من المستحيل فعلاً شن أي هجوم علينا. انتشر الجنود الأميركيون ورجال الشرطة العراقيون في كل مكان، إضافة إلى عربات الهمفي التي نصبت عليها المدافع الرشاشة، وجماعة مانتيلا وجماعتي اللتين تراقبان كل شيء من عل. ومن العوامل

التي جعلتني أستبعد حدوث هجومٍ في الواقع، وقوف الرقيب الأول المتباهي خارج المصرف، حيث رأيته يتحدث بهدوء واطمئنان مع الجنود المحيطين بالعربات. فوجود ضابط صف بهذه الرتبة في الشارع، دون أن تبدو عليه أمارات القلق أو حتى الانتباه والتيقظ، مثل دليلاً مقنعاً على أن الوضع آمن وتحت السيطرة. أو أن الرقيب الأول غبي بالفعل. ولكن ذلك مستحيل، فهو يحمل شارة الجوالة.

نقلت نظري من جمهرة الناس المجتمعين في الشارع، إلى المبنى الذي احتله مانتيلا. صعب علي مشاهدة رجاله، لأن موقعهم أعلى قليلاً من موقعنا. وحين مسحت ببصري الأماكن المحيطة بنا، أدركت أننا مطوقون بالمباني من كل جانب. وهذا ما جعلنا في وضع ضعيف معرض للخطر، فقد يتمركز قناصة على أسطح هذه المباني، ينتظرون وربما يستعدون لإطلاق النار علينا.

كان الشارع الواقع في الجهة الشرقية، المتعامد مع الطريق الرئيسة التي يقع فيها المصرف والمستشفى، مهجوراً وخالياً من المارة تقريباً. وخطر لي أننا لم نركز انتباهاً كافياً على الشارع الخالي، مثلما فعلنا مع الطريق الرئيسة. وصحيح أن من الصعب الهجوم على المصرف من هناك، لكن ماذا لو لم يكن المصرف هو الهدف، بل الجنود الذين يحرسونه؟

صحت بأعلى صوتي: «اسمعوا!». نظر الجميع إليّ من مواقعهم المعرضة للخطر. وأضفت، وأنا أشير بيدي إلى الشارع المهجور: «تأكدوا من الانتباه لتلك الطريق الممتدة في الأسفل. فمن السهل تماماً لمجنون أن يلقي علينا قنبلة ليقتلنا جميعاً».

لم تنطبق الملاحظة إلا على جنديين في موقع سمح لهما برؤية الطريق التي أتحدّث عنها. ولكنني أردت أن يسمع الجميع، إذ لم يكن يبدو أنهم مدركون لاحتمال تعرضنا للهجوم. أومأ كل واحد برأسه وعاد لمراقبة قطاعه. أمّا فونيز فقد أخذ نفساً طويلاً من سيجارته.

كانت معظم الدكاكين تغلق أبوابها، ودفع باعة البوظة عرباتهم مع ما بقي فيها من بضاعة لم تتمكن الحرارة من إذابتها، وبدأ الباعة المتجولون من جميع الأنواع الاستعداد لاختتام تجارتهم لهذه اليوم. مالت الشمس نحو الغرب مخلفة ظلاً باهتاً على الخط الأمني المؤلف من عربات الهمفي، والجنود، ورجال الشرطة العراقية. سمعت صدى ضحك خافت، وتبين لي أنه صادر عن الرقيب الأول، الذي كان يستخدم مترجمه البدين المتأمرك للتحدث مع بعض رجال الشرطة العراقيين، الذين جلسوا على الرصيف، أسندوا بنادقهم إلى الجدار. لم أشاهد عملية تسليم المال، لأنني أقف على السطح، ولكن بدا كل شيء هادئاً. ثم سمعت دوي انفجار.

كان الانفجار ناجماً عن قنبلة يدوية، ولكن دويه حطم صمت اللحظة المخادع. تبعه أزيز مدفع رشاش يطلق من مبنى مانتيلا على الطرف الآخر من الشارع. ركض الناس كالمجانين على الطريق الرئيسة تحتنا، ولكنهم لم يبتعدوا كثيراً، بل اكتفوا بمسافة آمنة تجنبهم الأذى، وتمكنهم من مشاهدة ما يحدث. أعتقد أن الهجوم أرعبني أكثر من السكان المحليين. بعد دقائق ارتفع لهب من موقع الرقيب الأول إلى السطح الذي تمركّز عليه مانتيلا. اعتقدت للوهلة الأولى أن شخصاً أطلق قذيفة صاروخية (آر بي جي) من خارج مدخل المصرف، ولكن لم يكن هناك سوى رجال الشرطة العراقيين وعدد من جنودنا، ولم يحمل أي منهم قاذفات آر بي جي.

قال بيريز وهو ينظر إليّ ويسدّد مدفعه باتجاه مدخل الدرج: «رقيب ميخيا، هل تريدني أن أنتقل من هُنا؟».

قال غاليفوس، قائد فريقه: «لا».

قلت له بنبرة هادئة متمهلة مع أنني كنت شديد التوتر: «لا تحاول الظهور، لن يطلق أحد النار إلا إذا وجد هدفاً واضحاً».

أصغى الجميع من دون أن يتركوا مواقعهم.

قال هودجز: «لا أستطيع أن أرى شيئاً. هل تستطيع أنت يا رقيب ميخيا؟».

قلت: «لا، لا أستطيع رؤية شيء».

تبع ذلك مزيد من نيران المدفع الرشاش من موقع مانتيلا، ثم صوت عجلات تزعق على الأرض. نظرت إلى أسفل فرأيت عربات الهمفي تنطلق مسرعة. كان رقيب الجوالة ومرافقوه ينسحبون من المشهد المجنون، وهو يصيح : «تغيرت المهمّة، تغيرت المهمّة، تغيرت المهمّة».

الاختصاصي مدرانو هو الذي أطلق الرصاص من المدفع الرشاش المنصوب على سطح مبنى مانتيلا، حيث جلس خلف جدارٍ منخفض ليراقب الأزقة وراء المصرف. شاهد رجلاً يقف وراء نافذة ويصوب سلاحه نحو موقعهم. أطلق الرجل رصاصة عليه، ولكنها أخطأت الهدف. ردّ مدرانو على النار بالمثل، ولكن الرجل غادر النافذة مخلفاً ظلّه وراءه.

ما إن بدأ مدرانو بإطلاق النار، حتى رمى رجلٌ كان يمشي في الشارع قنبلة يدوية على السطح انفجرت قبل أن تصل إليه. وعند سماع الانفجار

أطلق أحدهم رصاصاً خطاطاً لاح أثره في غسق الغروب، ولكنه أخطأ موقع مانتيلا. وتمكن رامي القنبلة من الفرار.

مع أن بعض الأهالي ظلوا يتجولون في المنطقة، إلا أن رجال الشرطة العراقية اختفوا داخل المصرف، ولم يطلقوا رصاصة واحدة. تلقينا أمراً بالدخول إلى المصرف أيضاً، فنزلنا الدرج بحذر خشية أن يكون المهاجمون قد أعدّوا لنا فخاً في طريق الخروج من المبنى.

وصلنا بأمان إلى الطابق الأرضي، واجتزنا الشارع إلى المصرف لنلتقي ببقية أفراد الفصيلة. تلقينا، أنا والرقيب ديمريست وميليغان، أمراً بالعودة إلى مقر رئيس البلدية، بعد أن قررّت قيادة الكتيبة أنه مكانٌ أكثر أماناً لتسلّم المال فيه. بقي الرقيب وليامز مع جماعة مانتيلا لتفتيش البيت الذي أطلق مدرانو النار عليه، ولكننا علمنا لاحقاً أنهم لم يجدوا شيئاً فيه.

انتهت مهمّة المصرف، ولكن كان علينا القيام بأعمال الدورية في جميع أنحاء المدينة حتى صباح اليوم اللاحق. همهم الحشد عندما غادرنا، جماعة بعد جماعة. نظرت إلى الوراء لحظة ونحن نخترق الحشد المتفرق؛ بحسب علمنا، لم يقتل أحدٌ في أثناء الهجوم، مع ذلك بدت أمارات الغضب الشديد على الوجوه البعيدة. تساءلت: هل يوجهون اللوم إلينا بسبب ما حدث؟ التفت مرة أخرى. لم أرَ شيئاً. فقد أطبقت السماء المظلمة، مثل غطاء تابوت، على الرمادي.

***

سادساً

بعد أسبوع أو نحوه من تعرض جماعتي لكمين في الرمادي، وعقب عدد من الهجمات الخطرة على الجماعات والفصائل الأخرى، قررت قيادة سريتنا وضع ترتيب لعمليات ضمن دورة من ثلاث مراحل، حيث تقوم كل فصيلة بالدوريات، وتشكل قوة الرد السريع، وتؤدي مهمة ما عُرف باسم «حراسة الحجي».

كانت هذه الأخيرة المهمة الأكثر أماناً ورغبة في دورة المراحل الثلاثة في السرية. وعلى الرغم من ضآلة الجهد المبذول لإعادة إعمار مدينة الرمادي المدمرة، إلا أن قادة الوحدات بدؤوا بتلقي التمويل اللازم لتحسين الأوضاع المعيشية لجنودهم. واستخدم معظم المال لإجراء إصلاحات قصيرة الأجل، وصدرت عقود (زهيدة القيمة) لشركات عراقية محلية. وعندما جاء العمال العراقيون إلى قاعدتنا كان من الضروري تفتيشهم بحثاً عن أسلحة، ثم مرافقتهم حيثما ذهبوا. دعونا هذا العمل «حراسة الحجي». وشملت الأعمال الأخرى في أثناء حراسة الحجي التمركز في مختلف أبراج القاعدة التي تحمي المجمّع، الذي تعرض بانتظام لهجمات بالقذائف الصاروخية ومدافع الهاون.

أما الأشد خطراً فكانت مهمة قوة الرد السريع. ومع أن معظم الاشتباكات تنتهي بوصول قوة الرد السريع، إلا أن احتمال شن الهجمات المضادة، أو الوقوع في كمين على الطريق، ظل قائماً. لم تكن فصيلة الرد السريع تُستدعى كلما ظهرت مشكلة، ففي بعض الأحيان تتولى الفصيلة التي تقوم بالدورية معالجة الوضع دون مساعدة. في أحيان أخرى تستدعى قوة الرد السريع لمجرد المساعدة في توفير الأمن أو نقل السجناء. وفي مناسبات غيرها، ربما استدعي أفرادها للمساعدة في تأمين منطقة، لينتهي بهم المطاف بشن غارات أو عمليات بحث عند العدو وقتله.

ما زلت أتذكر بوضوح إحدى مهمات قوة الرد السريع التي شاركت فيها فصيلتي. كان الدور على الفصيلة الأولى للقيام بأعمال الدورية، واستجابت لنداء أحد مخبرينا، وهو رجل عاش مع عائلته على الجانب الآخر من الحقل الواقع في الجهة الشرقية منا.

زعم المخبر أن مجموعة من الرجال اقتحمت منزله، واعتدوا عليه بالضرب ثم اغتصبوا زوجته. أراد من سريتنا اعتقال الجناة، وقال: إنه يعرف أين يقيمون؟ ذهبت الفصيلة الأولى مع الرجل إلى حي قريب من الطريق إلى قاعدتنا، حيث قرع الجنود باب المنزل الذي أرشدهم إليه. فشاهدوا ثلاثة رجال يهربون من المكان.

كسر الجنود الباب ليتمكنوا من دخول المنزل، ثم خرجوا من الباب الخلفي لمطاردة المشبوهين. اتجه جندي آخر، الرقيب سياتوني، إلى داخل المنزل ليساعد في تأمينه، فاصطدم تقريباً برجل رابع يحمل بندقية هجومية. بدا أنه يذخّر البندقية، ليلحق بالجنود الذين يطاردون أقاربه.

أطلق سياتوني النار فوراً. أصابت الطلقة الأولى ذراع الرجل، وأحدثت جرحاً غائراً في اللحم بين المرفق والكف. ثم سدّد بندقيته نحو صدره وأطلق الرصاص مرة أخرى، فقتل في الحال. أما الثلاثة الآخرون، فقد ألقى القبض عليهم الجنود الذين طاردوهم.

كان أفراد الفصيلة في حالة استرخاء في عش النسر عندما جاءت الدعوة لإرسال قوة الرد السريع. وعندما عرفنا بعدم وقوع إصابات في جانبنا وتوقف القتال، لم نستعجل في تلبية الدعوة. أخذنا معداتنا وتوجهنا إلى شاحنات الفصيلة المتوقفة إلى يمين المبنى الذي نبيت فيه مباشرة.

تمثلت مهمتنا، بوصفنا قوة الرد السريع، في توفير الأمن والحماية، بينما تتابع الفصيلة الأولى تفتيش المنازل حول المنطقة، ومرافقة الشاحنة التي تنقل جثة القتيل. حملت الشاحنة أيضاً الأسرى الثلاث (اثنان منهم من أقرباء القتيل، والثالث شقيقه). ركبنا، أنا وفريق ألفا، خلف الشاحنة التي تحمل الأسرى والجثة. أبقيت سلاحي مسدّداً نحوهم، بعد تغطية رؤوسهم وتقييد أيديهم؛ في حين تولى بقية أفراد الفريق تأمين الشاحنة.

حين بدأت العربة تتحرك، نظرت إلى الخلف فرأيت شيخاً بلحية رمادية طويلة يراقبنا. كان راكعاً على ركبتيه، يبكي ويرفع يديه إلى السماء متوسلاً. جعلني صوت عويله الناحب أشعر بالخجل مما فعلناه. لقد تعرض في ذلك اليوم لظلم رهيب، مثلما كان يحدث كل يوم لعدد لا يحصى من العراقيين. كان من المفترض لرجل مثله في أرذل العمر أن يستمتع بصحبة أبنائه وأحفاده. لكنه يراقب الآن عربتنا تنطلق مبتعدة بجثة ابنه القتيل.

في عش النسر، وجب نقل الجثة إلى عربة همفي، لأن بوابات المستشفى، حيث توجد المشرحة، ضيقة لا تسمح للشاحنة بالدخول. لم يرد أحد حمل الجثة الملفوفة بملاءة بيضاء مخضبة بالدماء. ولذلك سحبناها من الشاحنة من القدمين، فارتطم الرأس بالأرض، فارتفعت ضحكات مجموعة من جنود الفصيلة الثالثة الذين راقبوا المشهد من الطرف الآخر من الباحة.

قال أحد جنود الفصيلة الثالثة الذين كان ضمن جماعتي ذات يوم، وقد أحاط بذراعه ظهر الجثة: «التقط لي صورة مع ابن العاهرة».

انكشف جزء من الكفن فلاحَ شاب لا يرتدي سوى سراويل داخلي. كان ثقب الرصاصة التي اخترقت الصدر صغيراً، لكن ثقب مخرجها من الظهر بلغ حجم تفاحة.

تابع الجندي ضاحكاً: «اللعنة، لقد قتلوك فعلاً، أليس كذلك؟».

في هذه الأثناء، أنزل شقيق القتيل وابنَا عمه من الشاحنة. لا أظن أن غطاء رؤوسهم حال دون رؤيتهم ما كان يحدث على الأرض بالقرب منهم. خطر لي كم كان مؤلماً ومبرحاً رؤية قريبهم العزيز يمرغ في التراب، وهو شبه عارٍ ومضرج بالدم، ويتعرض للسخرية والإذلال والإهانة حتى بعد الموت.

تطوّع غاليغوس وروزادو بغسل الدم من مؤخرة الشاحنة، ومرّ اليوم بسلام بعد ذلك. عند الغسق، تجمّعت الفصيلة بكاملها أمام البوابة، لكي تتمكن من الخروج بسرعة وكفاءة إذا ما دُعيت إلى العمل بوصفها قوة الردّ السريع، ولكن لم يحدث أيّ شيء تلك الليلة. في الساعة الرابعة صباحاً عادت الفصيلة الأولى عبر البوابة، وذهبنا جميعاً للنوم.

كانت الدوريات الراجلة أخطر العمليات الثلاثة. والفصيلة التي تكلف بمثل هذه المهمة توصلها شاحنات السريّة المتهالكة إلى موقعٍ محدد حول الرمادي (كل شاحنة مسؤولة عن أمنها، ولا يسمح لأي منها بمغادرة القاعدة، دون مرافقة عربة حراسة واحدة على الأقل). وما إن تصل الفصيلة إلى مقصدها، يسير الجنود في منطقة العمليّات، إلى أن يقتنع أحد الضباط المسؤولين بأن الدورية حققت أهدافها. كانت مستويات الخطر في هذه المهمات مرتفعة، لأن جنود المشاة الراجلة لا يستطيعون حمل ما يحمي أجسادهم أو ما يكفي من القوة النارية؛ ولأن الطرق التي يسلكونها مكررة في أكثر الأحيان، فإنهم يظلون عرضة للهجوم.

جهزت غالبية عرباتنا برشاشات ثقيلة (من عيار M – 50) أو قاذفات قنابل يدوية (من طراز Mark 19). ولكن هذه العربات، القديمة وغير المصفحة، أصبحت أهدافاً مقصودة ومهمة للعبوات الناسفة محلية الصنع، إضافة إلى القذائف الصاروخية التي يستخدمها المتمردون. وعندما بدأنا نخسر العربات نتيجة العبوات المتفجرة على جوانب الطرق، اضطررنا لحشر عدد أكبر من الجنود في الشاحنات القديمة. وأصبح ركوبها مهمة مكروهة كثيراً.

بالرغم من ذلك كله، اضطررنا للاعتماد أكثر فأكثر على استخدام العربات للدوريات الراجلة، وهذا عائد جزئياً إلى المناطق الشاسعة التي طلب منّا تغطيتها، مما جعل من الصعب أداء المهمات سيراً على الأقدام، إضافة إلى أن الجو اللاهب، حيث تصل الحرارة إلى أكثر من خمسين درجة مئوية، بدأ يلعب دوراً في الخسائر البشرية لقوات التحالف.

في أحد الأيام، كانت الفصيلة الثانية تقوم بأعمال الدورية في البلدات الريفية الزراعية الواقعة شمال الرمادي. تطلب الوصول إلى هذه المنطقة إمّا سلوك «طريق النهر» (المحاذية للفرات)، أو الطريق الرئيسة رقم 10، شريان حركة المرور عبر مركز مدينة الرمادي، الذي يمتد بعد ذلك شرقاً إلى مدينة الفلّوجة المجاورة. كان الطريقان على درجة كبيرة من الخطورة، ومعرضان دوماً للعبوات الناسفة محلية الصنع.

بدا اليوم هادئاً بالنسبة للدوريات، وهذا أما أعجبني. ولسوء الحظ، ظهر بكل وضوح أن قائد فصيلتنا المعين حديثاً، الرقيب وليامز، انهمك في تنافس محموم مع قادة الفصائل أخرى على من يستطيع قتل/ أو أسر أكبر عدد من المتمردين، أو خوض أكبر عدد من المعارك. فمن وجهة نظره، كان اليوم، مع اقتراب نهايته، يوماً فاشلاً. وبحث يائساً عن مكافأة يعود بها إلى القاعدة.

لم تكن علاقتنا، أنا ووليامز، في أفضل حالاتها تلك الأيام. فمنذ بداية وصولنا إلى الرمادي، عندما بدأنا نقوم بأعمال الدوريّة، أدركت الأخطاء الذريعة والعيوب الخطيرة في طريقة أداء المهمات. وهذه شملت القيام بأعمال الدورية في منتصف الليل عبر الأزقة المعتمة في مركز مدينة الرمادي، دون أن يعرف أحدٌ أين نحن بالضبط. كانت وحدة فوج الفرسان الثالث المدرع التي أخذنا مكانها تستخدم خطوطاً أو طرقاً مرسومة على خرائط محفوظة في القاعدة، يمكن بواسطتها تحديد مواقع الدوريات وحركتها. هناك مناطق مستهدفة للعمليات يتركز عليها الجهد، كما تعين طرق الدوريات ويتابعها قادة آخرون في عش النسر. حددت أيضاً خطوطٌ للإخلاء الطبي، إضافة إلى نقاط لجمع المصابين. أمّا نحن فلم يكن عندنا شيء من ذلك كله، باستثناء مناطق عمليات لكل جماعة.

عندما أخبرت مانتيلا بما يشغل بالي، تبين أنه يشاركني فيه. ولكن عندما قلت: إنني أريد التحدث مع وليامز بشأنه، أوصاني بأن أحتفظ به لنفسي.

قال بنبرة مخلصة: «وليامز رجل عظيم. ولكني عملت معه منذ أن التحقت بسرّية تشارلي. صدّقني يا ميخيا، أنا أعرف الرجل».

«فهمت، أنت تعرف الرجل. الآن، ماذا تحاول أن تقول؟».

أجاب، بعد أن سحب نفساً من سيجارة محلية الصنع: «وليامز لا يخطئ أبداً. وحتى إذا عرف بخطئه، لن يعترف به. لو اعتقد أننا على خطأ في طريقة قيامنا بأعمال الدورية لأشار إليه، ولأنه لم يفعل لن يصغي إلينا».

«أجل، ولكن يجب أن أخبره. الوضع سيء ولا يمكن السكوت عليه».

«أوافقك الرأي، ولكنك تضيع وقتك. صدقني، كنت أبلغه رأيي، لكنه لم يستمع لي قط، ولذلك توقفت».

«أفهم، ولكن ذلك كان في أثناء التدريب، والوضع هنا حقيقي».

«أعلم، ولكن صدقني أنت تضيع وقتك».

في وقت لاحق من ذلك اليوم تحدثت أيضاً مع فونيز الذي تسلم بين الحين والآخر قيادة الفريق، عندما يصاب روزادو بالتواء في الكاحل أو بمرض مفاجئ.

على غرار مانتيلا، وافقني فونيز الرأي. فقد عمل أيضاً في الفصيلة الثانية طوال مدة التحاقه بسرية تشارلي، وكان يعرف وليامز جيداً. ولكنه اعتقد أن من الواجب إبلاغ وليامز بمخاوفي.

قال بنبرة فيها نوع من السخرية: «يا رجل، يمكن أن نجلس هنا ونتحدث عن الأمر طوال الليل، ونتفق على التفاصيل كلها، ولكن لن يحدث أي فارق مهم إن أبلغتني أنا، يجب أن تبلغ وليامز».

عندما تحدثت في نهاية الأمر مع وليامز، عرفت أن مانتيلا على حق.

قال، وهو يرفع بصره عن الصفحة التي كان يكتب عليها: «ولكن لدينا قطاعات، ومستقبلات تحديد المواقع بواسطة الأقمار الصناعية، ومن ثم تستطيع كل جماعة معرفة موقع الأخرى على الدوام».

«أجل، ولكني أتحدث عن خطوط المراحل، ونقاط التفتيش، وتحديد القطاعات باللون أو الرمز، مثلما فعلت وحدة الفوج الثالث قبلنا».

«حسناً، يمكنك أن تفعل ذلك إن أردت. ثم نتحدث إلى قادة الجماعات الأخرى بحيث نتفق كلنا على الإجراءات».

عاد إلى الكتابة مرة أخرى. أظن أنه يكتب أبياتاً من الشعر الحر، وعرفت تمكنه من هذا النوع الأدبي. فقد عقدت الفصيلة جلسات للشعر الحر عند سدّ الحديثة، وتبين تفوق بيان إيم ووليامز في نظم الشعر. ولكن ذلك كان في الحديثة المسالمة الهادئة. أما الآن فنحن في الرمادي العنيفة، ومع أنني لم أنصرف بعد، إلا أن الشاعر تجاهل وجودي .

تابعت الكلام لكي يعرف أنني مازلت هناك: «يجب أن يتم ذلك على مستوى السرية. فالأمر لا يستحق العناء إذا لم تتطلع عليه قوة الرد السريع، على سبيل المثال، أو إذا لم يعرف أطباء السرية طرق الإخلاء. وعلى القيادة تسجيل عبور خطوط المراحل، ويمكن أن نبقى في نطاق قطاع محدد..».

«إذاً، لماذا لا تذهب إلى القائد وتصيح مشتكياً أمامه؟»، ثم أضاف بعض العبارات البذيئة.

لم نعهد من وليامز النبرة الغاضبة، والصراخ، واستخدام الألفاظ البذيئة. أغلق دفتر الملاحظات بسرعة وبدأ يحدق فيّ عابساً.

سألته: «لماذا جُنّ جنونك؟». عرفت صعوبة الاعتراف بالغضب، إذ قلّما وصل إلى هذه الحالة.

انخفضت حدة صوته، وإن بقيت فيه نبرة الغضب والانزعاج: «لست غاضباً. قلت لك اذهب واشتكي أمام النقيب وارفل».

«أنا لا أشتكي، أيها الرقيب؛ كل ما أقوله: إن بإمكاننا أن نفعل الأشياء بأسلوب أفضل، وبما أنك قائد الفصيلة، اعتقدت أنك تستطيع أن تتحدث إلى القائد، وتقدم له بعض الاقتراحات».

لا جدوى من الحديث معه؛ فكلما زاد تشبثي بالمنطق السليم تضاعف شعوره بالتهجم الشخصي عليه. ولكن اسمي لم يكن غريباً عن قائمة الجنود المكروهين لرقيب الفصيلة أو قائدها، ولذلك تابعت محاولة التعبير عن مخاوفي وقلقي - أمامه وأمام باقي قادة الجماعات في فصيلتي، ومعظم هؤلاء وافقوا على معظم آرائي، ولكنهم اختاروا السكوت.

تبيّن لي لاحقاً أن وليامز كان ينشر شائعة مفادها أنه لا يستطيع الاعتماد عليّ مثل قادة الجماعات الآخرين لأنني أخاف من أداء المهمات.

بدأ يكلف جماعتي بمهمات عادية ومملة، مثل توفير الحماية والأمن للعربات، كلما قمنا بدوريات مؤللة، ويترك للجماعات الأخرى أداء مهمات

حربية وقتالية أكثر إثارة، مثل مطاردة «الأشرار». بدا مثل هذا التوزيع السيئ للمهمات مجحفاً بحق الجماعات الأخرى، لكن لم أهتم بحصتنا العادلة من الأمجاد التي تتحقق، كما هو مفترض من قتل الأعداء والإغارة على البيوت.

هذه واحدة من المهمات التي كلفنا بها: عهدت إلى جماعتي مهمة توفير الأمن والحراسة للعربات، وعبرنا شمال الرمادي دون أن نلقي القبض، أو نشاهد أحداً من المشبوهين أو المتمردين. كنا على وشك العودة إلى القاعدة عندما أصدر وليامز الأمر بأن تتجه القافلة إلى مجموعة من المزارع الصغيرة المجاورة لنهر الفرات؛ ثم أمر الكل، باستثناء جماعة حراسة العربات وتأمينها، بالنزول من الشاحنات والبحث عن أسلحة في الحقول.

لم يجد الجنود سوى بضع قنابل مضيئة، وشريط رصاص قديم، وقطع من بندقية عتيقة صدئة. ومع ذلك، فإن ما عُثر عليه كان كافياً لجعل وليامز متخماً بالإثارة فعلاً، فأرسل الجماعات لتفتيش كل منزل في منطقة شاسعة يتعذر على فصيلة واحدة تغطيتها.

كنت مسؤولاً عن المدافع الرشاشة الثقيلة المنصوبة على ظهر الشاحنات، وهذا يعني أن جزءاً من مهمتي هو إطلاق المدافع لتشكيل ستار ناري للحماية إذا ما تعرضت الجماعات لهجوم مفاجئ. وعندما بدأت الجماعات تنتشر على مساحات واسعة وتتباعد الواحدة عن الأخرى، وهذا أمر محتم بسبب المنطقة الشاسعة التي يجري تفتيشها، اضطررت لزيادة المسافات بين العربات لكي يبقى الجنود في حماية المدافع الرشاشة. بدأنا نفقد قدرتنا على توفير الحماية.

«إلى كومبات 2-6، هذا كومبات 2-1»

أجاب وليامز المبتهج: «نعم، يا 2-1».

«قواتنا منتشرة على مساحة شاسعة. هل تريد مني استدعاء قوة الرد السريع لتساعدنا في تأمين المنطقة، حوّل؟».

بدا كأنه فوجئ باقتراحي: «لا. يا 2-1».

بإمكان قوة الرد السريع توفير الحماية للفصيلة بأسرها وتأمين المنطقة، ولكن حالت مشكلتان اثنتان دون استدعائها. أولاً، كمية الأسلحة التي عثر عليها لا تسوغ البحث بالحجم الذي افترضناه. ثانياً، حتى لو وجدنا مزيداً من الأسلحة والمتفجرات فعلاً، فإن استدعاء قوة الرد السريع سوف يقلص مزايا العملية وفضل إنجازها، خصوصاً عند استدعائها قبل الأوان، وعثور أفرادها على بعض الأسلحة. كره وليامز أن يتقاسم الجوائز مع الفصائل الأخرى.

تضاعف انحسار الحماية الأمنية بمرور الوقت، ومع ذلك لم نعثر على أي شيء جديد. لكن وليامز استمر في الإلحاح على إنجاز المهمة. بدأت مجموعة من الأطفال تتجمع، اثنان أو ثلاثة أولاً، ثم أربعة أو خمسة، قرب الشاحنة القديمة المتهالكة التي نركبها أنا والاختصاصي بيريز. غامر بيريز، بما اتصف به من رقة ولطف، بنطق بضع كلمات بالعربية، لكن الأطفال ضحكوا ساخرين من تشويهه الأخرق للغتهم.

أحببت عموماً ممازحة الأطفال وملاطفتهم، ولكن نطاق مسؤوليتي اتسع كثيراً هذه المرة، وركزت اهتماماً أكبر على مراقبة الأماكن المحيطة بدقة. الفرات على بعد نحو خمسمئة متر خلفنا؛ وإلى يميننا امتدت

الحقول نحو ثلاثمئة متر قبل أن تنتهي عند جدار مرتفع، ربما يمثل بداية بلدة أخرى؛ وإلى اليسار، بدا المشهد مماثلاً تقريباً، ما عدا صف من الأشجار يفصل بين الشاحنات والجدار. تبعثرت البيوت دون انتظام عبر الحقول المحيطة بنا. وامتدت الطريق أمامنا نحو مئتي متر، لتلتف إلى اليمين قبل أن تندمج بالشارع الذي تحرسه دورياتنا.

انتقل الأطفال إلى شجرة قريبة ووقفوا خلفها؛ ثمة أمر يثير الريبة، ولكني حاولت المحافظة على التركيز على المناطق المحيطة. كانت الطريق التي سلكناها للدخول إلى المنطقة سبيل الخروج الوحيد منها، أما الجدار إلى اليسار ومجموعة الأشجار إلى اليمين، فقد جعلا من المستحيل رؤية ما يحدث بعد خمسين متراً على الطريق. ربما يستعد المهاجمون للانقضاض علينا دون أن ندري.

نادى البالغون على الأطفال من وراء فتحة في الجدار إلى يسارنا. بدأ بعضهم يغادر المنطقة.

شرحت لوليامز مدى ضعف الرؤية أمامنا: «إلى كومبات 2-6، هذا كومبات 2-1. اعلمْ أننا عاجزون عن مراقبة الطريق الرئيسة بعد الساعة الثانية عشرة».

«علم يا 2-1. لماذا لا تتحرك إلى الطريق لتعرف ما يحدث؟». كان يعرف بطبيعة الحال ما يمكن أن يحدث إذا لم نوفر الحماية لسبيلنا الوحيد للخروج من المنطقة.

«لا. لا يمكن أن أفعل ذلك، وأوفر الحماية للجماعات. هل نستطيع أن نحرك الفصيلة لتتجاوز خطها قليلاً، حوّل؟». كنت أقصد بذلك ضرورة

أن يتخلى عن تفتيش بعض البيوت ويحرّك الفصيلة لتصبح أقرب إلى الطريق الرئيسة. بهذه الطريقة، يمكن تحريك العربات، وتوفير الحماية للجماعات، ومراقبة المخرج في الوقت ذاته.

«لا يا 2-1. ما زلنا نفتش البيوت هناك».

من الواضح أن وليامز لم يشعر بالقلق جراء الافتقار إلى توفير الأمن والحماية.

ساد المنطقة هدوء مقلق، وبين الحين والآخر، يظهر فتى وينظر إلينا من بين صف الأشجار على الطريق الرئيسة. أدركت أن غياب أصوات الأطفال وضحكاتهم هو الذي سبب هذا الصمت المنذر بالشؤم. انتقلوا كلهم من خلف الشجرة، وبدؤوا مراقبتنا الآن، بهدوء وانتباه، من وراء الجدار.

«إلى كومبات 2-6، هذا كومبات 2-1، اعلم أن الكل غادروا المنطقة. ثمة شيء ما على الطريق الرئيسة وراء الأشجار. حوّل».

أجاب وليامز، بنبرة ساخطة: «علم، تابع المراقبة يا 2-1».

عرفت أنني دفعت وليامز إلى حدود صبره القصوى، وقلقت من أن ذلك يعزز رأيه بأني أبالغ في التشدد في إجراءات الحماية والحراسة. وشعرت في أعماقي بجرح غائر أصاب كبريائي نتيجة وصفي بـ«قائد الجماعة المذعور»، ولم أرغب في أن تعد الفصيلةُ الجماعةَ الأولى حفنةً من الجبناء. ولكن الموقف توافق مع النمط المعروف بأنه يفضي إلى الخطر والمتاعب. وجدنا في مكانٍ له مخرج واحد، ولم نتمكن من رؤيته: جماعاتنا

متفرقة ومبعثرة على مساحة واسعة، وأمننا معرض لخطر محدق، وبقينا في مكان واحد مدة أطول مما يجب، دون أن نطلب المساندة والدعم.

قلت بعد تفكير: «علم». عرفت بعدم وجود ما يمكن أن أقوله ليغير مسار الأمور في ذلك الوقت، باستثناء إضعاف موقفي بصفتي قائد جماعة. الطريقة الفُضلى هي السكوت، ولكن صعب علي ذلك.

«... أظن أننا على وشك التعرض لهجوم. نحن بحاجة إلى الانسحاب».

أتى الجواب الغاضب عبر جهاز الإرسال: «اخرس أيها السافل. عليك فقط أن تفعل ما آمرك به».

عند تلك اللحظة شعرت أنني عاجز تماماً - عجز يملأ القلب عندما يتبين لك أن أمراً رهيباً يوشك أن يحدث ولا تستطيع أن تفعل شيئاً إزاءه. كنت على يقين بأن الفصيلة حين تتطلع على ما عرفت، سوف تقدر حجم الخطر الذي نواجهه. ولكن لم تتوافر طريقة لإبلاغ الجنود بالوضع العام، حيث كانوا يركزون انتباههم على المهمات الموكولة إليهم آنذاك، سواء أكانت حراسة زاوية شارع، أو تفتيش خزانة داخل منزل. وحتى إن استطعت تحذيرهم، فسيكون من المستحيل التوصل إلى موافقة عامة على رفض أمر يعرّض حياتهم للخطر دون داع. كنت وحيداً دون معين.

في نهاية المطاف، أصدر وليامز أمره بتهيئة الشاحنات لنركبها، وهو أمر لم يكن له معنى لأننا بدأنا التوجه نحو المخرج ودخلنا شارعاً ضيقاً. ولكني توقفت عن مساءلة وليامز في ذلك اليوم. وعرفت أنه لن يصغي إلى كلمة إضافية مني. واكتفيت بطاعة الأوامر دون أي اعتراض.

سأل الاختصاصي مادسن هامساً: «لماذا نحتجز هؤلاء؟».

نظرت إلى الوراء، ورأيت أفراد الجماعة الثالثة يجلبون ثلاثة رجال غطيت رؤوسهم وكبلت أيديهم بقيود بلاستيكية. عرفت أنهم وجدوا بضع قنابل مضيئة وعدداً من الطلقات، ولكن ذلك لا يعد سبباً لاحتجاز أي شخص، فضلاً على أنها وجدت في وسط حقل، لا في منزل محدد. لا بد من وجود سبب آخر لم أعرفه. ربما وجدوا بعض الأسلحة الحقيقية: قذائف هاون، أو مواد لصنع العبوات الناسفة المحلية. سألت قائد الجماعة الثانية: لماذا نجلب هؤلاء؟

أجاب وهو يرفع حاجبيه ويومئ رأسه: «لا أعرف. الرقيب وليامز هو الذي طلب احتجازهم».

آنذاك، ظهر وليامز خلفنا، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. استطعت سماعه وهو يحدد للقيادة موقع «الغارة»، وهذا مطلوب منّا كلما وجدنا شيئاً أو احتجزنا شخصاً. نظر إلي وإلى مانتيلا سعيداً مسروراً. حسبت أنه سيوبخني بعد ما جرى بيننا على اللاسلكي، ولكن بدا أن كل شيء طبيعي وكالمعتاد.

سأل مانتيلا: «مرحباً وليامز، لماذا احتجزنا هؤلاء؟».

«بسبب ما وجدناه في الحقل».

تابع مانتيلا: «تقصد شريط الذخيرة والقنابل المضيئة؟».

أجاب وليامز محاولاً أن يبدو واثقاً: «صحيح. حتى إذا لم تكن المواد لهم، صدقني بأنهم يعرفون أصحابها».

لم أقل شيئاً.

حين كنا نغادر المكان باتجاه الطريق الرئيسة، توقفت فجأة العربة التي يركبها وليامز. مما يحسب لوليامز أنه يتقدم جنوده في الميدان على الدوام، وذلك خلافاً للقادة الآخرين في وحدتنا. ولم تكن هذه المرة استثناء. ثمة شيء مُلقى على جانب الطريق، وخرج الرقيب ماشياس من شاحنته للتحقق منه. تبين أنه قذيفة هاون وُضعت على بعد نحو عشرين متراً من مكان توقف القافلة. لا بد أن أحداً أعد كميناً بعبوة ناسفة محلية الصنع لتفجير إحدى عرباتنا في طريق العودة.

لم يكن ماشياس، جندي المشاة، مؤهلاً لتفكيك قذيفة الهاون، مع ذلك أبدى شجاعة كبيرة، وحمل المتفجرة بين يديه كأنها طفل رضيع. بعد ذلك التوقف المفاجئ، تابعنا طريقنا عائدين إلى عش النسر ونحن أكثر حرصاً وحذراً وتحسباً للتعرض لهجوم في أي لحظة.

الأمور في الجيش تسير على نحو مختلف تماماً عنها في العالم الخارجي، حيث توجد طريقة ناجحة وأخرى فاشلة لأداء معظم المهمات. في الجيش، هنالك طريقته الخاصة به فقط. لم نتعرض للهجوم في هذه المهمة، بالرغم من شعوري بوجود مبرر يسوغ التعبير عن مخاوفي. وبإمكان وليامز الزعم أنه محق في تجاهلها. لم ينطق أحد بكلمة عن الحادث، لكن عرف الكل أنني اشتكيت من فقدان الأمن وطلبت مغادرة المنطقة. ومن وجهة نظر الجيش، بالغت في ردة الفعل.

ولكن لم تنحصر المشكلة في إجراءاتنا التي أقلقتني. فالمهمة بحد ذاتها مثلت نموذجاً لأخطاء أنشطتنا في الرمادي. لقد خرجنا لاعتقال أبرياء لم يرتكبوا إثماً على أرجح الاحتمالات. والسبب ببساطة، كما بدا لي،

أن وليامز لم يقبل أن يعود خاوي الوفاض إلى القاعدة. الأمر كله يتعلق بكبريائه وغروره لا بالوضع الميداني على الأرض. ساورني إحساس سيئ إزاء ما جرى، ولكن لم يلحق بنا أي أذي، فشعرت بارتياح كبير ذلك اليوم.

لم يبق عمل الجماعة الأولى مقتصراً على توفير الحراسة للعربات وتأمين حمايتها مدة طويلة. كانت المهمة سهلة، على الأقل مقارنة بالإغارة على المنازل وعمليات التطويق والتفتيش، كما أرادت الجماعات حصتها. عرف وليامز ذلك، وإذا تمكن من التعامل مع تعليقاتي التي تعبر أحياناً عن التمرد والعصيان، فسيجد تحت إمرته جماعة مشاة تتمتع بالمقدرة والكفاءة. سرعان ما عدنا إلى أداء الواجبات التي يؤديها أفراد الفصيلة كلهم.

وضعني كلامي على الدوام في الجانب الخطأ وفي صف المخطئين، ولكن ذلك لم ينتج دوماً عن الشكوى من الإجراءات المتبعة (أو من غيابها)، فيما يتعلق بسلامة جنود وحدتي وراحتهم واحتياجاتهم. تناولت أحياناً أخلاقية ما كنا نفعله، خصوصاً سوء معاملتنا للعراقيين. وإثارة هذه القضية كانت أشد صعوبة. شعرت عموماً بالحرج من الانضمام علناً إلى صف العراقيين والدفاع عنهم. فمعظم الجنود ينظرون إليهم —كلهم دون استثناء— بعين الشك والريبة. وعرفت دون لبس أن انحيازي إلى صفهم يُعد ليناً وتساهلاً وسذاجة، وهو موقف غير مرغوب، مثله مثل الجبن تماماً. حاولت مراوغة هذا الأمر عبر اللجوء إلى إستراتيجية «كسب قلوب وعقول» السكان المحليين باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من المهمة. لكن ذلك لم ينجح إلا في مناسبات نادرة.

أتذكر استخدام هذه الحجة في محاولة تغيير الطريقة التي نتبعها في الرد على بيع الوقود بصورة غير شرعية في البلدة. فلأن طوابير الناس المحتشدين أمام محطتَيْ بيع الوقود كانت هائلة، وبسبب تخفيض حصة الفرد من الوقود بصورة حادة، نشأت سوق سوداء مزدهرة لشراء البنزين وبيعه. كان معظم الذين مارسوا هذه التجارة من الأطفال، حيث استخدموا براميل معدنية أو حاويات بلاستيكية بحجم خمسة غالونات للتخزين، ثم البيع.

حظر بيع الوقود في هذه الحاويات، ولكن ثبت أن من الصعب إيقاف هذا النشاط بمجرد إصدار الأوامر والاعتقالات العشوائية. ثم اتبعت أشد الإجراءات صرامة وقسوة، وسرعان ما بدأنا نطلق النار على البراميل والعبوات، حتى إن كانت وسط المناطق التي تكتظ بحركة المرور أو في الأحياء السكنية. وخلافاً لما يحدث في الأفلام السينمائية، لم يسبب إطلاق الرصاص انفجارها في الهواء، بل أحدث ثقوباً يتدفق عبرها الوقود، ثم يرمي الجنود قنابل حارقة على برك الوقود فتشتعل. وعدّ معظم الجنود ذلك لعبة مسلية.

بدا لي الأسلوب مذلاً ومهيناً ويلهب غضب العراقيين - جيش أجنبي يحرق عبوات الوقود حيثما وجدت، وهي منتشرة في كل مكان في الرمادي تقريباً. لكن في المناسبات القليلة التي اعترضت فيها، غرق الاعتراض في بحر الغضب السائد بين الجنود.

كان الجواب المعياري: «يجب أن يعلم هؤلاء الأنذال من هو الرئيس هنا». أو: «من الممتع إصابة هذه العبوات وإحراقها. من يهتم بأولاد الزنى هؤلاء. يجب أن ندمر البلد بأسره».

لم أكن الوحيد في الجماعة الأولى الذي حاول أن يحد من عنف تيار العداء العنصري. فقد عمل الرقيب روزادو باستمرار على حماية السكان المحليين، وخاصة الأطفال. في إحدى المهمات، في الساعة الرابعة فجراً، تريث روزادو في منزل اقتحمناه للتو. قلقت أول الأمر وانزعجت لأنه يعيق البقية، ولكن لم أقل شيئاً وأنا أراقبه يقترب من مجموعة من النساء والأطفال الذين حشرناهم عند زاوية إحدى الغرف، بينما نفتش بقية المنزل.

اكتشف روزادو طفلة مصابة بحروق خطيرة في ذراعها. ومع أن الرضيعة، التي لم يتجاوز عمرها ثمانية عشر شهراً، نامت بأمان وهدوء بين ذراعي أمها، إلا أن الجرح الغائر في جلدها بدا وحشياً ومؤلماً لعين الناظر. وضح أن النساء لم يكن لديهن مراهم أو أدوية لمعالجة الجراح النازفة. ولسوء الحظ، لم يكن لدينا نحن أيضاً الأدوية الطبية اللازمة، ولكن روزادو، الذي تمتع بقدرة غير عادية على التواصل مع الناس بغض النظر عن اللغة، تمكن بجهده من معاينة الطفلة والسؤال عن حالتها الصحية. ورأيت أنه ترك انطباعاً جيداً لدى الأسرة الخائفة والصامتة.

في مناسبة أخرى، عندما وفرت جماعتنا الحماية والأمن لبوابات أكبر مستشفى في الرمادي، صادفنا شاباً بدا أنه أصيب بجرح سكين عريض النصل، امتد من إبهام وسبابة اليد اليمنى إلى المرفق. أغلق الجرح بقطب كبيرة وبدائية تقطعت على ما بدا، ولم يكن لدى المسكين رباط أو مرهم لتغطية الجرح. بحث روزادو في كيس الإسعافات الأولية ووجد بعض المضادات الحيوية والشاش، ثم قدمها للشاب.

كانت مثل هذه الأعمال المعبّرة عن التعاطف والرحمة والإنسانية قليلة ومتباعدة، وحاولنا دائماً إظهارها بوصفها جزءاً من إستراتيجية كسب القلوب والعقول. في بعض الأحيان، حاولنا أن نبقيها سراً. ذات مرة، بعد أن دمّرنا منزلاً في أثناء غارة لم نعثر فيها على أي سلاح، انتظرت خروج الجنود من المنطقة قبل أن أقدّم لإحدى سيدات المنزل ورقة من فئة عشرين دولاراً. ولكن هذا التحفظ والسرية لم يمنعا وصف الجماعة من قبل بقية الفصيلة بأنها «الجماعة الإنسانية». ومثّل اللقب، وهو وصمة عار في الحقيقة، مصدراً دائماً للتهكم والسخرية. إذ لم ينظر إلى المشاعر الإنسانية، في عالم وحدة المشاة في الرمادي التي مزقتها الحرب، نظرة تقدير واحترام.

في معظم الأحيان، كنا، أنا وروزادو، نعبر عن مشاعر الرحمة والتعاطف بصورة منفصلة، وأدرك كل واحد ما يفعله الآخر، ولكن الإحراج منعنا من تقديم المساعدة، أو حتى الاعتراف بها علناً. لم أكن فخوراً بذلك، لأني عرفت صعوبة العمل منفرداً.

في إحدى المناسبات أخفقت في مساندة روزادو، مع علمي بأنه مصيب، وعجزت عن مغالبة الخشية من السخرية والاستهزاء، وذلك عندما حاول حماية صبي عراقي كان يرمي الحجارة على جماعتنا في أثناء الدورية. كان النهار حاراً وركبنا في مؤخرة الشاحنة التي سارت في الاتجاه المعاكس من الطريق في محاولة لتفادي احتمال هجوم بالقنابل. لم تكن منطقة العمليات تعدّ معادية بشكل خاص، ولكننا أدركنا أن هجمات المتمردين كثيراً ما تحدث في الأماكن أو الأوقات التي قلّما توقعناها. لا يمكن الحديث عن خط جبهة أمامي في العراق؛ لأن العبوة الناسفة تنتظر هدفها عند

زاوية أي شارع، في كيس، أو صندوق، أو حاوية قمامة، أو بطن حيوان نافق. كل شيء مباح في الأرض الخاضعة للاحتلال.

في بعض الأحيان، يقرر قائد الفصيلة ورقيب الفصيلة مرافقتها في هذه المهمات. ومن المفترض أن يسهّل ذلك نظرياً تدريب قادة الجماعات، ولكنه عنى عملياً أنهما يتخذان القرارات الرئيسة كلها ويضعفان سلطتنا، وعنى أيضاً أن تؤدي الجماعة الواجب وفقاً للتعليمات والقواعد الصارمة. وهذا يحول دون التوقف عند المتاجر المحلية لشراء النراجيل، أو زجاجات الصودا، أو قطع الثلج بأسعار أرخص من تلك المتوافرة في المتاجر داخل القاعدة، التي افتتحها مترجم مراوغ محتال وظفه النقيب وارفل. كان يبيع كل شيء، من عصير البرتقال إلى الحراب الروسية والأفلام العربية الإباحية، ولكننا فضلنا الشراء من خارج القاعدة، حيث نحصل على أسعار أرخص وأنواع أفضل من المشروبات الكحولية الشائعة في الشرق الأوسط. ذلك كله لم يكن متاحاً في هذه المناسبة حين قرر ويليامز الانضمام إلى الدورية.

ومع انعدام إمكانية التوقف للترفيه والراحة، كرّسنا جهدنا لمراقبة كل زاوية من حي الطبقة الوسطى الذي نسير في شوارعه وعلى أرصفته. كانت المنازل كلها مختبئة خلف جدرانٍ عالية، لونها بلون الرمل، تجعل من المستحيل رؤية ما الذي يحدث في الداخل. هذا الطراز من البناء هو الذي أقلقني في أثناء دورياتنا الليلية العبثية في مركز مدينة الرمادي؛ فبمقدور أيّ شخص إلقاء قنبلة، أو رميها من وراء أحد الجدران، ثم إطلاق النار علينا من أسطح المباني. لم يوجد أيّ مكان للهرب، أو للاحتماء، لا خندق ولا حفرة، بل مجرد طرق طويلة تراقبنا جدرانها العالية بازدراء.

أثارت حرارة الجو التي لا تطاق أعصابنا جميعاً. في حين أزعجت الجنود في مؤخرة الطابور عصبة من الصبية لاحقتنا، وهذا أمر شائع في أثناء دورياتنا. ادّعى وليامز أنه أُصيب بحجر رماه أحد الأطفال. وكان من الشائع أن يقذفنا الأطفال بكل ما في متناول أيديهم. تذكرت في أثناء أول دورية لي في المدينة أن صبياً قذفني بحبة طماطم عفنة، فانفجرت فوق القنبلة اليدوية المعلقة على حزامي وعلى كيس البوصلة.

في كل مرة توقفنا فيها وواجهنا الصبية، ركضوا هاربين بأقصى سرعة، تاركين خلفهم صدى ضحكاتهم الخبيثة. كانوا يلعبون لعبة خطرة. وبعد الاحتجاج الذي تحوّل إلى أعمال شغب وعنف عند مقر رئيس البلدية، عندما صدرت التعليمات بأن نطلق النار على كل من يرمي أيّ شيء نحونا، حتى الأطفال، سمعنا أن جنوداً من الوحدات الأخرى أطلقوا النار أكثر من مرة على أطفال قذفوهم بالحجارة.

ارتحت للاعتقاد بأننا لم ننحدر إلى هذا الدرك، وأننا نثمن عالياً القيمة السامية للحياة الإنسانية، خصوصاً حياة الأطفال. ولكن الحرارة اللاهبة أزعجتنا فعلاً وأثرت في تصرفاتنا. كان عرقنا صبيباً، والملح المتراكم من العرق المتبخر حرق جلودنا، خصوصاً أعناقنا العارية.

قررنا أخذ استراحة قصيرة في منزلٍ على الهيكل تقريباً، والاستمتاع بالظل الرطيب تحت سقفه. ساعة الاختصاصي فونيز أظهرت درجة الحرارة، وأكد أنها بلغت 48° مئوية في الظل و 60° تحت أشعة الشمس. الماء في المطرات يغلي ولا يمكن شربه. أنهكنا التعب، وبقينا في لباس الميدان الكامل، ما عدا وليامز، الذي بدأ بخلع سترته الواقية وإلقاء ذخيرته على الأرض.

قال، وهو يخلع سترته: «سوف ألقن هؤلاء الصبية درساً»، وأضاف وهو يشير إلى جماعة من الأطفال الحفاة: «خصوصاً ذاك الذي يلبس قميصاً أحمر. فهو من قذفني بالحجارة».

خلع وليامز الأحمال الإضافية كلها، ولم يبق على بدنه سوى بزّته العسكرية، فتخلص من قرابة عشرين كيلو غراماً. كان رياضياً مفتول العضلات، مثلما أظهر حين انطلق فجأة وراء جماعة الأطفال، الذين سرعان ما تفرقوا في الشوارع الجانبية.

قال روزادو:« لا أستطيع أن أصدّق أنه يفعل هذا؟».

في بضع لحظات قبض وليامز على الصبي صاحب القميص الأحمر، وجره مسافة خمسين متراً، عائداً به إلى حيث كنّا نستريح. لم يكن عمره يزيد عن ثماني سنوات، وبكى بحرقة وهو يحاول أن يتخلص من قبضة وليامز القوية.

قال غاليغوس وهو يشير بأصبعه إلى الصبي مكشراً: «آها. إذاً تحب قذفنا بالحجارة، أليس كذلك؟».

في نوبة البكاء نطق الصبي بضع كلمات إنكليزية يعرفها. صاح ناحباً: «لا يا سيدي لست علي بابا».

تلك عبارة استخدمها كل عراقي في الرمادي إذا أراد إنكار ارتكابه خطأ يستوجب الاعتقال، ونجحت في بعض المناسبات النادرة. ولكن وليامز لم يقبل بها ذلك اليوم.

سأله الرقيب روزادو والقلق على الصبي ظاهر عليه: «ماذا تنوي أن تفعل به أيها الرقيب وليامز؟».

أجابه وليامز، وهو يعيد التجهز بالمعدات الإضافية: «سوف آخذ ابن العاهرة الصغير إلى القاعدة وأحبسه. هذه هي الطريقة الوحيدة لجعل هؤلاء يتعلمون عدم قذفنا بالحجارة».

ثمة شيء من المنطق في فكرة وليامز حول جعل الصبي عبرة لغيره؛ بدا السرور واضحاً على معظم أفراد الجماعة وعدوا الحادثة مسلية. كان روزادو الوحيد الذي قال شيئاً من بين الذين لم يغرقوا في الضحك.

قال: «ولكنه حافي القدمين أيها الرقيب». أثارت الملاحظة موجة من الضحك.

تابع وليامز كلامه: «لا يهمني. سآخذ الصبي معنا».

تجمع الأطفال مرة أخرى على مسافة منّا، وتركزت أبصارهم علينا، وتساءلوا عما سيحدث لصديقهم. مما لاحظته على العراقيين طريقة تجمعهم وتماسكهم معاً. فالذين احتجزناهم في أثناء إقامة نقاط التفتيش، سرعان ما انخرطوا في أحاديث ودية كأنهم أفراد أسرة واحدة، أو أصدقاء من عهد الطفولة، ولم يكن أحدهم يعرف الآخر. لم يكن هؤلاء الصبية مختلفين عنهم. فقد ازداد عدد الجماعة الصغيرة باطراد، حيث انضم إليها بعض الأحداث والمراهقين الغاضبين، وحتى البالغين.

سأل روزادو دون أن يكترث لضحكات الجنود: «هل أنت جاد في اعتقال هذا الصبي؟».

أجاب قائد الفصيلة وهو يقبض عليه: «أجل، أنا جاد. دعونا نذهب».

بدأ رجلٌ كهل يصيح علينا من بوابة أحد المنازل، ولكن وليامز تجاهله.

قال روزادو عندما قسمنا الجماعة إلى رتلين، لكي نخرج بأسلوب تكتيكي: «هذا سخف يا رجل. المسافة طويلة على الصبي ليقطعها حافياً».

تابع وليامز التحرك، وهو يدفع الصبي المنتحب أمامه. من يعرف ماذا يدور في عقل هذا الصبي الصغير؟ بدا واضحاً أن الهلع يتملك كيانه. لاحق الأطفال الآخرون الجماعة بحذر، ونزل الرجل على درجات منزله لينضم إليهم.

قال حين أصبح على بعد نحو عشرة أمتار خلفنا: «يا سيد، يا سيد، رجاءً! إنه طفل، يا سيد، إنه طفل»، وأشار إلى قدمي الصبي الصغيرتين.

قال روزادو: «أيها الرقيب وليامز، هذا والد الصبي. أنا واثق أنه تعلم الدرس».

قال وليامز، الذي لاحظت ازدياد استخدامه للغة البذيئة: «لا، لا». ثم التفت إلى الرجل: «هل أنت والده؟».

أجاب الرجل: «لا، لا»، حاول قول المزيد لكن لم يستطع العثور على الكلمات الإنكليزية المطلوبة. أشار إلى المنزل الذي أتى منه، ثم إلى مجموعة الأطفال. بدا أنه يعرف أنهم من الحي، ولا يريد أن يؤخذ أحدٌ منهم.

قال وليامز وهو يشير إلى الصبي: «هذا الولد قذفني بحجر». نطق كل كلمة مع ترجمتها البصرية: «سوف أعتقله»، وأشار إلى يدي الطفل المكبلتين بقيود بلاستيكية.

توسّل الرجل، وقد فهم ما قاله وليامز: «لا، لا، يا سيد، أنا، أنا».

سأله وليامز: «أنت؟ ماذا أنت؟ ماذا ستفعل؟».

رفع الرجل يديه إلى مستوى عينيه، وفرد أصابعه، وفتح فمه، لكنه عجز عن الكلام. لم نفهم ما حاول قوله. ازداد عدد الحشد.

قال قائد الفصيلة: «دعك من هذا السخف. سنغادر».

ولكن قبل أن نتحرك، تقدم الرجل من الصبي ووجّه صفعة قوية إلى وجهه المغسول بالدموع. تأوّه الصبي دون أن يقول شيئاً.

قال روزادو وهو ينظر إلى وليامز: «انظر أيها الرقيب. دع الرجل يهتم به؛ دع الصبي يذهب».

فكر وليامز لحظة. توقف الكل عن الضحك. فكّرت: دعه يذهب، يا وليامز، دع الصبي يذهب. كنت طوال الوقت أؤيد روزادو، ولكن لذت بالصمت. حدّق الرجل في وليامز وتعابير اليأس مطبوعة على وجهه. الصبي يبكي الآن بصمت دون أن ينظر إلى أي من الرجلين.

صدر الحكم النهائي: «لا».

تمتم روزادو: «يا رجل، هذا سخف وهراء». لم ينطق أحد بكلمة.

وجّه الرجل صفعة شديدة أخرى إلى رأس الصبي، ثم ثالثة بقبضته هذه المرة. لكن وليامز لم يتأثر على ما يبدو.

قال روزادو: «رقيب وليامز، دعه يذهب يا رجل، دع الصبي يذهب». بدا أنه يتحدث إلى نفسه، لا من أجل الصبي.

قال قائد الفصيلة بعناد: «لا لن أقبل».

بدأ الرجل الآن توجيه الصفعات القوية والركلات العنيفة إلى الطفل. ومع أنه صرخ وصاح، إلا أنه لم يرفع بصره إلى المعتدي، الذي بدا أشد تأثراً بالألم منه وهو يضربه. بحلول ذلك الوقت، احتشد سكان الحي كلهم، ووقفوا صامتين وهم يشاهدون الصفعات والركلات تنهال على الصبي. حتى الجنود الذين ضحكوا على روزادو، لاذوا الآن بالصمت.

توقف الصبي عن البكاء، ولكن الرجل ذرف دمعاً غزيراً حين حاول التوسل إلى قائدنا.

قال متضرعاً: «أرجوك، يا سيد».

فكر ويليامز لحظة.

أخيراً أجاب قائلاً: «حسناً، اهدأ». استل من جيبه سكيناً، وقطع قيود الصبي. «يمكنك أن تأخذه».

غادرنا المنطقة وأقمنا نقطة تفتيش وسيطرة على المرور لبعض الوقت قبل أن نعود إلى القاعدة. لم يتحدث أحد قط عن الحادث، ولكن عندما عدت إلى التفكير فيه تذكرت كم أراد قلبي المحزون الوقوف إلى جانب روزادو. لكنني اخترت التزام الصمت، وابتلاع حنقي الأخلاقي، وتركه وحيداً في معركة ما كان ينبغي أن يخوضها وحده.

وجدت العزاء والسلوان عندما عدت في دورية إلى الحي نفسه بعد أسبوع: لم يتوقف الأطفال عن رمي الحجارة فقط، بل توقفوا عن ملاحقتنا أيضاً. ربما أنقذ ما فعله ويليامز حياة بعض من أولئك الأطفال، وحماهم من القتل لسبب تافه مثل رمي حجر على دورية مشاة.

الحقيقة كما أراها الآن هي أن السيئ في الحرب يقارن بالأسوأ، وهذا، بدوره، يجعل الكثير من الأعمال المنكرة والمؤسفة تبدو مقبولة. وعندما يحدث ذلك، يبدأ الخط الوهمي الفاصل بين الصواب والخطأ يبهت ويتلاشى في ضباب كثيف، إلى أن يختفي كلياً، وتوزن القرارات بميزان قيم فاسدة ومغلوطة. في ذلك اليوم أخطأت بعدم الإصغاء إلى دعوة حكمي المنطقي والأخلاقي الأكثر صواباً على الأمور. وبتجاهل ذلك الحكم، لم أكن أخون مبادئي فقط، بل أضعفت موقف الشخص الوحيد الذي أتخذه إلى جانب الحق والصواب والعدل.



سابعاً

في منتصف شهر حزيران (يونيو) 2003، بعد نحو أربعة أسابيع من بدء عمليات سرية تشارلي في الرمادي، كلفت الفصيلة الثانية بمساندة وحدة هندسة من فوج الفرسان الثالث المدرع في أثناء «عملية عقرب البندقية». أما الغرض من هذه العملية واسمها السخيف فهو منح العراقيين فرصة تسليم أسلحتهم –شخصياً– في نقاط تجمع أقامها الجيش الأمريكي، حيث تقايض كل قطعة سلاح بمبلغ مالي يدفع بالدولارات الأمريكية. شملت العملية أيضاً عدداً من الغارات تشنها وحدات المشاة والهندسة على مخازن الأسلحة المشبوهة وملاجئ المتمردين الآمنة في سائر أنحاء المدينة. وسوف تنتقل فصيلة هندسة من فوج الفرسان الثالث المدرع إلى عش النسر لتوفر المساندة لسرية تشارلي في أثناء العملية، التي تستمر أسبوعين اثنين كما كان متوقعاً. وبالمقابل، سوف تنتقل الفصيلة الثانية إلى الفوج لمدة أسبوعين أيضاً.

في البداية، بدت احتمالات انضمام هذه الوحدة واعدة. فقد تمتع فوج الفرسان المدرع الثالث بالمزايا المقدمة لمعظم الجنود العاملين (المحترفين)

في العراق، ومنها غرف مكيفة الهواء، ورحلات إلى بغداد لحضور الحفلات الموسيقية، وسهولة الوصول إلى المتاجر والمخازن العسكرية. ولكن الأهم - باعتقادي - أن العمل مع الفوج الثالث المدرع يوفر حماية المصفحات في أثناء الدوريات مع المهندسين. سرعان ما خابت آمالنا: الغرف المكيفة لم تعد متوافرة، والحفلات الموسيقية وزيارة المتاجر العسكرية اقتصرت على أفراد الفوج الثالث دون سواهم، ومع أننا قمنا أحياناً بأعمال الدورية في عربات مصفحة، إلا أننا عند الوصول إلى الوجهة المقصودة، كنا ننزل من المصفحات ونقوم بدوريات راجلة. فرض علينا أداء الواجبات ذاتها التي كنا نؤديها في عش النسر، وأضيف إليها الآن حراسة قاعدة المهندسين، فضلاً على شن الغارات بالتعاون مع الفوج الثالث.

كنا مسؤولين أيضاً عن حراسة المصرف المحلي. ومن أجل هذه المهمة قسمنا الجماعة إلى قسمين، يناوب أحدهما في النهار لحماية الصرافين والمدير في أثناء الدوام، ويوفر الآخر الغطاء لرجال الشرطة العراقيين الذين يحرسون المصرف في الليل. التحقت بفريق برافو الذي يتولى المناوبة الليلية. رجال الشرطة هناك كانوا بملابس مدنية مثل مجموعة أصدقاء يتجولون في المكان لا قوة شرطية. عندما وصلنا إلى المصرف أول مرة، في وقت متأخر من أصيل أحد الأيام، ذهب الضابط المسؤول عن العراقيين إلى المطبخ ليحضر صندوقاً كبيراً متخماً بالطعام، والبيض المقلي بالطماطم وبعض التوابل التي لم أحاول حتى معرفة أسمائها. كان الطعام، الذي يؤكل مع أرغفة خبز ساخنة ملفوفة بقماش أبيض، شهياً لذيذ الطعم. واختتمت الوليمة بأكواب الشاي الأسود المحلى والسجائر.

كانت رغبة رجال الشرطة العراقيين في مشاركتنا طعامهم محل إعجاب وتقدير وامتنان، ولكنها لم تمثل مفاجأة بالنسبة لي. فقد سبق أن تعرفت في العديد من المناسبات على كرم الضيافة الرائع لدى العراقيين، وفهمت أنه جزء أساسي من الثقافة العربية، الذي يشمل حتى المحتلين.

في الأردن، خبرت للمرة الأولى ما يتمتع به العرب من لطف وكياسة وطيبة، حين أتى إلى موقعنا كل ليلة جنود من الجيش الأردني لنتشارك معهم احتساء الشاي ونتجاذب أطراف الحديث عن الثقافتين العربية والأمريكية. واعتدنا الجلوس حول النار التي أشعلوها لنشعر بالدفء في أمسيات عمان الشتائية القارصة. أتذكر باندهاش كيف كانوا يصبون الشاي من الإبريق العتيق الساخن بأيديهم العارية.

معظم الضباط الأردنيين يتحدثون الإنكليزية، التي تعلموها في الكلية وفي أثناء التدريب المشترك مع وحدات العمليات الخاصة البريطانية والأميركية. وبدا أنهم غير معنيين بأخلاقية غزو الولايات المتحدة لجارتهم العراق. فقد احتفظوا بولائهم الوحيد لمليكهم، ونظروا إليه بمشاعر امتزج فيها الحب والخوف في آن.

لكن في بعض المناسبات، لم أكن متيقناً من حقيقة هذا الكرم تجاهنا: هل كان أصيلاً أم محاولة من جانب العراقيين لخطب ودنا وتأمين التحالف معنا. ففي بعض الأحيان، بدا أن حسن الضيافة يتجاوز حدود اللطف والطيبة. على سبيل المثال، حين بدأنا في إحدى المناسبات تفتيش منزل كبير يقع في أكثر أحياء الرمادي ثراء، عرض صاحب البيت دعوة الفصيلة بأسرها على العشاء، كما دعانا إلى الإقامة في منزله مع أفراد

العائلة. وسمعنا بصورة منتظمة عن دعوات مماثلة وجهت إلى جنود آخرين في كتيبتنا. بل قيل إن جماعة من سرية ألفا قبلت دعوة كهذه، وأقامت مدة أسبوع في منزل خرافي مترف.

ما يتمتع به العراقيون من مودة قربني من أحدهم بوجه خاص. كان يعمل مديراً لمحطة لبيع الغاز تقع إلى الغرب من قاعدتنا، حيث كانت مختلف جماعات السرية تتولى بالتناوب حراستها مدة أربع وعشرين ساعة في اليوم. مثلت حراسة المحطة مهمة مرغوبة لكثير من جنود وحدتي، لأن العاملين في المحطة يمكن أن يساعدونا في الحصول على المأكولات والمشروبات والثلج من متاجر المدينة. بل إن جماعتنا ابتاعت جهاز تلفزيون من هناك. كان بمقدورنا أيضاً استخدام الهاتف للاتصال عبر الأقمار الصناعية بأهلنا في الولايات المتحدة مقابل دولارين اثنين عن كل دقيقة.

هناك، أدمنت على وجبة شائعة مكونة من الباذنجان والطماطم مع الرز أو الخبز، وهي مثالية لنباتي مثلي. من الأطباق الأخرى المفضلة لدى الجنود «الشيش كباب»، والدجاج المشوي مع أرغفة الخبز الطازج - وهذه كلها يمكن شراؤها بواسطة العاملين في المحطة.

لكن أكثر ما أمتعني في المحطة رفقة مديرها، محمد. كان محمد طويل القامة، فاتح البشرة، له لحية مشذبة. تعلم اللغة الإنكليزية في الجامعة، حيث درس الجيولوجيا؛ تبادلنا بانتظام أحاديث مطولة، ناقشنا ذات مرة القرآن الكريم، الكتاب الذي لا أعرف عنه شيئاً. شرح محمد أن قراءة القرآن مباحة لغير المسلمين، لكن لا يمسه إلا المطهرون.

قال: «في الواقع يجب أن تغتسل قبل أن تمس القرآن الكريم. ولكن تستطيع الآن الاكتفاء بغسل اليدين نظراً للظروف الراهنة».

سألته: «أليس من الحرام أن تشارك مسيحياً قراءة القرآن؟».

أجاب، وهو يبتسم ابتسامة لطيفة صادقة: «بل حرام ألا أشاركك فيه. فمن واجبنا، نحن المسلمين، نشر القرآن في العالمين. وكلما سنحت الفرصة، يجب على المسلم الحقيقي نشر كلمة الله؛ وإلا فإنه لا يقوم بواجبه. وطالما بقي الناس على استعداد للإصغاء، يجب أن يكون المسلم مستعداً دائما للحديث والدعوة».

بدأت مع هذا الحوار علاقة أعتز بها إلى اليوم، مع أنني الآن فقدت الاتصال بمحمد. بقيت كثير من الأفكار التي تعلمتها من حواراتنا في محطة الغاز عالقة في ذهني ونفسي. هناك، اكتشفت أن المسلمين يكنون احتراماً عميقاً ليسوع المسيح بوصفه نبياً مرسلاً. أما مريم العذراء فلا تحظى بالتقدير والاحترام فقط، بل تعدّ نموذجاً يحتذى مثاله للسلوك والعبادة، تحرص المسلمات على محاكاته.

كان محمد مسلماً سنياً انتسب إلى حزب البعث في عهد صدام.

شرح لي ذات يوم ونحن نحتسي الشاي في مكتبه: «لم أتفق قط مع صدام، ولكن لم أجد خياراً آخر، خصوصاً وأنني جيولوجي؛ ولا مفر من العمل في الحكومة».

مع أن معظم الطعام في الرمادي يطبخ على الحطب، إلا أن مواقد (أفران) الغاز كانت شائعة أيضاً. وكان هذا يعني لكثير من سكان الرمادي الذهاب إلى محطة محمد للحصول على الغاز. في أحد الأيام،

جاء عجوز شيعي مع ابنه إلى المحطة لشراء الغاز، وكانا صديقين قديمين لمحمد الذي لم يفوت فرصة تعريفي بهما.

سأل محمد، وهو يترجم كلام الرجل: «يريد أن يعرف لماذا يعامل الأمريكيون العراقيين كالكلاب».

أجبته: «لا نقصد أن نعامل العراقيين كالكلاب، لكن عندما نتعرض للهجوم أحياناً نضطر للرد، فيتصرف الجنود بقسوة».

لم أكن متأكداً من إيماني بكلماتي. وربما لم أكن أصدقها في أعماقي. ولكن لسبب ما شعرت أن علي الدفاع عن الغرض من وجودنا هناك. لم يصدقني الرجل، وبدا منزعجاً. كان ابنه، ولا بد أنه في أواخر الثلاثينيات أو مطلع الأربعينيات، ينظر إلي بجدية وقلق، وقد أحاط بذراعيه المقعد الذي جلس عليه أبوه. نظرت حولي في الغرفة فوجدت أن الجميع يحدقون إلي. ومع أني خلعت الخوذة، لكنني بقيت بلباس الميدان الكامل، حاملاً فنجان شاي بيد، وبالأخرى بندقيتي. ومنعتني القنابل المعلقة على السترة والحزام من الشعور بالارتياح. بدا وكأني أخضع لاستجواب في محكمة يرأسها مواطنون مدنيون. ومع ذلك، لم أشعر في أي وقت بالتهديد أو الخطر، بل بالخجل وحسب.

قال محمد، وأنا أرى معه الشيخ وهو يرفع ثوبه ليكشف عن كدمة ضخمة على ركبته اليسرى: «يريد أن يخبرك شيئاً عما حدث له الأسبوع الماضي».

سألته: «ماذا حدث له؟».

قال محمد مترجماً: «يقول إن مجموعة من الرجال هبطوا من طائرات هليكوبتر على بيته واحتجزوا كل من فيه تحت تهديد السلاح، ثم أخذوه

عنوة إلى قاعدة للجيش الأمريكي. وأصيبت ركبته عندما دفعوه داخل الهليكوبتر».

لاحظت وجود عصا أسندت إلى المقعد حيث يجلس. التزم الآخرون الصمت حين تحدث الشيخ بالعربية، وأشار من حين لآخر إلى ركبته، وإلى ابنه الذي بقي واقفاً خلف والده دون أن ينطق بحرف.

تابع محمد كلامه: «استجوبوه بضعة أيام، إلى أن أفرجوا عنه أخيراً. فقد ظن الجنود من القوات الخاصة الأمريكية أنه من قادة التمرد». تساءلت في سري كيف عرفوا أن الجنود من القوات الخاصة. «اعترفوا أخيراً بخطئهم وأعادوه إلى بيته، ولكنهم لم يدفعوا شيئاً مقابل ما أحدثوا في البيت من دمار».

بدا الشيخ منزعجاً بالفعل، وهو محق، ولكني لم أستطع منع نفسي عن التفكير بوجود مسوغ حتماً لما فعله الجنود. ثم إنهم اعتذروا، بل أعادوا الشيخ إلى أسرته. ومثلما بدت الأمور بنظري، لم تكن غير معقولة.

قال محمد، وهو ينظر إلى العكاز: «يشعر بالألم حين يمشي».

قلت وأنا أنقل بصري وانتباهي بين محمد وصديقه الشيعي: «يؤسفني جداً ما حدث. لا نريد أن نكون هنا».

قال محمد: «أعرف، أعرف. ليس منزعجاً منك، ولكنه يريد أن يخرج الجيش الأمريكي من العراق».

استمر الحديث بهذا الأسلوب، مع شكاوى متلاحقة من وحشية الولايات المتحدة، جعلت حجة أن كل شيء «مجرد خطأ معزول ومؤسف» صعبة

القبول من جانبهم، ومن المتعذر استخدامها من جانبي. كانوا جماعة من المثقفين، ولاسيّما الشيخ المصاب، الذي يحظى بالاحترام حتى من السنة، وهم أكثرية الحاضرين. وخطر لي أن الاحترام الذي يظهرونه له ليس ناجماً عن حكمته وسنوات عمره المديد فقط، بل لأنه أيضاً عالم دين بارز.

شعرت كأني أحضر محكمة تصدر حكمها على الاحتلال الأمريكي، وأمثل فيها محامي الدفاع والمتهم في آن، في حين يمثل الشيخ الشيعي شعب العراق بأسره. لم أشعر أني مؤهل لأكون نداً لخصمي الرهيب.

على الرغم من غضبه على الاحتلال، لم ينحدر الشيخ الشيعي إلى مستوى التهجم الشخصي علي، بل تحدث بأسلوب جليل وبليغ عن حق العراق في تقرير المصير. ومع أنه ظل منزعجاً، إلا أنه أظهر لي الود واللطف عندما غادر. تابعت أنا ومحمد الحديث عن العراق والاحتلال الأمريكي. في إحدى المراحل، زاد محمد الضغط علي بأسئلته، فنفدت الإجابات مني، وأشرت إلى أننا موجودون في العراق لجلب الحرية للبلد وشعبه.

نظر إليّ محمد، غير مصدق: «الحرية؟!»

قلت بإلحاح وجدية، دون أن أصدق كلماتي: «أجل».

تابع محمد ضغطه بأسلوب جدي أيضاً: «لكنك قلت إنك لا تريد أن تكون هنا».

تابعت قائلاً: «لا أريد».

تابع صديقي، مذكراً بفكرة قلتها سابقاً: «قلت إن العقد الذي وقعته مع الجيش قد انتهى».

اعترفت قائلاً: «أجل، قلت ذلك».

«إذاً، لماذا أنت هنا؟».

قلت موضحاً، وأنا أستشعر مقصد أسئلته: «لأن الجيش يستطيع الاحتفاظ بجنوده بعد انتهاء العقد الموقع، على الأقل في حالة الحرب».

قال وقد رفع حاجبيه: «ضد إرادتهم؟».

قلت بهدوء: «نعم»

قال: «إذاً، كيف يمكن أن تجلبوا لنا الحرية، وأنتم لا تملكونها؟».

لم أتمكن من الإجابة عن هذا السؤال، ولكن أتذكر أنني فكرت بأن محمداً لا يعرف كيف تعمل الجيوش، مع علمي أنه جند في شبابه في الجيش العراقي. فضلا على انقطاع أي صلة تربط بين الحرية وغيابها وبين مشاركتي في حرب عارضتها منذ البداية. لقد ارتبط حظي العاثر بقرار اتخذته ولما أبلغ التاسعة عشرة، حين وقعت على عقد عسكري، وتنازلت عن معظم حقوقي. ومنذ تلك اللحظة، كان عليّ تجاهل كل الاعتبارات الأخرى - السياسية، والأخلاقية، والروحية – لتنفيذ أي مهمة أؤمر بها. لا، لا علاقة لذلك كله بالحرية، كما بقيت ألح على نفسي.

لكن ما شعرت به في أعماقي كان مختلفاً. فما من أحد، في نهاية المطاف، يستطيع إجباري على فعل ما لا أريد فعله، كما كنت أعرف تماماً. عرفت أيضاً أن بمقدوري رفض تعذيب السجناء بحرمانهم من النوم، ومنع سيارات الإسعاف من الوصول إلى المستشفى. بمقدوري الاعتراض على المهمات العبثية التي تعرض حياة الجنود والمدنيين الأبرياء لخطر

لا لزوم له. باستطاعتي توكيد حريتي عبر كلمة «لا». كمنت المشكلة في طاعة الآخرين كلهم للأوامر، وأسهل شيء هو التزام الصمت والاعتقاد بأن محمداً لم يفهم. لم أفقد مجرد حرية التفكير بوصفي فرداً مؤمناً بقيم أخلاقية وروحية، ومستقلاً عن العسكر، بل فقدت أيضاً حرية قبول حقيقة أنني لم أكن حراً.

كان رجال الشرطة الذين يقومون بحراسة المصرف أقل ثقافة وتعليماً من محمد، ونادرا ما تحدوا آرائي بأي طريقة. لكنهم أظهروا فضولاً لمعرفة الولايات المتحدة وطبيعة الحياة في المؤسسة العسكرية الأمريكية. أتذكر أن روزادو بيّن لرجال الشرطة العراقيين ذات مرة طريقة تفكيك / وتركيب بندقية إم 16- (M – 16). وعرضوا بدورهم الإجراء نفسه مع بندقية كلاشينكوف (AK – 47)، وهي سلاح أسهل استخداماً وتشغيلاً بمراحل، بل عرضوا أمام روزادو شريط فيديو يظهر صدام حسين وهو يلقي خطاباً من شرفة الطابق الثاني من مقر رئيس البلدية.

أتذكر أيضاً كيف أسرني جمالٌ موظفة في المصرف، مع أنني لم أتمكن من رؤية سوى وجهها، في حين ترك باقي جسمها العنان لخيالي لأتصوره حسب ما توحي به الخطوط في ثوبها الأخضر والأسود. بدت عيناها المثيرتان زرقاوين تحت الضوء الباهت المسلط على مكتبها، ولكن ربما كان لونهما رمادياً مائلاً إلى الزرقة. سحرني الجمال الطاغي للعينين الفاتنتين، اللاهيتين عن نظراتي وعن سحرهما في آن، وجعلني أتساءل لأول مرة ما يعنيه الانتقال إلى العراق واعتناق ثقافته. الزواج، كما بدا لي، ليس ثمرة لما تدعوه الثقافات الغربية بالحب. فكرت أن بإمكاني الذهاب إلى أسرة الفتاة وطلب يدها؛ أما الحب فيأتي بعد الزواج. قلت لنفسي

يمكن بسهولة أن أقع في غرام هاتين العينين المثيرتين، وتلك الابتسامة الجميلة التي لا أراها إلا عن بعد، واللغز المحبب لذلك الجسم الذي لا يمكنني التوقف عن الحلم به.

لم أعرف شيئاً عن الفتاة، ولكن ذلك أمر طبيعي على ما يبدو في ثقافتها. فالرجال والنساء لا يتواعدون للخروج معاً، ولا يمارسون الجنس قبل الزواج. وبالطبع، يجب اعتناق الإسلام لأحظى بفرصة قبول أسرتها. لم يمثل ذلك مشكلة بالنسبة لي: ألا نعبد الرب نفسه؟ رب إبراهيم؟ بدأت أجن من العشق، ويجب منع نفسي من النظر إليها. يا لروعة هاتين العينين! لماذا لا تضع حجاباً؟ لعلها متزوجة. من الجنون التفكير بالزواج من امرأة لم أعرفها من قبل، فضلاً على عشقها. لكن الاحتمال أترع فؤادي بالإثارة والشغف.

عندما تنتهي المهمة في المصرف كنا نعود إلى مجمّع المهندسين، حيث الحياة فيه تبعث على السأم. وحين نخرج في مهمات مشتركة مع المهندسين، نؤدي معظم العمل. فنحن جنود مشاة، وهم من سلاح الفرسان المدرع، ولذلك يبقون في عرباتهم المصفحة ويوفرون الحماية بمدافعهم القوية، في حين نقتحم نحن المباني، ونحطم الأبواب بالعتلات والمطارق الثقيلة، ونندفع إلى الغرف المعتمة دون أن نعرف ما سيحدث لنا داخلها.

أبلغنا، بعد انتهاء عملية «عقرب البندقية» التي استمرت أسبوعين، ببدء انتقال السلطة والمسؤولية إلى الشرطة العراقية. ولن نغادر القاعدة إلا في حالة تعرضها للهجوم. وفي أثناء ذلك، يمكننا الاستعداد للعودة إلى الولايات المتحدة. سمعنا هذه الوعود بالعودة إلى الوطن من قبل. ومنذ وصولنا، قدمت مواعيد العودة بانتظام، لتتأجل مرة بعد أخرى. أما الفارق

هذه المرة فتمثل في توكيد الخبر من الضابط التنفيذي، حيث أبلغنا أننا في انتظار وصول الشاحنات لنغادر في قافلة كبيرة عبر الكويت. في وقت من الأوقات، أصدر الرقيب ويليامز أمراً إلى الجماعات بحزم بعض الأمتعة والمعدات في صناديق الفصيلة وتجميعها في منطقة التموين لتكون جاهزة للشحن. ارتفعت آمالنا إلى أن انتهت العملية ولم تكن هناك قوة شرطة موثوقة لنقل السلطة إليها. في نهاية المطاف، عُدنا إلى العمل كالمعتاد، ولكن خيبة الأمل هذه المرة كانت مريرة ومحبطة.

في ختام عملية «عقرب البندقية»، كانت الأسلحة التي سُلِّمت قليلة العدد وقديمة العهد، ولم تسفر الغارات الرئيسة الثلاث التي نفذناها بالاشتراك مع المهندسين عن إلقاء القبض على متمردين متشددين أو مصادرة كميات مهمة من الأسلحة. ووفقاً لتواتر الهجمات وشدتها، ازداد التمرد قوة وأصبح أكثر تطوراً وتعقيداً.

عندما كنّا نُقيم مع المهندسين، تعرضت الفصيلة الثالثة لكمين عند نقطة للتفتيش. غير أن المتمردين هذه المرة هاجموا من ثلاث جهات منفصلة في الوقت نفسه، وكان هذا تطوراً جديداً. وعلى الرغم من عدم وقوع إصابات في أي من الجانبين، إلا أن الكمين ثلاثي الجهات للفصيلة الثالثة أظهر أن الهجمات صارت أكثر تعقيداً منذ وصولنا إلى الرمادي، واستحثت قيادتنا على إصدار أمر بعدم البقاء في مكان واحد مدة تزيد عن ثلاثين دقيقة، مما يحرم العدو من الوقت الكافي للإعداد لهجوم معقد ومتطور. الأمر منطقي وكان يجب أن يصدر قبل ذلك؛ غير أن المسألة الحقيقية لم تتعلق بمعرفتنا بضرورة حماية أنفسنا بشكل أفضل، بل بمدى اهتمام قادتنا باستعمال تلك المعرفة.

قبل عودتنا إلى قاعدتنا بوقت قصير تسلمنا ستراً واقية فاعلة (مصفحة بألواح السيراميك). وكانت تلك أول مرة تمتعنا فيها بحماية فاعلة في العراق. فحتى ذلك الحين كنّا نرتدي نوعاً قديماً من السترالواقية يعود إلى زمن حرب فيتنام، لم تكن تصدّ الرصاص حتى لو ألقاه العدو باليد. فكل ما كانوا يفعلونه هو الضغط علينا وتعريض حياتنا للخطر دون توفير الحماية المناسبة لنا.

أصبحت المهمات أقل عدداً، وأقصر زمناً، ننفذها عموماً بالشاحنات لا سيراً على الأقدام، لأن الحرارة، ونحن نقترب من شهر حزيران (يونيو)، لم تعد تحتمل. مات جنديان أمريكيان بالسكتة القلبية. كان أحدهما يقود شاحنة في مهمة «فاحترق دماغه» كما قيل؛ وأصيب الآخر بضربة من الشمس التي لا ترحم في أثناء دورية في الشوارع فأُغمي عليه ولم يستعد وعيه قط. ثمة سبب إضافيّ لتخفيض عدد الدوريات هو تقليص حصة الجندي اليومية من الماء، حيث حددت بلترين اثنين فقط.

اقتصرت الدوريات في تلك الأيام عموماً على التجول بالعربات مدة ساعة تقريباً، وإقامة نقاط تفتيش مدة تقارب ثلاثين دقيقة، ثم العودة إلى القاعدة للاستراحة. كنّا نقوم بالمهمة مرة في النهار وأخرى في الليل. إضافة إلى دورية صباح كل يوم لمراقبة الطريق الرئيسة رقم 10 للتأكد من خلوها من العبوات الناسفة محلية الصنع التي تتربص بعرباتنا لتفجيرها. كانت المهمة واحدة من تلك المهمات العبثية النمطية لتمركزنا، حيث تمثل غرض الدورية في مجرد التأكد من أنها لا تتعرض للهجوم والتدمير. ولكن لم يفكر أحد بمساءلة الغرض منها، أو لم يفعل ذلك علناً على أقل تقدير.

ما إن يتم تأمين الطريق الرئيسة رقم 10، حتى نؤمن التقاطع، حيث تتفرع الطريق المتجهة شمالاً إلى فرعين: شرقي وغربي على طول الفرات. شهدت تلك المنطقة العديد من الهجمات الدموية على مختلف وحداتنا، وصارت تُعرف باسم «زقاق الكمين». كانت هذه المهمات اليومية التي اتبعت الإجراء ذاته جزءاً من الروتين الإلزامي الذي يبدأ بدوريات كل يوم. ومع أن قادة الفصيلة تمتعوا ببعض الحرية في اختيار طرق تنفيذ مهماتهم، إلا أن هناك تنويعات محدودة في أساليب تنفيذ مهمات تؤدى يومياً في الوقت ذاته والمكان ذاته. ولحسن الحظ نفذنا مهمات التأمين بواسطة دوريات راجلة، لأن المتمردين الذين زرعوا العبوات الناسفة محلية الصنع كانوا أكثر اهتماماً على ما يبدو بتدمير العربات من قتل الجنود على الأرض. مع ذلك، كلما نجحنا بتأمين الطريق الرئيسة رقم 10 والتقاطع، أعود إلى القاعدة وأحمد الله على السلامة والنجاة لأعيش يوماً آخر.

والآن، حين بدأ الجنود يدركون أن الرصاص ثنائي الاتجاه في الحرب، أصبح من النادر سماع المواقف المتحمسة للقتال وخوض المعارك التي سادت حين كنا في الأردن. فكل واحد يريد العودة إلى الوطن. تبدى هذا الموقف الجديد بوضوح في الشائعات التي انتشرت في الوحدة وتناولت السياسيين أو الضباط الذي يبذلون قصارى جهدهم لإخراجنا من العراق. أطلقنا على هذه الشائعات لقب «جبنة» (Cheese). فإذا سمع أحدهم خبراً عن رحيلنا عن العراق، أعلنه قائلاً: «احزروا ما هي آخر قطعة جبنة؟». تبع ذلك عادة حكاية عن سيناتور مثلاً وجه رسالة إلى وزارة الدفاع (البنتاغون) يضع فيها مبرر بقائنا في العراق هذه المدة الطويلة موضع المساءلة. لكن ذلك كله لم يسفر عن شيء، وبقيت الشائعات فارغة لا أساس لها من الصحة.

وربما بسبب اقترابي المستمر من الموت، وبعد فقدان الأمل في أن ينقذنا أحد في الوطن من الحرب، بدأت أُسلِّم جسدي وروحي إلى الله كل يوم. قبل الذهاب إلى العراق، لم أمارس قط الصلاة فعلياً وبقي إيماني معظم الوقت سطحياً. لكن وجودي في بيئة قتال بدّل الأشياء؛ فقبل كل مهمة وبعدها، وقبل الذهاب للنوم، كنت أتلو دائماً صلاة قصيرة. في أول الأمر كانت مجرد رجاء بسيط إلى الله أن يتيح لي أن أرى ابنتي سامانثا مرة أخرى. ولكن مع مرور الزمن، توسعتُ في صلواتي، سائلاً الله السلامة والخير لكل الجنود في وحدتي، ثم صرت أصلي من أجل جميع الجنود في العراق وعائلاتهم. وقبل مرور وقت طويل صرت أصلي لعائلات العراقيين الذين قتلوا خلال قيامنا بمهماتنا. ثم أدركت في أحد الأيام أنني أصلي حتى من أجل أعدائنا، ومن أجل نهاية العنف في العراق، وبعد ذلك من أجل نهاية الحروب كلها.

ومع أنني انتسبت معظم حياتي إلى مدارس كاثوليكية، لم أعدّ نفسي كاثوليكياً، ولم أتعمد في الكنيسة. سمعت ذات يوم أن قس الكتيبة عرض تعميد الجنود في القصر. ومع أنني حاولت عدم مغادرة قاعدتي إلا عند الضرورة القصوى، فقد جعلت ذلك اليوم استثناء، وقررت الذهاب مع بعض الجنود الآخرين في وحدتي، الذين عمّدوا سابقاً، وأرادوا تجديد إيمانهم.

بعد رحلة قصيرة ومتوترة بالشاحنات عبر المدينة، نزلنا منها وذهبنا لمقابلة القسّ. تلونا صلاة وجيزة، ولبسنا قمصاناً وسراويل قصيرة قدمها الجيش، وسرنا عبر الباحة الخلفية لقصر رئاسي دُمِّر معظمه. عند وصولنا إلى طرف الباحة، مشينا فوق ممر مرصوف بحجارة لونها بلون

الرمل بجانب النهر، إلى أن وصلنا إلى منطقة تؤدي درجاتها إلى الماء. غطسنا في الماء تحت إشراف القس واحداً بعد الآخر مدة قصيرة، وهكذا تعمدت، وأنا في السابعة والعشرين، في مياه الفرات التوراتية.

منحني اقترابي من الله شعوراً متجدداً بارتباطي مع إخواني البشر، ولكن ذلك لم يكن يعني أنني أصبحت أقل قدرة على ضغط زناد بندقيتي إذا شعرت أن حياتي أو حياة الذين من حولي مهددة. في أوقات الخطر المحدق، تصيبني غشية يصبح فيها همي الوحيد البقاء حياً، في حين ينمحي من ساحة الوعي كل شيء سواه.

تكثفت هجمات المتمردين في الرمادي وتعددت وتواترت، إلى حد أصبحنا فيه نشتبه في أي مدة يتوقف فيها العنف، فنعدها نذير شؤم وإشارة منذرة بأن شيئاً ما يخطط ضدنا. وصلت الأمور إلى حد أني لم أعد أتمكن من الاسترخاء إلا إذا خرجت في مهمة. في القاعدة، كنت أتوقع باستمرار حدوث كارثة بل أتوقع الموت، وكلما سمعت دوي انفجار اكتسحني نوعان من الخوف: استدعاء فصيلتنا للرد على ما حدث، أو أن شخصاً أعرفه قد تقطع أشلاء. أما أشد اللحظات توتراً فهي تلك التي تسبق مغادرتنا القاعدة للقيام بدورية. كنت أجلس في مؤخرة الشاحنة، أو بجانب السائق أحياناً، بينما تأخذ عقلي أفكار جامحة مهلوسة عن الفظائع المرعبة والموت المؤلم في القتال.

كان فونيز يقول: «لا تقلق إلى هذا الحد يا رجل. سنكون بخير». بدا أنه يملك القدرة على قراءة تعابير الخوف والقلق على وجهي، ربما لأنه شعر بهما أيضاً.

كنت أقول: «أعرف»، ولكن مستوى التوتر لا ينخفض حتى نغادر القاعدة عبر البوابة ونذخر بنادقنا.

ما إن نخرج فعلاً للقيام بالدورية حتى تتحسن الأمور فأستعيد بعض الشعور بالسيطرة على الوضع. أتفحص أفراد جماعتي، ومدى شجاعتهم وتحملهم، وهل يراقبون المنطقة بأعينهم وأسلحتهم. وأدرس الطرق لأقرر أيها نسلك وأيها نتجنب. بل أشعر أحياناً بالاسترخاء إلى حد الاستمتاع بالمشاهد والمناظر. أمتعتني رؤية الناس في الشوارع وركزت على محاولة قراءة التعابير على وجوههم. نادراً ما سرّتهم رؤيتنا، وهذا أمر أمكننا تفهمه، لأننا، مع انتشار التمرد وتفاقمه، عملنا على تبني عدد من الأساليب التكتيكية المصممة لتقليص خطر الهجوم علينا، دون انتباه أو اهتمام بحاجات العراقيين وراحتهم. على سبيل المثال، كنا نقود العربات على الجانب الخطأ من الطريق الرئيسة لتقليص خطر الإصابة بالعبوات الناسفة محلية الصنع. وهذا أجبر السيارات على السير على جانب واحد من الطريق، وأبطأ انسياب حركة المرور إلى حد بعيد. ولكي نتفادى التوقف بسبب الازدحام المروري، حيث يرتفع احتمال التعرض لهجوم بقنبلة يدوية تدس تحت الشاحنات، كنا نقود عرباتنا على الأرصفة، فنصدم حاويات القمامة، والسيارات المدنية لإبعادها عن الطريق. كان العديد من الجنود يضحكون ويتصايحون ويهللون فرحين لهذه الأساليب، ولكن أهل الرمادي الذي يحاولون متابعة نشاطاتهم اليومية لم يروا الجانب المسلي من هذه الأفعال، ومع مرور الوقت على الاحتلال، تفاقم غضبهم واستياؤهم من حضورنا الملموس والمحسوس باطراد. حتى الأطفال الذين ركضوا ذات يوم إلى جانب شاحناتنا مهللين ملوحين، أخذوا الآن يراقبوننا صامتين

مستاءين. بل إن بعضهم كانوا يرفعون أيديهم في الهواء مطالبين جنودنا بالرحيل، فنلوّح لهم، محاولين إظهار السرور، أو نهز أكتافنا دون مبالاة كأننا نقول: «ماذا بيدنا أن نفعل غير ذلك؟» وبين الحين والآخر، يشعر جندي بالامتعاض والسخط، فيصوب بندقيته نحوهم صارخاً: «اللعنة عليكم!».

ولكن لم يظهر الكل دون استثناء غضبه علينا في أثناء الدوريات. في يوم قائظ لاهب، وقد حشرنا في زحمة المرور في قلب المدينة وتوترت أعصابنا، ظهرت فتاة صغيرة من بين المباني بجانب الشارع. نظرتْ نحونا ورسمت ابتسامة ساحرة، فجازف كثير من الجنود حولي بإبعاد أيديهم الزناد، لإخراج آلات التصوير والتقاط صور لها. بدت بثوبها القديم القذر الذي لم يناسب مقاسها كأنها أميرة صغيرة. لم يتجاوز عمرها ست سنين، ولكن بدت وحيدة وهي تجوب الشوارع حافية. في خضم العنف كله وما سببه الاحتلال من حزن وأسى، جدّدت رؤية الطفلة، ببراءتها وجمالها، شعوري بالأمل للبشرية جمعاء.

لسوء حظنا، ندر مثل هذا النوع من الأحداث والمشاهد. وفي الواقع، ازدادت على وجه العموم مشاعر الازدراء والمرارة تجاه الجيش الأمريكي. واذا لم يكن الاحتلال بحد ذاته كافياً، فإن من الممكن دائماً الاعتماد على سخف قيادتنا وسوء تصرفها لإيجاد الظروف التي أججت سخط الشعب على وجودنا. أحد الأمثلة المحددة التي جسدت هذا الحمق والغباء ما يزال جلياً في ذاكرتي.

بدأ الأمر كله بالإجراء المعتاد لإقامة نقطة تفتيش وتحكم بالمرور عند نهاية دورية قصيرة. قرر الرقيب ليامز وضع نقطة التفتيش قرب

أكبر مسجد في المدينة، وهو مبنى مهيب وبارز يرتفع بجلال فوق المنازل المتواضعة في الحي الواقع بين قاعدتنا ومركز مدينة الرمادي. ومع أنها لم تكن المرة الأولى، إلا أن من غير المفروض بنا إقامة نقطة تحكم وتفتيش بالقرب من مسجد. أثارت العملية الانتباه على نحو خاص، لأن الرقيب وليامز أصرّ على جلب مدافع الهاون مع فصيلتنا، فضلاً على شاحنة إضافية لاعتقال المشتبه فيهم وحراستهم. ألهبت العملية غضب الأهالي وعدّوها إهانة لدينهم، فقد حاصرت المسجد برمته.

وفي وقت مبكر من أمسية تضج بالحركة والنشاط، اصطف رتلان طويلان من السيارات في انتظار العبور من نقطة التفتيش. وخلافاً لطريقة أدائنا لمثل هذه المهمة سابقاً، قرر قائد فصيلتنا هذه المرة إبقاء السائقين والركاب ضمن منطقة احتجاز بعد تفتيش سياراتهم، حتى وإن لم نجد شيئاً يبرر احتجازهم. كلف فريق من الجنود بإيقاف سيارات المحتجزين، وبذلك أصبحنا ندير مرأباً للسيارات. بعد مرور نحو ثلاثين دقيقة على العملية، تمكنا من تفتيش عدد كبير من السيارات التي رُكنت الآن بعيداً عنا، فضلاً على حراسة حشد كبير من الناس.

بدأت أشعر بالقلق إزاء الوضع بكامله، الذي كان له عدد من الجوانب السلبية. فقد بقينا في مكان واحد مدة أطول مما يجب؛ واحتجزنا عدداً كبيراً من الناس، وعرضنا حياتهم للخطر بسبب قربهم منا؛ وتمركزنا بجوار أكبر مسجد في الرمادي؛ وكنا نحتل شارعاً بأسره. بدا الوضع كله مصمماً لاستفزاز مجابهة عنيفة. وعندما عبرت أخيراً عن مخاوفي أمام الرقيب ديمريست، أجاب:

«حاول الاسترخاء. لن يهاجمنا أحد بالقرب من مسجد».

قلت: «انقضى على وجودنا هنا أكثر من ساعة، وأحسب أن المسألة الآن هي كم من الوقت نتيح لهم متابعة الاستعداد...».

قاطعني ديمريست، وهو يبتسم: «أنت تبالغ في القلق».

وصلت في تلك اللحظة سيارة دورية تقل مجموعة من رجال الشرطة العراقية الذين تخرجوا حديثاً. وبدوا ببنادقهم الكلاشينكوف وزيهم الموحد الأخضر الأدكن من رجال الجيش لا الشرطة. ثم تمركزوا قرب مجموعة المحتجزين، الذين كانوا يتبادلون الحديث، بعضهم يدخنون، وغيرهم يضحكون ويتبادلون الدعابات، في حين تظهر على آخرين أمارات الانزعاج.

اقتصر عملي تلك الليلة على القيام بالدورية عند نقطة التفتيش، للتحقق من أداء أفراد جماعتي الذين توزعوا بالتساوي عند الشاحنات، لتوفير الحماية للعربات. وعندما سرت في الشارع جيئة وذهاباً، استشعرت أن الجو العام في المنطقة يتغير بصورة دراماتيكية. فقد رحل الأشخاص القلائل الذي جلسوا في الحديقة المقابلة للمسجد. واختفت السيارات من الشوارع القريبة، وأغلقت المتاجر القليلة أبوابها وأطفأت أضواءها. ثمة رجل يراقبنا من سطح مبنى مجاور مؤلف من ثلاثة طوابق منذ لحظة وصولنا، ولكنه انصرف الآن أيضاً.

بعد ساعة ونصف الساعة من إقامة نقطة التفتيش، سمح وليامز للمحتجزين بالذهاب إلى منازلهم، ولكنه بدلاً من إنهاء المهمة عاد لاحتجاز مزيد من الناس دون سبب واضح. كان الاختصاصي سيمبسون، أحد رماة الهاون، يحرس هذه المجموعة الجديدة، مصوباً بندقيته نحو

أفرادها وهم جالسون على الرصيف. كنا نقف، أنا وهو، على الرصيف بين اثنتين من شاحناتنا، حين دوى مدفعٍ رشاش في أرجاء المكان مخترقاً جدار الصمت.

كان ما رأيته بعد ذلك شيئاً بقي يحيرني إلى اليوم. فقد أتت سيّارة ببطءٍ وتوقفت بالقرب من المكان حيث أقف أنا وسيمبسون. كانت محاطة بهالة باهتة من النور، ناجمة عن شرر متطاير يغطي سطحها من الرصاص الذي أصابها. وإذا جاز التعبير، فإن أفراد فصيلتي «أناروا» السيارة. فقد توهجت بفعل طلقات الرصاص.

تبادلنا، أنا وسيمبسون، النظر وهلة، عندما كان سائق السيارة يرتعش مع كل رصاصة تخترق جسده. خطر لي أن شخصاً آخر ربما يختبئ داخل السيارة، منتظراً اللحظة المناسبة ليرمي قنبلة يدوية. أو ربما هي مفخخة. لم يكن ذلك مهماً فعلاً. فالسبب الذي دفع جنود فصيلتي لإطلاق النار على الرجل سيقرر لاحقاً؛ أمّا في الوقت الراهن، فذنبه هو أنهم يطلقون النار عليه.

لن يحدث أي شيء فارقاً مهماً بالنسبة لسائق السيارة، المقتول فعلاً، مع ذلك ما زلت أطلق النار عليه. كانت ردّة الفعل آلية، «روبوتية» إذا جاز التعبير، مثل الردّ المبرمج الذي لا يشتمل على مشاعر إنسانية أو تفكير. ارتفعت البندقية، وبدأ الإصبع الضغط على الزناد، وغابت الرؤية عن العينين.

عندما هدأ إطلاق النار انتقلت غريزياً لأحتمي خلف إحدى الشاحنات، أو لأبتعد على الأرجح عن مشهد الرجل الذي قتلناه للتو، بعد أن كاد رأسه

ينفصل عن عنقه. أدركت آنئذ أن مانتيلا يُطلق النار على المباني الواقعة على الطرف الآخر من الشارع. صحت عليه: «مانتيلا، على ماذا تطلق النار بحق الجحيم؟».

قال وقد أصيب بالذهول ذاته الذي أصابني قبل لحظة: «لا أعرف. هناك. كلهم يطلقون النار على تلك المباني».

نظرت في ذلك الاتجاه ورأيت فوهات بنادق تبرق مع كل رصاصة تصوب نحونا. عندئذ فقط أدركت أننا نتعرض لهجوم قوي. صوّبت سلاحي وانضممت إلى مانتيلا في الردّ على الرصاص، ولكن توقف إطلاق النار على الفور. حسبت أن المعركة انتهت، فاتجهت نحو بداية طابور عرباتنا؛ بحثاً عن إستيم وهودجز، اللذين التحقا بوليامز لتنفيذ المهمة، الأول بوصفه سائقاً، والثاني رامياً على المدفع الرشاش المنصوب على العربة. ولكن عندما وصلتُ إلى عربة الهمفي لم أجد لهما أثراً.

خططت للمسير على طول رتل نقطة التفتيش من الأمام إلى الوراء لأتأكد أن جميع جنودي بخير ولم يفقد أحد منهم. ولكن تبين أن تنفيذ الخطة أصعب مما توقعت. وآخر شيء خطر ببالي أننا سنتعرّض للهجوم مرّة أخرى. ففي كل مناسبة سابقة عندما كنّا نتعرض للهجوم، استخدم المتمردون تكتيكات «اضربْ واهرب»، ولم يشنوا هجوماً ثانياً. يبدو أن الأمور اختلفت قليلاً هذه المرّة.

في أثناء العودة على طول الرتل للبحث عن بقية أفراد الجماعة، شاهدت جمهرة من الجنود يهتمون بجندي ممد على الأرض. إنه الاختصاصي كارديناس، رامي المدفع الرشاش من الجماعة الثانية؛ الذي

أصيب برصاصة في ساقه وكانوا ينقلونه إلى مكان آمن في انتظار فريق الإخلاء الطبي في سريتنا.

فكرت في المساعدة على نقل كارديناس، ولكن وجدت أربعة جنود يهتمون به، وهذا عدد كاف. واصلت السير، مركزاً الاهتمام على العثور على كل جندي في الجماعة.

سمعت صوتاً آتياً من الظلال: «رقيب ميخيا، هل أجد معك ضمادات ميدانية؟».

إنه الرقيب أول شوي، قائد جماعة الهاون. كان يعالج عراقياً أصيب بالرصاص في أثناء انتظار الإفراج عنه بعد تفتيش سيارته والسماح له بالذهاب. بحثت في الحقيبة الصغيرة التي أضع فيها الضمادات. حظر علينا استعمال معداتنا الطبية لمساعدة الجنود الآخرين، فضلاً على العراقيين، ولكن تبيّن أن شوي قد استعمل ضماداته لمساعدة مدني عراقي مصاب.

سألتُ، وأنا أرمي له الضماد: «ماذا أصابه؟».

قال، وهو يفتح الغلاف البلاستيكي: «جرح في المعدة».

بدا أن الرجل يعاني ألماً مبرحاً، ولكنه لم يفقد وعيه ويدرك ما يدور حوله. كان يتحدث مع شوي بالعربية وحياني بإيماءة واهية من رأسه. على بعد أمتار قليلة قابلت الاختصاصي أيبو.

هتف: «رقيب ميخيا، تعال إلى هنا. ثمة استعصاء في هذا السلاح اللعين».

كان يحاول تشغيل المدفع المضاد للدروع (AT-4). لا يستخدم هذا السلاح إلا ضد المدرعات الخفيفة، وليس الأفراد. لكن لم يهتم أحد بمثل هذه الأمور في العراق: فإذا تعرضت وحدتنا لهجوم، كنا نرد على النار بكل سلاح متوافر لدينا، وحتى حين نمتلك الحد الأدنى من القوة النارية المطلوبة، كنا دوماً نتمتع بالتفوق على العدو.

حاولتُ أن أساعد أيبو في تشغيل المدفع لكن دون جدوى. فقد استعصت آلية الزناد ومنظار التسديد. أبلغته بأنني سأعود لمساعدته لاحقاً، بعد أن أتحقق من أن أفراد الجماعة كلهم على ما يرام.

سمعت صوتاً هاتفاً: «مرحباً! مرحباً!».

نظرت إلى اليمين فرأيت الرجل الذي كان يناديني. كان جالساً في مقعد قيادة سيارة صغيرة بيضاء (من طراز فولكسفاغن باسات Volkswagen Passat)، وبجانبه رجل أكبر عمراً يرتدي ثوباً تقليدياً أبيض يميز العراقيين الشيعة. كان رأسه مائلاً قليلاً، وبدا غارقاً في أفكاره، محدّقاً في أرضية السيارة. تمكنت من رؤية شخص آخر في المقعد الخلفي، بدا أنه أكثر وعياً بما يجري، ولكنه لم ينطق بكلمة لي، أو لأي شخص آخر، واكتفى بالجلوس هناك، بينما استمر سائق السيارة في محاولة لفت انتباهي.

سبق لي أن قرأت تقريراً استخبارياً من إحدى الوحدات الأخرى العاملة في المنطقة، مفاده أن جندياً أصيب برصاصة في وجهه أمام نقطة تفتيش. وبحسب التقرير، اقترب الجندي من سيارة بعد أن طلب رجل عراقي المساعدة، مدعياً أن واحداً من ركابها في حالة خطرة، وأنه بحاجة إلى نقله

فوراً إلى المستشفى. وعند التفات الجندي ليتحدث مع رئيسه، سحب أحد ركاب السيارة مسدسه وأطلق النار على الجندي. في تلك اللحظة اندلع قتال بالأسلحة النارية بين الجنود المشرفين على نقطة التفتيش من جهة، وعدد من ركاب سيارتين أو ثلاث كانت تنتظر دورها لتخضع للتفتيش، من جهة أخرى.

الآن، ألفيت نفسي في وضع مماثل. كانت غريزتي تدفعني لإطلاق النار على هذا الشخص الذي يريد لفت انتباهي. أول ما خطر لي أنه يريد قتلي. لم أعد أتمكن من سماع صوته، ولم أحاول أن أميّز بين الإنكليزية والعربية، ولم أهتم بما كان يقول. عرفت أنه في خطر، وربما يعاني ألماً مبرّحاً. ولكن كل ما سمعته في رأسي هو صوتي أنا... «إنه يريد قتلي». رفعت بندقيتي ببطء دون أن أقترب كثيراً من السيارة. استمرت نداءاته، بدت غير مفهومة، وغريبة، ولا تعنيني.

فجأة، ناداني صوت آخر، أكثر ألفة. كان عالياً بما يكفي لأسمعه، ولكن ليس إلى حد يجعلني أتصرف. في تلك اللحظة، تمثلت أولويتي الوحيدة في الحياة ذاتها، حياتي. وتطلب بقائي حياً قتل هذا الرجل قبل أن يقتلني. للسنوات الثماني التي أمضيتها متدرباً في سلاح المشاة طريقة لجعلي أتولى زمام الأمور في حالات كهذه، وأتحول إلى ردة الفعل الآلية. سددت فوهة بندقيتي وأغمضت عيني اليسرى، وأصبعي يضغط على الزناد. استشعر الرجل الخطر المحدق به، فارتفعت صيحاته اليائسة، ولكني لم أشعر بالندم، أو التعاطف، ولا بأي شيء. سينتهي الصراخ كله بلحظة.

«أيها الرقيب! أيها الرقيب! توقف! توقف! توقف!».

رفعت رأسي عن الهدف، وأبعدت أصبعي عن الزناد؛ لكن لم تبتعد عيناي عن السيارة، وظلت بندقيتي مصوبة إليها.

«إنهم جرحى، أيها الرقيب، لا تطلق النار عليهم. يريد الرجل أن يخبرك بشيء».

لم أعرف قط ما الذي حال بيني وبين قتل هؤلاء. كان الصوت مألوفاً لأنه تحدث بالإنكليزية، وحاولت مراراً وتكراراً أن أعرف هوية الشخص الذي أعادني إلى حالة الوعي البشري، لكن دون جدوى. وبغض النظر عمن كان، فقد أنقذ حياة ثلاثة رجال في تلك السيارة، وأنقذني أنا أيضاً، إذ كنت أعرف صعوبة التعايش مع ذاتي بعد أن أقتل ثلاثة أشخاص عزل، اثنان منهم جريحان.

قال السائق وقد تبدت تعابير الارتياح على وجهه: «يا سيد، يا سيد، المستشفى أرجوك».

اتصلت بوليامز بالجهاز اللاسلكي: «-2 6، هنا 2-1. أمامي جريحان في سيارة. السائق يطلب الذهاب إلى المستشفى».

أصرّ الرجل، وهو يلوح بيديه إلى الأمام ليشير إلى أنه قادر على الوصول بسيارته إلى المستشفى: «يا سيد، يا سيد، أنا أوصلهم إلى المستشفى. أرجوك، أرجوك يا سيد».

قلت: «يستطيعون الوصول بسيارتهم، ويبدو أنهم يرجون السماح لهم بالذهاب، حوّل».

رد وليامز عبر الأثير: «لا، يا 2-1. ليس مسموحاً لأحد بمغادرة المنطقة قبل أن آذن له. أخرجهم من السيارة».

«يا سيد، يا سيد، أرجوك».

قلت مخاطباً «2 ـ 6»: «علم».

بدا صوت الرجل يائسا عندما قال: «مستشفى، أرجوك، يا سيد»، ولكنني في تلك الليلة كنت ألتزم الأوامر.

قلت له بحزم، مشيراً بيدي لمساعدته على فهم الأمر: «اخرجوا من السيارة». ولكن الرجل ألح بإصرار. قلت مرة أخرى بصوت أعلى: «اخرجوا من السيارة».

كرر التوسل: «يا سيد، أرجوك». لم يتمكن من فهمي. رأيت الآن أن الرجل الجالس بجانبه مصاب بجرح خطر، ولديه الوسيلة لنقله إلى المستشفى لتلقي العلاج. كنت العقبة الوحيدة، وأنا أقف أمامه وسلاحي مذخر، لأمنعه من الذهاب إلى أي مكان. تابع بإلحاح: «أرجوك، أرجوك، أرجوك، يا سيد، المستشفى».

صرخت: «اخرجوا من السيارة».

«أرجوك، يا سيد».

«اخرجوا من السيارة» وبدأت أرفع بندقيتي مرة أخرى.

«اخرجوا من السيارة»، وخفضت صوتي، مستخدماً السلاح لإرهابهم.

عند ذلك، تكرر ما حدث مجدداً، لكن بانفجار هذه المرة. لم أتمكن من رؤية الانفجار، ولكني شعرت بموجة صادمة مما عرفت لاحقاً أنها قنبلة يدوية. بدأت أتراجع رافعاً بندقيتي، ولم أعد أسددها على السيارة، بل على المبنى الذي انطلق منه الهجوم، المبنى ذاته الذي أطلق منه الرصاص

علينا سابقاً. انهمر الرصاص علينا مجدداً، فقمنا بالرد على النار بالمثل، لكنا الآن نطلق قذائف فاعلة ومسددة بدقة من المدافع. كانت المباني تضاء كلما اخترقت قذيفة النوافذ. الأهداف موجودة على الأسطح، ولكن قربنا من المباني جعل من المستحيل عملياً إصابة الأهداف بالمدافع. ولذلك اخترنا ثاني أفضل الأهداف، وبدأنا الرمي على النوافذ. فإذا وجد أحد في هذه الطوابق فلا بد أنه قتل حتماً.

في جزء اللحظة الذي احتجت إليه للتراجع والاحتماء، لم أتمكن من تحديد أي موقع واضح للعدو، ولكن حالما احتميت خلف شاحنة، أطلقت بضع طلقات نحو أحد الأسطح. رميت في الاتجاه العام، لأن إطلاق النار هو الشيء الذي يجب فعله في تلك اللحظة. ثمة جندي يطلق النار بجانبي. إنه مانتيلا مجدداً.

قال وهو يشير إلى الجزء الأسفل من سترته حيث ظهر ثقب رصاصة: «اللعنة، لقد أصبت برصاصة. وحماني اللوح في السترة». كان يقصد ألواح السيراميك في الستر الواقية التي تسلمناها للتو.

سألته، وأنا أفكر بحظه السعيد حين أصيب في ذلك اليوم، وليس قبل يومين عندما لم تكن لدينا ستر جديدة: «هل آلمتك؟». لو اخترقت رصاصة من بندقية كلاشينكوف الجانب الأيسر من بطنه لسببت له أذى خطيراً.

قال: «كلا، شعرت فقط بنقرة خفيفة».

توقف إطلاق النار للمرة الثانية. شاهدت الرجل الذي طلب السماح بالذهاب إلى المستشفى قد خرج من السيارة وجلس على الرصيف مع قريبيه الاثنين. كان المترجم الذي رافقنا ذلك اليوم مصرياً يشبه كثيراً

شخصية السيد ماغو الكرتونية، فهو قصير، مستدير الوجه، يضع نظارة سميكة تضخم حجم عينيه. أخبرنا فيما بعد أن الرجلين المسنين اللذين كانا في السيارة البيضاء هما عم السائق ووالده. وعندما رأيت أنهم خرجوا من السيارة واختبؤوا خلف إحدى شاحناتنا، قررت أن أتابع السير على الطريق.

بدا أن هناك مدنيين جرحى سقطوا في كل مكان حولي. وفي نهاية رتل نقطة التفتيش، وقفت سيارتان للشرطة العراقية، استخدمهما رجالهما ساتراً للاختباء من الهجوم. كنت أنظر إلى السيارتين عندما شاهدت رجلاً يركض نحوي: إنه الرقيب غاليغوس.

قال لاهثاً وعرقه صبيب: «رقيب ميخيا، أنا وبيريز بخير. لدينا الذخيرة وكل المواد الحساسة». كان يؤدي واجبه بصفته قائد فريق.

قلت: «علم، أحسنت يا غاليغوس، هل شاهدت فونيز وبيان إيم؟».

وقال وما يزال يلهث: «نعم، إنهما عند نهاية الطابور، يجلسان في آخر شاحنة».

تابعت التفتيش، ومررت بالقرب من شاحنة أخرى، فشاهدت الاختصاصي بيريز، الذي احتمى وراء كومة من الستر الواقية القديمة التي وضعت الآن على جوانب الشاحنات. فبعد تسلم الستر الجديدة، قررت سريتنا استعمال القديمة لتعزيز الحماية، مع أنها في الواقع لم تضف الكثير. وضعنا أيضاً أكياساً من الرمل على أرضية الشاحنات لامتصاص انفجار القنابل المزروعة على جوانب الطرق.

سمعت صوتاً يصرخ عند مروري خلف الشاحنة التي جلس فيها بيريز: «ميخيا، تعال وساعدني».

إنه طبيب الفصيلة، وأحد القلائل الذين اعتادوا مناداتي باسمي دون إضافة «رقيب».

صرخت: «ماذا تفعل هنا في مكان مكشوف؟».

قال: «أحاول أن أنقذ حياة هذا الرجل». التفت الطبيب إلي. كان يجلس على قارعة الطريق مقابل المباني التي هوجمنا منها مرتين. ثمة مدني عراقي جريح، بدا أنه ميت أكثر مما هو حي، جالس في حضنه تقريباً وهو عاجز عن موازنة الجزء الأعلى من جسمه.

سألته، وأنا أقترب منه: «ماذا أصابه؟».

قال: «جرح غائر في الصدر». ثم تابع: «حدثه. اسأله ما اسمه». حسبت لوهلة أنه يخاطبني، ولكن سمعت صوت شخص آخر خلفي.

سأل المترجمُ الجريحَ بالعربية: «اسمك؟». لم يتلق أي جواب.

قلت للمترجم: «أنت بالتأكيد بحاجة للاحتماء خلف ساتر» ثم قلت للطبيب: «وأنت أيضاً ياسونينشين ».

تابع الطبيب كلامه للعراقي الجريح: «ابق معي. سوف تنجو. إياك أن تموت بين يدي».

ألححت على الطبيب: «يجب أن نحتمي». لكنه بدا أكثر اهتماماً بحياة الجريح من حياته.

تابع المترجم الكلام مع الرجل بالعربية، الذي غاب عن الوعي بين الحين والآخر وهو يحتضر. وبدا أن زفيره يخرج من الثقوب الكثيرة في جسمه.

قلت أخيراً للطبيب: «حسنا، دعنا ننقله». ثم التفت إلى المترجم: «أما أنت فاختبئ وراء تلك الشاحنة».

قال الطبيب: «حسناً، أمسكت ذراعيه. أمسك أنت ساقيه».

علقت سلاحي على كتفي الأيمن، وأمسكت ساقَي الرجل، لكن حين بدأنا نقله شن هجوم جديد.

«أسرع. تحرك».

صاح الطبيب وهو ينحني: «اللعنة! أنا أسرع».

في نهاية المطاف، تمكنا من حماية الجريح المحتضر، وبقي معه الطبيب والمترجم، في محاولة لمواساته في لحظاته الأخيرة. بقيت بالقرب منهم، محتمياً وراء العجلات الضخمة للشاحنة؛ ومعتقداً أن الموقع هو الأفضل على الأرجح. لم أجد أي معنى في الرد على مصادر النيران، إذ لم أعرف بالضبط في أي اتجاه أرمي. ولكن سمعت صوت إطلاق نار قوي بالقرب مني يصم الآذان. إنهم رجال الشرطة العراقيون يطلقون الرصاص من بنادق الكلاشينكوف بصورة عشوائية، إذ لم يجدوا أهدافاً يسددون عليها فأطلقوا الرصاص في الهواء فوق رؤوسهم. وخطر لي أن الطلقات ستسقط علينا وتسبب ضرراً جسيماً، ولكني لم أقل شيئاً.

سمعنا دوياً أتى هذه المرة من الطريق الفاصل بيننا وبين مهاجمينا. ألقيت نظرة سريعة، فرأيت عربة الرقيب الأول، التي نصب على ظهرها مدفع

رشاش من عيار 50 ملم، تتقدم وتطلق النار على أي شيء يتحرك. في البداية، أطلقت الرصاص على المبنى الخطأ، ولكن بعد تدميره تقريباً، سددت على البناء الذي يضم الأهداف الفعلية، وسرعان ما توقف إطلاق النار.

ركضت إلى آخر شاحنة في الرتل فوجدت فونيز وبيان إيم وقد تمدد كل منهما على أرضيتها، وصوب سلاحه من بين الستر الواقية القديمة.

سألت فونيز: «هل أنتما بخير؟».

أجاب غاضباً وهو يشير إلى بيان إيم: «هل تصدق ما فعل هذا اللعين. كنا نتعرض لإطلاق النار، وناداني بأعلى صوته. حسبت أنه أصيب في مقتل، توقفت عن إطلاق النار لأسأله عن المشكلة؟ قال إنه يريد مساعدتي لتثبيت حزامه».

نظر بيان إيم إلي مبتسماً. كانا بخير.

سألت، مستوضحاً عن المعدات الحساسة، التي تعني أساساً مناظير الرؤية الليلية والأسلحة: «هل تحملان المعدات كلها؟».

قال بيان إيم، والابتسامة لم تفارقه: «أجل، أيها الرقيب». وأومأ فونيز الحانق برأسه.

بعد لحظات وصلت إلى المكان قوة الرد السريع التي مثلتها في تلك الليلة الفصيلة الثالثة. وعند نزول أفرادها من العربات، تلقينا الأمر بالصعود إلى الشاحنات. ذهبت لأبحث عن غاليفوس وأتأكد من أنه سمع الأمر. في أثناء عودتي على الطريق، سمعت صوت الشاب الذي ينقل والده وعمه الجريحين.

قال: « يا سيد، أرجوك».

نظرت إليه. لازال جالساً على الرصيف، وشعرت لأول مرة، منذ بدأ القتال، بالأسف لحاله. عرفت أن والده لا يزال حياً وواعياً من جفنيه المغمضين. غطى الدم صدر الشيخ، وبدا أنه يعاني ألماً شديداً، ولكنه مسيطر على نفسه أيضاً. أما شقيقه فكان مصاباً بجرح في يده اليسرى التي ضغطها على جذعه. كانت عيناه مفتوحتين، ولكنه رفض النظر إليّ. ولاح على وجهه تعبير جمع الألم والغضب والكبرياء.

تابع الشاب، الذي بدا في أواخر العشرينيات من عمره: «أرجوك، يا سيد». لم يكن مصاباً بأذى، ولكن عانى ألماً وجدانياً مبرحاً. توسل هامساً تقريباً: «أرجوك».

«2-6، هذا 2-1. مازال هؤلاء الجرحى يطلبون الإذن بالذهاب إلى المستشفى. حول».

خيم الصمت على الطرف الآخر.

«2-6، هل سمعتني؟».

لم تنهمر دموع الشاب. ولكني أدركت من تعابير وجهه ونبرة صوته شدة انزعاجه. التفتّ إلى اليمين، فرأيت جنود الفصيلة الثالثة يتخذون مواقع دفاعية. وشاهدت على اليسار أفراد فصيلتي يركبون الشاحنات. بدا واضحاً أن "6.2" منشغل بأمر آخر .

صحت على بضعة جنود يشرفون على تأمين الحماية للعربات: «اسمعوا! هل ترون هؤلاء، اسمحوا لهم بالمرور. لا تطلقوا النار عليهم».

قال أحدهم: «علم، أيها الرقيب».

قلت للرجل: «اذهب».

سألني، وهو يحرك يديه ليتأكد من أنه يعرف ما أقول: «اذهب!».

قلت وأنا أمدّ ذراعي: «اذهب، خذهما إلى المستشفى، إلى المستشفى».

نهض، وساعد والده على المشي نحو السيارة. كان عمه يشعر بضعف في ركبتيه، لكنه استطاع السير دون مساعدة. ومع أني أردت مثل الجميع الخروج من المكان، إلا أنني رافقتهم إلى سيارتهم. أعتقد أني خشيت من تعرضهم لإطلاق النار، أو ربما شعرت بالذنب من الحادثة برمتها. وما إن دخلوا السيارة حتى صحت للجنود مرة أخرى: «أفسحوا الطريق لهذه السيارة، يمكنهما المرور».

ركب إستيم وهودجز في عربة الهمفي الأمامية مع وليامز. وركب غاليفوس وبيريز معي في الشاحنة، أما أيبو فكان مع مانتيلا، وبيان إيم وفونيز في الشاحنة الخلفية. لم يصب أحد من الجماعة، ولا الفصيلة، بأذى. ولكن لدى عودتنا إلى القاعدة، اعتقدت أننا جميعاً نعلم أن الكمين مثل علامة على مستوى جديد من العنف والشدة في المقاومة في الرمادي. فلم تكن تلك المعركة الأشد شراسة والأطول مدة حتى ذلك الحين فقط، بل أظهرت قدرة المتمردين على شن هجمات من مسافة قريبة جداً، واستعدادهم للقتال جولتين أو ثلاثاً أو أكثر.

في ساعة متأخرة من تلك الليلة، عندما عادت الفصيلة الثالثة إلى القاعدة، علمنا أنها أغارت على المباني التي انطلقت منها الهجمات، ولكن

دون أن تجد أي شيء - لا قتلى ولا جرحى ولا أسلحة، ولا أغلفة طلقات فارغة. كأنما لم يوجد أحد فيها قط.

بلغ إجمالي عدد الضحايا في ذلك اليوم، وفقاً للتقديرات غير الرسمية، سبعة قتلى من المدنيين، سقطوا كلهم بسبب الرصاص الطائش. وبقيت آثار دمائهم المسفوحة على الشارع بعد يوم من انتهاء المعركة. وفي ضوء الصباح، تكشف أبشع ما تبقى من مخلفات رعب الليلة السابقة. لم يصدر أمر بنقل السيارة التي بدأت بوصولها المعركة، ومازالت الجثة، المقطوعة الرأس، جالسة في مقعد السائق، لتذكر العراقيين كلهم بأننا نحن من يتحمل المسؤولية. تساءلت: أي أسرة منكوبة سوف تُستدعى لرؤية المشهد المحزن، وأنا أعلم أنها حين تبكي فقيدها الغالي، الذي ذبح في ظلال مسجد المدينة المهيب، سوف ينتحب معها سكان الرمادي كلهم.



ثامناً

ربما أمكن الاعتقاد بأن الإخفاق الذريع في أعقاب المعركة التي اندلعت عند المسجد، سيدفع القادة المسؤولين إلى تغيير طريقة أدائنا للمهمات. لكنهم لم يغيروا شيئاً يذكر. إذ تابعنا البقاء في المكان ذاته أكثر مما يجب، فسهل على العدو التنبؤ بتحركاتنا التي اتبعت الطرق ذاتها مراراً وتكراراً. كأنما قيادتنا تعمدت تعريضنا للهجوم.

مع انقضاء الأيام والأسابيع في عش النسر، سيطر على نفوس معظم الجنود شعور بأن الزمن قد توقف. ظلت الشائعات التي تشير إلى أننا على وشك العودة إلى الولايات المتحدة تنعش الآمال لكن دون جدوى. أتت المواعيد النهائية التي حددت لإعادة السلطة إلى السلطات العراقية المحلية وتقليص حجم وجودنا، ثم انقضت. في حين توضح طوال الوقت أننا نتبنى بالفعل سياسة جعلت حضورنا بارزاً ومكثفاً في المدينة. في هذه الأثناء، أجج ازدراء الأهالي لوجودنا مقاومة تنامت بشكل ملحوظ.

علمنا بالمحاولات المتكررة والنشطة التي قامت بها عائلاتنا في الوطن لإقناع قادة الحرس الوطني في فلوريدا بإعادتنا من العراق. لكن ثبت أن

المحاولات كلها لم تجد نفعاً. فقوة الحرس الوطني تحولت إلى قوة اتحادية (فدرالية)، ولم تعد القرارات تُتخذ على مستوى الولاية.

مع تراجع احتمال العودة إلى الوطن وتحوله إلى ضوء باهت مرتعش في الليل العراقي البهيم، تابعنا –مكرهين– القيام بدورياتنا القائمة على نظام مناوبة ثلاثي المراحل، وتشكيل قوة الرد السريع، وأعمال الحراسة. ولم يكن هناك فرق بين أيام الأسبوع ويوم العطلة عند نهايته، ولا حتى إحساس بمرور الأسابيع أو الشهور، ولا بالعطلات، ولا بالبداية والنهاية لأي شيء، بل بمجرد دورة رتيبة من ثلاثة أيام تتكرر إلى الأبد.

على مستوى الفصيلة، كان علينا أداء عدد من الواجبات، إضافة إلى نظام المناوبة الذي تضعه السرية. من هذه الواجبات تنظيف المراحيض البدائية المؤقتة، التي لم تشبه بأي حال الحمامات المترفة التي توافرت في قواعد بعض الوحدات العاملة (المحترفة). فقد كان علينا استخدام براميل معدنية قسمت إلى نصفين ووضعت مقاعد المراحيض فوقها. وعند امتلائها تجرها شاحنة قذرة، ثم يُسكب فيها الوقود لإحراقها. واضطررنا إلى تحريك المخلفات المقززة بقضبان معدنية طويلة لنضمن احتراقها بالكامل، مع محاولة عدم تنشق الأبخرة الكريهة. وتطلب الأمر ساعات قبل تحويل الكتلة المقززة إلى رماد.

من المسؤوليات الأخرى إعادة تعبئة مولّد الفصيلة بالوقود قبل أن ينفد كل اثنتي عشرة ساعة. بحلول هذا الوقت الذي مر على الاحتلال، زودنا بوحدات تكييف الهواء في كل غرفة تقريباً، ومراوح في السقف، وبرادات لكل فصيلة تُستخدم غالباً لتبريد الماء قبل البدء بالدوريات. إضافة إلى

امتلاك كل جماعة جهاز تلفزيون ومشغّل أقراص فيديو، بل إن بعض الجنود ابتاعوا حواسيب وألعاب فيديو، وأخرى تمارس عبر شبكة الإنترنت التي توافرت في موقع قيادة السريّة. وهكذا، كانت الجماعة المسؤولة عن إعادة تزويد المولد بالوقود تتعرض لسخط بقية الفصيلة كلما نفد الوقود وتوقف عن العمل.

كان علينا أيضاً توفير جنود منا للعمل مراسلين ومساعدين لأجهزة المراقبة اللاسلكية في مركز قيادة السرية. وتمثلت مهمة هؤلاء في إيصال الرسائل إلى الجنود كلما تعذر الاتصال بهم لاسلكياً. لكنهم استخدموا موقعهم للدخول إلى شبكة الإنترنت في ساعة متأخرة من الليل، على الرغم من حظر ذلك. وأمكنهم أيضاً، بين الحين والآخر، تجنب الخروج في مهمات. جعلت هذه المزايا العمل في الرقابة اللاسلكية مهمة مفضلة لدى سائر أفراد السريّة. وكثيراً ما أوكلت هذه المهمة إلى الجنود المصابين بجراح طفيفة. لكن بدا أن عدداً من الجنود يكلفون دوماً بهذا العمل المرغوب، مما أثار حفيظة وازدراء رفاقهم.

في بعض الأحيان، اقتصر نشاط الجنود، في الأيام التي لا يخرجون فيها بدوريات، على أداء هذه المهمات السهلة، بل ساعدهم ذلك على الاسترخاء ومشاهدة أفلام الفيديو، وتناول حتى المشروبات الكحولية تحت جنح الظلام. المسكرات محظورة ويستحيل وجودها في متاجر الجيش الأمريكي، ولكن الجنود وجدوا دوماً طريقة للحصول على أفضل أنواعها، حتى في البيئة القتالية. وغالبيتها أتت في أثناء المهمات حيث ينحرف الجنود عن الطريق المحددة للذهاب إلى أماكن تبيعها، أو يشترونها من بعض الأهالي الذين يبيعونها مع غيرها من المواد المحظورة

عند بوابات القاعدة. لكن أكبر كنز من المشروبات الكحولية التي استولت عليها فصيلتنا أتى من مصدر مفاجئ.

عندما وجد قائد كتيبتنا أننا فقدنا كثيراً من عرباتنا بسبب العبوات الناسفة محلية الصنع، أمر قادة السرايا بتنفيذ مهماتهم، مهما كانت غير تقليدية، بطرق تجنبنا المزيد من تدمير المعدات. ومن نتائج هذا التوجيه أننا بدأنا باستغلال حظر التجول المطبق على العراق بأسره لاعتقال الأشخاص الذين يقودون سياراتهم بين الساعة الحادية عشرة ليلاً والرابعة صباحاً. بعد اعتقال السائقين، كنا نختار السيارات التي تعجبنا، ونزودها بالوقود من حاويات مصادَرَة، ونقوم بدوريات سرية في السيارات المحجوزة. عثرنا داخل صندوق إحدى هذه السيارات المصادرة (كابريس Caprice زرقاء قديمة على ما أذكر) على اثني عشر صندوقاً ملآناً بعلب كبيرة من البيرة، صادرنا معظمها بصورة غير رسمية. في الليلة اللاحقة، وجدت فصيلة أخرى قررت أن تستخدم السيارة ذاتها بقية العلب.

ازداد معدل نجاح المتمردين في استخدام العبوات الناسفة محلية الصنع باطراد مع تحسن أساليبهم التكتيكية. أخفق الكمين الأول الذي واجهته فصيلتي لأن المقاومة فشلت في إبطاء العربة الأمامية لضبط توقيت الانفجار بدقة، كما عانى العديد من الهجمات الأولى مشكلاتٍ مماثلة. وأدى هذا الافتقار إلى النجاح في البداية إلى شعور مفرط في الثقة لدى العديد من الجنود الذين استخفوا بسهولة بمهارات المتمردين وتدريبهم وقدراتهم. وتعزز هذا الاستخفاف بقدرات العدو نتيجة مشاعر التمييز والعنصرية المهيمنة على قوات الاحتلال كلها. لقد أدت فكرة أن

«الحجي عاجز عن حكم نفسه» لزوماً إلى مفهوم أن «الحجي عاجز عن إلحاق الأذى بنا».

لم نعرف حقيقة أننا لم نكن نشهد الفصل الأخير للمقاومة اللاحقة على الغزو، بل بداية تمرد شعبي واسع النطاق. سرعان ما تنظم المتمردون فعلاً، وأخذت هجماتهم توقع خسائر مستمرة ومنتظمة بالجنود الأمريكيين وسقط كثير منهم بين قتيل وجريح. حدث أول هجوم ناجح بالعبوات الناسبة محلية الصنع في الرمادي في شهر تموز (يوليو) عام 2003 على طريق مكتظة بالحركة المرورية وتستخدمه العربات العسكرية يومياً. قُتل في الهجوم مدني عراقي وجُرح سبعة آخرون، كانوا جميعهم يسيرون في الاتجاه المقابل للقافلة الأمريكية المستهدفة. أُصيب أيضاً اثنان من وحدة فوج الفرسان الثالث المدرع. فقد أحدهما ساقه نتيجة الانفجار والآخر عينه ومعظم بصره. ولحقت بعربتهما الهمفي أضرار لا يمكن إصلاحها. قرر العقيد قائد الوحدة المعنية، أن الوقت قد حان ليردوا على الهجوم ويبينوا للعراقيين «من هم أصحاب السلطة».

تلقينا أوامر بالتمركز على جميع تقاطعات الشوارع الرئيسة في المدينة في أثناء ساعات منع التجول. أُطلق على المهمة اسم «عملية قطع الطرق». أما الفكرة فكانت تشير إلى أن المهاجمين يأتون من خارج المدينة لزرع العبوات الناسفة ثم يخرجون منها. لكن توضح لمعظمنا أن التمرد ليس بحاجة إلى استيراد منفذين من خارج المدينة. وكان من الجلي أن المتمردين يعرفون مخطط المدينة معرفة دقيقة، وأنهم قادرون على الفرار والاختباء في بيوت السكان المحليين دون إثارة الشبهات. بدا أن المؤشرات كلها تدل على أن المقاومة من تنظيم السكان المحليين. وفي الحقيقة، تمثلت

وسيلتنا الوحيدة لمعرفة المتمردين من غير المتمردين في القبض على أفراد يحملون السلاح بالقرب من مكان الهجوم. ولكن نظراً لانتشار السلاح في أيدي السكان كلهم تقريباً، فإن الذين استخدموه ضدّنا قبل لحظة يمكنهم إخفاؤُه في اللحظة اللاحقة، والوقوف هناك لتحيتنا بكل تهذيب، حين نسارع للبحث عن المتورطين في الهجوم الذي وقع للتو.

ربما كان لعجز قائد وحدة الفوج الثالث عن الرد على الهجمات علاقة بقلة عدد الضباط من أصحاب الرتب الرفيعة، الذين يشاركون في العمليات فعلاً، وخشية الضباط الأدنى مرتبة من معارضتهم عندما يخطؤون. وأدى شعورنا بالإحباط الناجم عن عجزنا عن الرد على الذين هاجمونا، إلى اتباع أساليب تكتيكية صممت على ما يبدو لمعاقبة السكان المحليين الذين قدموا لهم المساندة. وغدا هذا جلياً عندما بدأنا بقطع الطرقات في أثناء العملية.

تطلبت الخطة المرسومة للعملية اتباع الإجراءات ذاتها على مدى ثلاث ليالٍ متعاقبة. وكان ذلك خطأ ذريعاً منذ البداية، لأنه تخلى عن عنصر المفاجأة. كان علينا أن نخرج كل ليلة في الوقت ذاته وعلى الطريق نفسها، لاحتلال المواقع ذاتها مدة طويلة. وقابلية هذا النمط للتنبؤ بسهولة فاقم احتمال التعرض للهجمات بمدافع الهاون والعبوات الناسفة محلية الصنع، خصوصاً حين لم تُرسل دوريات استطلاع قبل البدء بالمهمة. ولأن كل فرد في الكتيبة شارك في العملية، لم يكن بالمستطاع تشكيل قوة رد سريع توفر مساندة فاعلة في حالة وقوع هجوم. باختصار، كنا نعرّض أنفسنا لخطر داهم من أجل عرقلة دخول المتمردين إلى مدينة لم يكونوا بحاجة إلى دخولها؛ لأنهم يعيشون داخلها أصلاً.

تذمّر أفراد وحدتي كلهم، وأنا من ضمنهم، من طريقتنا الحمقاء في أداء المهمة، التي وضح أنها تجاهلت قواعد تدريب المشاة، والخبرة القتالية المكتسبة في الميدان، لكن لم يجرؤ أحد على الاعتراض بكلمة أمام القيادة.

في الليلة الأولى من العملية، تجمعت الفصائل عند بوابة عش النسر نحو الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً. زودت كل فصيلة بشاحنتين قديمتين (غير مصفحتين)، إضافة إلى سيارة همفي (غير مصفحة أيضاً) مخصصة لقائد الفصيلة، وعامل اللاسلكي، وعنصر أمن. انطلقت أولاً الفصيلة الثالثة، لأنها مسؤولة عن قطع الطريق الواقعة خارج القاعدة مباشرة، تبعتها الفصيلة الأولى، التي توجهت لوقف حركة المرور على تقاطع مظلم في منطقة ريفية تحاذي نهر الفرات على بعد ثلاثة أميال. وكانت فصيلتي آخر الفصائل المغادرة، واتجهت نحو نقطة تقاطع لخمس طرق، في منتصف المسافة بين الفصيلتين الأولى والثالثة.

باستثناء بعض الانفجارات البعيدة، التي أضاءت بقعاً من السماء الظلماء، والطلقات المتفرقة من وقت إلى آخر، مرت الليلة الأولى للعملية دون حوادث. أوقفنا الشاحنات بعرض الطريق ووضعنا رماة المدافع الرشاشة فوقها لتوفير الحماية النارية للجنود على الأرض. بعد ذلك، نصبنا الأسلاك الشائكة على مسافة نحو خمسين متراً من موقعنا، وثبتنا عليها أضواء كيميائية لتتمكن السيارات القادمة من رؤيتها بوضوح. وضعنا أيضاً علامات مخروطية برتقالية اللون أمام الأسلاك ولوحات كبيرة باللغتين العربية والإنكليزية تحظر المرور في أثناء ساعات منع التجول. واستعنا برجال الشرطة العراقية ليأمروا السائقين بالعودة من حيث أتوا.

بقينا في مواقع قطع الطرق حتى الساعة السادسة صباحاً، أي بزيادة ساعتين بعد انتهاء منع التجول. كان هذا يعني الخروج في دوريات صباحية دون أن نأخذ قسطاً من النوم، ولكن لم يجأر أحد بالشكوى؛ فقد اعتدنا أداء واجباتنا على الرغم من ساعات النوم القليلة، والانتقال من مهمة إلى أخرى دون استراحة.

قال الرقيب الأول آدامز من الفصيلة الأولى بُعَيْد عودتنا من أولى ليالي العملية: «المهمة سيئة ومتعبة، ولكن لا بد من أدائها».

كنا نتحدث داخل المرحاض الملتهب من شدة الحر، لأن جدرانه المعدنية امتصت أشعة الشمس الحارقة قبيل الظهر.

تابع قائلاً، وهو يحمل بيده اليمنى علبة صغيرة من مناديل الأطفال: «أمامنا الآن دوريات. لعلك تعرف مدى إنهاك رجالنا. أقصد أن رجالك منهكون أيضاً، ولكن هذا ما يريدون منا أن نفعل، وهذا ما نفعل».

قلتُ: «أجل. بالمناسبة تقول أُمي إن زوجتك تؤدي عملاً جيداً بحرصها على إطلاع عائلاتنا على ما يجري هنا».

أجاب: «هذا صحيح. ثمة جماعة من الزوجات، من ضمنهن زوجة الرقيب الأول، يقمن بعمل جيد في مجموعة مساندة عائلات الجنود».

«حسناً، اشكُرْ زوجتك نيابة عني كلما تحدثت معها. أبلغها أنها تقوم بعمل رائع».

«سأفعل ذلك بالتأكيد».

أخبرتني أمي أن زوجة آدامز واحدة من أهم النساء اللواتي نظمن مجموعة دعم لعائلات سرية تشارلي، ولكنها لم تبلغني بوجود خلافات

سياسية حادة بدأت تخلق مشكلات بينها وبين عائلات عسكريين آخرين في السرية. فقد برزت حركة وليدة بين أهالي الجنود للمطالبة بعودتهم إلى الوطن. أما الحجج المقدمة فاعتمدت على طول مدة تمركزنا في العراق، وهي مهمة لا علاقة لها بواجبات الحرس الوطني المعتادة، التي تتمثل بالدرجة الأولى في الإغاثة من الكوارث على مستوى الولاية. استندت والدتي إلى الحجج ذاتها بطبيعة الحال، ولكنها أضافت إليها إدانة للحرب، بوصفها حرباً إمبريالية غير مشروعة، وطالبت بعودة جميع الجنود الأمريكيين، لا مجرد أفراد الحرس الوطني في فلوريدا. إلا أن معظم العائلات الأخرى، ومن ضمنها عائلتا الرقيب آدامز والرقيب الأول، أيدت الحرب بحماس.

أنهيت تدخين سيجارتي، ومسحت العرق عن جبهتي بمنديل، وغادرت المرحاض الملتهب إلى الفصيلة. كنا في ذلك اليوم نشكل قوة الرد السريع وننتظر استدعاءنا لدعم الدوريات.

لم ننتظر طويلاً. كنا نشاهد فيلماً على جهاز فيديو محمول يملكه هودجز، موصول بتلفزيون ابتاعته جماعتنا في محطة الغاز. في منتصف فيلم «سقوط البلاك هوك» تلقينا الأمر بالاستعداد. جاء التقرير من الفصيلة الأولى التي تعرضت لإطلاق نيران معادية من مجموعة كبيرة من الأشخاص والسيارات في قلب مدينة الرمادي. كان ذلك خبراً سيئاً؛ لأن المقاومة الأشد شراسة ظلت حتى ذلك الحين تتمثل في هجمات اعتمدت مبدأ «اضرب واهرب». أما الآن، فقد وضح أن مجموعة كبيرة من المهاجمين ومعهم عدة سيارات، تطلق النار على فصيلة مشاة كاملة، انطلاقاً من مكان مكشوف. بدا جلياً أن التمرد يتصاعد ويتفاقم.

تسارعت دقات قلبي وأنا أصعد الشاحنة. صعد قبلي أفراد الجماعة ووجهوا أسلحتهم إلى الخارج، في انتظار عبور «نقطة التحكم بالمخرج»، وهو تعبير معقد للدلالة على «البوابة». جلس ميليغان في الأمام إلى جانب السائق. وجدتُ مكاناً في الخلف قرب باب النزول. كنت على وشك أن أشعل سيجارة عندما ظهر الرقيب الأول، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

«انزلوا من الشاحنات، إنه إنذار كاذب».

سأل أحدهم: «ماذا يجري أيها الرقيب الأول؟».

قال مبتسماً: «الفصيلة الأولى لا تتعرض لأي هجوم. ظن جنودها أنهم يتعرضون لهجوم من حشد كبير، ولكنها مجرد جنازة».

جرت العادة في الرمادي، وربما في معظم العراق، أن يطلق الرصاص في الجنازات والأعراس والمناسبات الاجتماعية الأخرى. وكاد هذا النشاط أن يتحول إلى مأساة. لكن لحسن الحظ أدركت الفصيلة الأولى ما يحدث قبل أن تفتح النار على المشيعين. بسبب هذا الخطأ، انفجرت عاصفة من الضحك أزالت التوتر الذي سمم الجو قبل لحظات.

صرخ أحدهم من إحدى الشاحنات: «أيها الرقيب الأول!».

«ماذا تريد؟».

«هل عجزت الفصيلة الأولى عن قتل الأحياء، فتحولت إلى الأموات؟». ضحك الجميع مرة أخرى.

سأل آخر: «هل بلغ بهم اليأس هذا الحد؟».

نزلنا جميعاً من العربات وعدنا إلى غرفنا، وأشعلنا السجائر قبل أن نتابع الفيلم. بحلول الوقت الذي عادت فيه الفصيلة الأولى من الدورية عرف كل من في سرية تشارلي بخبر الجنازة. استقبل الجنود بالسخرية والاستهزاء، وتقبلوهما بروح رياضية وابتسامات وانحناءات.

ما فاجأ الجميع أن الليلة الثانية للعملية مرّت بسلام، واقتصر الحدث المثير على منع مرور سيارات الإسعاف إلى المستشفى الرئيس في الرمادي، أو إلى أي مستشفى، لأن كتيبتنا طوقت المدينة بكاملها. لم يفهم رجال الشرطة العراقية الذين يحرسون معنا سبب ما يحدث. شرحنا لهم أن سيّارات الإسعاف، وفقا لتقاريرنا، تُستخدم بانتظام لنقل المتفجرات وشن الهجمات على قوات التحالف، ولذلك لن نجازف بالسماح لها بالمرور. إذ يجب على المركبات كلها العودة من حيث أتت أو التعرض لإطلاق النار.

بدت سياسة عدم المجازفة منطقية تماماً في نظري آنذاك. وحين اقترب مني شرطي عراقي وطلب السماح بمرور سيارة إسعاف لنقل امرأة حامل إلى المستشفى، لم أجد ضرورة حتى لاستشارة رقيب الفصيلة.

صرخت في الشرطي: «لا!».

«ولكن يا سيّد، طفل، أرجوك».

«لا، قلت لك لا».

«ولكن، يا سيد، انظر». أراد مني أن أفهم ما كان يحدث.

«أعرف، طفل، نعم». حرّكت يدي أمام بطني لأبين له أنني أعرف أن المرأة حامل، مع أني لم أشاهدها.

قال: «مستشفى» عندما بدأ بالرجوع نحو سيارة الإسعاف، ولعله ظن أنني قصدت أن أقول: «نعم يمكنهم المرور».

صرخت عليه: «لا! أعرف أن العاهرة حامل».

لوّح الشرطي العراقي للممرض الذي وقف خارج السيارة طوال الوقت، للبدء بالتحرك نحونا، بينما واصل السير نحوهم. ركب الممرض السيارة، وشغل المحرك. رفعت بندقيتي وسددتها نحو سيارة الإسعاف، مستعداً لإطلاق النار إذا اقتربت بوصة واحدة. أدرك الشرطي أنني على وشك إطلاق النار، فوقف بين سيارة الإسعاف وبندقيتي. قال وهو يمدّ ذراعيه مشيراً براحتيه: «لا، لا،لا،لا. أرجوك لا تطلق النار».

صاح بضع كلمات إلى السائق، وأعاده من حيث أتى. تملكني شعور مروع، ولكن لم أستطع التخلص من صورة سيارة إسعاف تنفجر وسط موقعنا. أراد جزء مني تفتيش السيارة للتأكد من عدم وجود متفجرات فيها، وخاف جزء آخر حتى من التفتيش. فماذا يمكن أن يحدث، وأنا أعلم أنهم لا يستطيعون قتل نصف جنود الفصيلة، لو قرروا قتلي وحدي؟ فضلاً على ذلك، أنا قائد جماعة والأنسب أن أطلب من أحد جنودي القيام بعملية التفتيش، ولكني لم أرغب في أن يتعرضوا لتلك المجازفة. وحتى لو سمحنا لسيارة الإسعاف بالمرور، كان علينا الاتصال لاسلكياً بنقاط التفتيش الأخرى لتفسح الطريق لها، وتعلم أننا خالفنا الإجراءات المتبعة، وتساهلنا في تنفيذها. ويعتمد هذا كله على افتراض سماح ديمريست بمرور سيارة الإسعاف، وهو أمر مستبعد. تساءلت في سري ما الذي سيحدث للحامل، إن كانت في السيارة فعلاً. إلى أين تذهب لتضع طفلها؟ ألح السؤال علي،

ولكن مع صورة سيارة الإسعاف وهي تنفجر. تناهبتني الأفكار المتعارضة، ولكني كنت حيّاً أرزق، وهذا يكفي في الوقت الراهن.

خرجنا في دورية صبيحة اليوم اللاحق، وسررنا بعدم المبالغة في الظهور العلني، وعدم اعتقال الناس دون سبب وجيه. تولّى ديمريست قيادة الفصيلة، بينما كلف وليامز واثنان من الجنود (كانا من رجال الشرطة في الولايات المتحدة) بمهمة تدريب الشباب العراقيين المتطوعين في سلك الشرطة في أحد القصور. كان ديمريست يشجع احترام العراقيين الذين نتفاعل معهم. فنحن نؤدي أساساً مهمتنا ثم نخرج من العراق. هذا هو المبدأ الذي اتبعه، وأيدته أنا تأييداً كاملاً.

مر يوم الدورية بسرعة ودون مشكلات، عندما شاهدنا، في أحد الأحياء الواقعة بين قاعدتنا وقلب مدينة الرمادي، شابين يهربان لدى رؤيتنا. نزلنا من الشاحنات وحاولنا مطاردتهما، ولكن سرعان ما اتضح أننا لن نستطيع اللحاق بهما. وكما يحدث عادة في مثل هذه الحالة، قررنا تفتيش بعض البيوت المجاورة. ظل الإجراء على حاله دائماً: يتمركز فريق خارج البيت لتأمين مداخله ومخارجه، وفريق آخر يدخل البيت لتأمينه من الداخل، ويقوم جنديان بتفتيش كل زاوية من زوايا المنزل.

حتى أكثر البيوت تواضعاً في الرمادي مؤلفة من طابقين أو ثلاثة، في حين يجلس السكان على السطح معاً لشرب الشاي، وتدخين السجائر، والتحدث مع الأصدقاء، وحتى قضاء الليل هناك عندما ترتفع درجة الحرارة، وهذه حالة متكررة في الصيف. قبل القيام بأي عملية تفتيش، يؤمر أفراد الأسرة كلهم، ومن ضمنهم الأطفال والشيوخ، بالتجمع في

إحدى غرف الطابق الأول. في جماعتنا، كان الجندي المكلف دوماً بمراقبة العائلات هو الرقيب رودريغز الأكبر سناً بيننا (50 سنة).

بصفتي قائد جماعة، كنت أتنقل عادة بين الجنود الذين يقومون بالتفتيش والذين يوفرون الحماية داخل المنزل وخارجه. في بعض الأحيان، عندما نؤدي المهمة وقت الهجير، اعتدت فتح الثلاجة في أي منزل نفتشه بحثاً عن الماء المثلج الذي تضعه العائلات العراقية في أوانٍ معدنية أو زجاجات بلاستيكية كبيرة. كنت أشرب وأدعو باقي أفراد الجماعة، دون أن أطلب الإذن من العائلة. بدا ذلك كأنه حقٌّ من حقوقنا، ولم أفكر به قط آنذاك.

كثيراً ما كنت أجلس في غرفة المعيشة في موقع أستطيع منه مراقبة الأسرة المحتجزة في الركن، بعد اختيار مقعد مريح، ووضع خوذتي على الأرض، لكن دون التخلي عن بندقيتي. كان جميع أفراد الأسرة يحدقون إلي من مكان جلوسهم على دثار ممدود على الأرض، ولكني لم أفكر قط بمشاعرهم وأحاسيسهم. بل أجلس هناك وأشرب ماءهم، وقد هدني التعب والحر، وأستعد للانتقال إلى المنزل اللاحق. لم تزعجني قط رؤية الجدّات والزوجات وقد تملكهن الرعب عندما يعتقل رجالهن، مع أني حاولت أحياناً أن أُهَدِّئ روعهن بكلمات مطمئنة، تؤكد أنهم سيعاملون معاملة حسنة، وسيُخلى سبيلهم إن كانوا أبرياء.

لم يساورني الشك في هذه الكلمات قط، ليس في ذلك الوقت على الأقل. فعلى الرغم من كل شيء، نحن من جيش الولايات المتحدة ولم نعامل الأبرياء معاملة سيئة. صحيح أننا عذبنا المعتقلين بحرمانهم من النوم والتهديد بإعدامهم رمياً بالرصاص (في قاعدة الأسد الجوية)،

ولكن هذه مجرد حالات معزولة، الاستثناء لا القاعدة. ولن أعرف إلا بعد نحو عام أن تجاربي مع سوء معاملة المحتجزين تبهت بالمقارنة مع ما حدث في سجن أبو غريب في بغداد. وكما تبين لاحقاً، فإن العائلات التي أنكرتُ ما أصابها من ترويع وذعر كانت تعرف عن جيشنا أكثر مما عرفت.

ما فاجأنا أن الليلة الثالثة من عملية قطع الطرقات انقضت دون هجمات على مواقعنا. لكن جندياً في فصيلتي القديمة فتح النار من مدفعه الرشاش على شاحنة بثماني عشرة عجلة لم تتوقف عند حاجز خارج عش النسر مباشرة، فقُتل السائق. في الحقيقة، توقفت الشاحنة تماماً، لكنها انزلقت ببطء بعد ذلك. وتبين بعد التفتيش اللاحق في «كبين» القيادة المدمر الذي لم يسفر عن وجود أي أسلحة، أن الاحتمال المرجح هو عطل طرأ على المكابح. لكن هذا النمط من قتل المدنيين خطأ لم يعد يثير أي اهتمام أو تعليق من زمن بعيد.

عند عودتنا، صادفت روزادو، الذي بقي في القاعدة متابعاً عمله على جهاز الإرسال بينما كنا نؤدي المهمة. قال: إنه سمع محادثة بين وارفل والعقيد ميرابل، الذي أبلغ النقيب بأننا سنخرج، لليلة الرابعة، في مهمة لطرد العدو.

قال روزادو: «اللعنة يا رجل. لم يكتف هذا اللعين بالمهمة القذرة طوال ثلاث ليال متلاحقة. يريد منا الآن أن نخرج ليلة رابعة. لن يتوقف حتى يسقط قتيل من هذه الكتيبة».

كان روزادو على حق. إذ بدا واضحاً أن العقيد يحاول استفزاز معركة نكون فيها الطُّعْم. كان علينا اتباع الإجراء ذاته الذي اتبعناه ثلاث ليال متلاحقة للمرة الرابعة والخامسة.

بحلول الليلة الرابعة من العملية، استبدل بالتذمر والحسرة مزيجٌ صامت من الرعب والاستياء، بدا محوماً في الجو حين جلسنا في الشاحنات استعداداً للتحرك. ومع أننا شعرنا أن سلسلة القيادة تلعب بأرواحنا لعبة الروليت الروسية، لكن لم يجرؤ أحد على النطق بحرف. دوى انفجاران بعد أن لحقت الفصيلة الأولى بالفصيلة الثالثة في الخارج. فقد استهدفت مدفع هاون الطريق التي نستخدمها للوصول إلى مواقعنا النهائية. لكن القذائف أخطأت الهدف، وأمرت الفصيلة الأولى بالمسير قدماً، ومتابعة المهمة وفقاً للخطة المرسومة. أما نحن فتابعنا تبادل النظر، بصمت مطبق لن يستمر طويلاً للأسف.

جاء صوت ديمريست عبر جهاز لاسلكي (مرسل ومستقبل من نوع موتورولا Motorola) استخدمناه للاتصالات الداخلية، أرسله أقرباؤنا من الوطن: «تعرضت الفصيلة الأولى للقصف. نحن نغادر الآن».

جاءت الإجابات من قادة الجماعات: «علم».

سألتُ: «هل هناك مزيد من المعلومات، حوّل؟».

لم أتلق جواباً، ولعل السبب كمن في صعوبة الاتصال عبر مثل هذه الأجهزة. انطلقنا نحو موقع الفصيلة الأولى، متجاوزين تقاطع الطرق الخمسة عبر طرق بدا أنها مناسبة تماماً للهجمات بالعبوات الناسفة محلية الصنع. كنا في حالة ذعر شديد، لعلمنا أننا نتجه مباشرة نحو جحيم المعركة.

أعلنت الأصواتُ والمشاهدُ التقليدية المعركةَ المحتدمة قبل دقائق من وصولنا إلى المكان. رسم رصاص المدفع الرشاش من عيار 50 مم خطوطاً

نارية على السماء المظلمة، مخلفاً آثاراً من ضياء على امتداد مساره القاتل، كما أمكن سماع أزيز رصاص الأسلحة الخفيفة بالقرب من المكان. احتل جنود الفصيلة الأولى جوانب الطريق، وقد انبطحوا، دون حماية كافية، وراء متاريس من الآجرّ المكسر والنفايات، التي تتكدس في شوارع المدينة والصحراء المجاورة لها.

ومع انتشار الفصيلة الأولى على امتداد جبهتنا لصد هجوم العدو، كان من المستحيل أن نطلق نيران أسلحتنا دون تعريض أفرادها للخطر. كل ما كنا نستطيع أن نفعله هو تأمين مؤخرة التشكيل والانتظار حتى تهدأ المعركة.

مع احتدام القتال، وردت أخبار عن وجود ما لا يقل عن إصابتين خطرتين. كما دمرت عربة الهمفي الأمامية للفصيلة الأولى عند الوصول إما بقذيفة صاروخية، أو بلغم أرضي، ولم يعرف أحد الحقيقة على وجه التأكيد. وأصيب الرامي، الاختصاصي ريسيو، بجراح من الشظايا والرصاص في ساقيه، نزعت اللحم عن ربلة إحداهما، وكاد يموت بسبب النزيف. أما الاختصاصي مايورغا، طبيب الفصيلة، فكان يركب في العربة ذاتها وفقد ثلاثاً من أصابعه. شمل المصابون الآخرون الرقيب الأول ماثيو، الذي أصيب بشظايا في ذراعه، وقائد الفصيلة الأولى الملازم بار، الذي أصيب بشظية في مؤخرة العنق. الناجي الوحيد الذي لم يصب بخدش هو عامل اللاسلكي لدى الملازم. في حين دُمرت العربة.

عندما توقف تبادل إطلاق النار أخيراً، سمعت صوتاً من جهاز اللاسلكي يطلب من ديمريست إرسال جماعة في مهمة للتفتيش والقتل

في أحراش قريبة، حيث اعتقد جندي من الفصيلة الأولى أننا سنجد جرحى من الأعداء في انتظارنا. كنت أعرف المنطقة. فهي تقع بالقرب من الفرات، معتمة ومغطاة بشجيرات منخفضة، وتشكل بقعة ممتازة لإعداد الشراك المفخخة والعبوات الناسفة محلية الصنع. أمكنني سماع صوتٍ داخلي يلح متوسلاً: «أرجوك لا ترسل جماعتي».

صاح ديمريست: «الجماعة الأولى!».

قلت في سري: « اللعنة! لماذا نحن؟ إياك، يا ديمريست، كيف تجرؤ..».

« ميخيا، استعد مع جماعتك. نحن ذاهبون في مهمة تفتيش وتدمير».

«علم، أيها الرقيب!» لم يفاجئ جوابي أحداً أكثر مني في إيمانه وجرأته. «روزادو، غاليغوس، ليستعد كل منكما مع فريقه. سنذهب للبحث عن قتلى وجرحى من الأعداء».

تابع ديمريست: «ميليغان! ستأتي معنا أنت أيضاً».

فكرت: هذا شيء عظيم، إذ شعرت بالارتياح لأننا لن نذهب وحدنا. وبحلول الوقت الذي غادرنا فيه إلى الأحراش، رافقتنا في المهمة الجماعتان الأولى والثانية، إضافة إلى ديمريست والضابط التنفيذي. مررنا في طريقنا بجثة رجل ضخم ملقاة على الأرض. أبعد جنود الفصيلة الأولى، الذي يحرسون المكان حولنا، أنظارهم عن الجثة، ونظروا إلينا ونحن نتحرك خلسة نحو الأحراش المعتمة. لم تكن التعبيرات التي لاحت على وجوههم مشجعة؛ لقد كانت نظرة مألوفة تعبّر عن التعاطف والقلق، لكن مفادها: «من الأفضل أن تموت أنت لا أنا».

ثمة طفل يقف قريباً من الجثة، التي غطيت من قمة الرأس إلى أخمص القدم بملاءة بيضاء. علمت فيما بعد أن الطفل ابن القتيل. حاولت في وقت لاحق أن أتذكر وجه الصبي، وهل كان يبكي أم بدا حزيناً، ولكن كلما حاولت أن أتذكر ازداد إدراكي بوجود لحظات لن تسعفني فيها ذاكرتي.

سرنا قدماً، والخوف يلاحق كل خطوة من خطواتنا، وعملنا على تمشيط الينابيع الصغيرة والأحراش والنباتات الملتفة على ضفة النهر دون أن نعثر على شيء. ولدى عودتنا إلى منطقة آمنة نسبياً، أدركت أن شيئاً يشغل بالي، شيئاً لن يسمح لي بأي قدر من السلام الداخلي، لكن لم أتبين كنهه. خطر لي أنه مرتبط بالجثة التي مررنا قربها في الطريق إلى النهر، ثم العودة منه قبل لحظات. في ذلك الحين، ذهب الطفل الواقف أمامها.

اقتفيت آثار خطواتي، وقلت في سري: إنني سأعود لآخذ معي فونيز، الذي بقي مع جنود الفصيلة الأول. لكن في الحقيقة، أردت إلقاء نظرة أخرى على الجثة. تساءلت: من أين أتت الملاءة البيضاء التي غطتها؟ فقد عرفت أننا لا نحمل مثلها.

توقفت قرب الجثة، وحدقت إليها طويلاً. أقنعت نفسي بأن الملاءة التي تغطيها ليست سوى الثوب الأبيض الذي كان الرجل يلبسه عندما قتل. إذ بدا ملاءة تغطي الجسد فقط؛ لأنه دون رأس. فقد فصل رصاص المدفع الرشاش الثقيل الرأس عن الجسد.

سألني أحدهم فيما بعد: «ألم تشاهده؟».

سألت وأنا خائف من الجواب: «من؟».

«رأسه. كان رأسه ملقى إلى جانبه، عند المنحنى».

أشارت القصة التي انتشرت عقب الحادث إلى أن سيارة اقتربت بسرعة كبيرة من موقع الفصيلة الأولى بعد الهجوم الأول مباشرة، وعندما أخفقت طلقات التحذير في إيقافها، صدر الأمر بتدميرها، وعندها أطلق الرامي مدفعَ الرشاش الثقيل (من عيار 50 مم)، فقتل السائق وقطع رأسه، ونجا الطفل الذي جلس بجانبه بأعجوبة.

بعد التفكير في الحادث ملياً، وسؤال عدد من الجنود الذين قدموا التفاصيل المفقودة، حاولت إعادة بناء روايتي الخاصة عن هذا المشهد المرعب. ربما رأيت شيئاً إلى جانب الجثة، ولكن عقلي اعتقد أنه صخرة. ولكن هل كانت قريبة إلى هذا الحد من الجثة؟ هل رأيت فعلاً أي شيء؟ ولماذا محا عقلي آثار وجهه، والأدلة التي تشير إلى عمره كلها، في حين عرف غيري أنه طفل يقف بجانبها؟ ربما كانت ذاكرتي تخدعني في محاولة لكبت صور قصة ليس من المؤلم سردها فقط، بل تذكرها أيضاً.

قبل انتهاء تلك الليلة المروعة، وقع حادث آخر حوّل إلى حد ما قبولي السلبي بالقدر إلى احتجاج متمرد. كان حديثاً سمعته صدفة. عدنا للتو إلى عش النسر، وتبين أن أربعة جنود قد أصيبوا. اثنان منهم بإصابات خطرة، وواحد في حالة حرجة. كما دمرت إحدى العربات. وكأن ذلك كله لا يكفي فقُطع رأس مدني بريء أمام ابنه الطفل. ولذلك صعب علي تحمل الحديث الذي سمعته بين الرقيب الأول ديمريست والنقيب وارفل:

قال النقيب: «نعم». تساءلت: هل هذه هي المرة الأولى التي استشعرُ الاهتمام في صوته؟ «يقول الأطباء: إن ريسيو أشرف على الموت بسبب النزيف. ومن المحتمل أن يفقد ساقه».

نكس ديمريست رأسه لحظة، وبدا عاجزاً عن قول أي شيء.

تابع النقيب بنبرة حيادية باهتة دون تشديد: «أخبرني العقيد ميرابل أننا سنؤدي المهمة ذاتها ليلة غدٍ».

سأل ديمريست، وهو يرفع بصرة: «المهمة ذاتها بالضبط؟».

أجاب وارفل: «المهمة ذاتها».

قال ديمريست، الذي لم يعتد على انتقاد رؤسائه علناً: «ولكن هذا جنون محض».

تابع النقيب، وقد ارتسمت على وجهه نظرة جدّية: «أعرف. ولكنه يقول: إن علينا إفهام العدو بأننا لسنا خائفين».

كان ذلك نموذجاً نمطياً لاهتمام قيادتنا برأي العدو، أو تفكيرها بسلامة الجنود والمدنيين الأبرياء. إذ إن الأحداث المرعبة في الليلة الرابعة لتلك المهمة العبثية كان بالمستطاع تفاديها بمجرد القيام بواجبنا الذي عرفناه، وتلك حقيقة لم تكن تعني شيئاً للعقيد. والآن يريدنا تكرار ما فعلناه بالضبط مرة أخرى.

قلت لديمريست بعد أن انصرف وارفل: «لا أبداً! أنا آسف أيها الرقيب. ومع احترامي الكامل لك، وأملي بألا تأخذ الموضوع بصفة شخصية، لن أخرج في المهمة غداً».

أجاب رقيب الفصيلة بصوت هادئ: «عليك أن تؤديها. إنك قائد جماعة ورجالك بحاجة إليك...».

سألته، غاضباً: «ماذا يمكن أن أفعل إذا لم يدعنا هذا العقيد المعتوه نؤدي واجبنا اللعين؟».

قال ديمريست بنبرة متعاطفة: «أعرف ما تعني. بل أخبرت القائد أن ذلك جنون مطبق. لكن الأمر صدر من قائد الكتيبة، وعلينا تنفيذه».

قلت، وكدت أصرخ: «يا رجل، اللعنة على قائد الكتيبة! لماذا لا يفعل وارفل شيئاً إزاء ذلك؟».

تابع ديمريست: «لا يستطيع. علينا أن نطيع الأوامر وأن نبذل قصارى جهدنا. لذلك، عليك الخروج إلى هناك وقيادة جماعتك بأفضل طريقة».

«حسناً، لن أخرج أيها الرقيب. وآمل ألا تأخذ الموضوع بصفة شخصية، لكن هذا اللعين يستغلنا لينال الأوسمة والترقيات، ولن أشارك في ذلك أبداً. لماذا لا يأتي معنا إذا كان مهتماً بأن يظهر للعدو أننا لا نخاف؟ لم أشاهده قط هناك».

نظر ديمريست إلي نظرة توحي بأنه يتفق مع معظم ما قلت، ولكنه غير قادر على التخلي عن نحو عشرين عاماً من التدريب العسكري والمفهوم المضلل للولاء الأعمى الذي صاحبه. شعرت أني ألكم جدراناً وهمية صماء من الإسمنت الصلب بقبضتي العارية، وأنا أواجه أعمق المخاوف والإحساس بعدم اليقين. لم أكن راغباً في العصيان، وتملكني الذعر، ولكني شعرت بحتمية المجابهة.

تابعت قائلاً: «أعدك بألاّ أحاول إشعال ثورة أو أي شيء من هذا القبيل، ولكني سأتكلم مع جماعتي وأشرح لجنودها سبب امتناعي عن الخروج غداً، وآمل أن يتبعوني، لأننا لن نؤدي هذه المهمة القذرة».

غادرت عائداً إلى غرفتي، مع الإبقاء على علاقتي الحسنة مع ديمريست، الذي أخبرني أنه سينتظر إلى اليوم اللاحق لإبلاغ النقيب

بموقفي. عندما تحدثت فيما بعد مع جنودي، لم يرد أحد منهم اتباعي، على الرغم من عدم وقوفهم ضدي.

في صباح اليوم اللاحق، عاد وليامز من القصر، حيث أنهى عمله في تدريب الشرطة. تلقى نحو ستمئة من الشبان العراقيين تدريباً للالتحاق بالشرطة، على يدي وليامز واثنين من جنود كتيبتنا. لكن الإثارة التي رافقت تخرجهم تلاشت بسرعة بعد الاحتفال، عندما انفجرت قنبلة خارج مركز الشرطة، أودت بحياة سبعة من الخريجين الجدد، وأرسلت ثلاثة وستين آخرين إلى المستشفى نتيجة إصابتهم بجروح خطرة. ومن بين الخمسمئة الناجين تقريباً، استقال على الفور أكثر من أربعمئة. وعلى أي حال، انتهى التدريب، وعاد وليامز، وأراد أن أقابله بشأن رفضي الخروج في المهمة.

قال وليامز: «إذا لم تخرج الليلة فسوف يعنفونك ويوبخونك، ويجعلونك عبرة للآخرين».

أجبته: «حسناً، سأطلب من المفتش العام إجراء تحقيق في أسلوب العقيد في تعريض أرواحنا للخطر لينال الأوسمة». يمثل المفتش العام الهيئة القضائية في السلك العسكري، التي تتولى التحقيق كلما كانت هناك شبهة في وجود خطأ أو انحراف.

سأل قائد الفصيلة الذي عاد مؤخراً: «وكيف ستثبت زعمك؟ كيف تبرهن أنه يفعل ذلك لينال الأوسمة؟».

«وكيف تفسر انتهاكه لقواعد المشاة كلها؟ وكيف يفسر التخلي عن عنصر المفاجأة؟ وتكرار المهمات ذاتها، بالأسلوب ذاته، مرة تلو المرة؟»

أجاب قائد الفصيلة عابساً: «ليس مضطراً للشرح والتفسير. كل ما عليه أن يفعله هو توجيه اللوم إلى رتبة أعلى، ثم إلى الرتبة اللاحقة، حتى

الوصول إلى الجنرال، إن بلغ الأمر هذا الحد. الآن، هل تظن فعلاً أنهم سيصغون إلى رقيب ويتجاهلون عقيداً؟ لقد فقدت عقلك. من الأفضل أن تقول: إنك خائف من تنفيذ المهمة؛ فتصبح مشكلتك أسهل حلاً».

«المسألة لا تتعلق بالخوف». أزعجني أنه تخلى عني بهذه السهولة، دون أن يصغي جيداً لما كنت أقول، ولكن أقلقه -على أقل تقدير- ما نويت فعله. تابعت: «أقصد أنا خائف فعلاً، لكني سأخرج وأؤدي واجبي إذا سمحوا لي. لكنهم لا يتيحون لنا الفرصة، بل يعملون على توريطنا لنفشل».

قال بإصرار، ورفع حاجبيه كأنه يعرف أنه مصيب في رأيه دوماً خلافاً للآخرين كلهم: «أكرر ما قلته، من الأفضل أن تقول إنك خائف، وإلا سيضعونك في السجن لتصبح عبرة للكل».

تابعت قائلاً: «سأفعل ذلك. حتى لو وضعوني في السجن فثمة الكثير من الأمور المشتركة بيني وبين الشباب في السجن، وسأتمكن من رواية القصة».

قال بإصرار جعلني أعتقد أنني أرفض تنفيذ المهمة بسبب الخوف حسب رأيه: «يكفي أن تقول لهم إنك خائف. يكفي ذلك. سوف يتساهلون معك، وقد تنجو من العقوبة».

قلت بعناد: «لا، يجب أن أعلمهم أن حياتي أهم من أي ترقية. أفضّل الذهاب إلى السجن بدلاً من أن أموت، أو أُقتل، أو أُجرح في سبيل المجد الشخصي لأحدهم. قل لهم: إني أرفض لهذا السبب».

وعد وليامز بأن ينقل إلى القيادة ما قلت، ولكنه لم يفعل. وحين ذهب إلى اجتماع قادة الفصائل مع القائد الأعلى في وقت لاحق من ذلك اليوم،

اكتشف وضعاً لم يكن يتوقعه. فقد تجمع جنود الفصيلة الأولى لدى عودتهم إلى القاعدة بعد الليلة الرابعة من العملية، وعبروا عن غضبهم على ما حدث، وكيف خسروا أربعة جنود في ليلة واحدة، إضافة إلى تدمير عربة. وعندما سمعوا الأمر باتباع الإجراء ذاته في الليلة الخامسة، قرروا رفض تنفيذ المهمة إلا إذا أُعيد تنظيمها بطريقة تهتم بسلامتنا والسماح باستعادة عنصر المفاجأة. وأبلغت مجموعة من قادة الجماعات في الفصيلة الأولى، بقيادة رقيب الفصيلة الجديد، آدامز، هذا الخبر إلى القائد والرقيب الأول.

عندما استدعى وليامز قادة الجماعات لتقديم إيجاز عن مهمة تلك الليلة، وكنت بينهم، خاطبني وكأن شيئاً لم يحدث بيننا. لكن أجريت تغييرات مهمة. فعلينا الآن الخروج في أثناء ساعات النهار لتفقد المواقع قبل احتلالها، والقيام بدوريات على امتداد الطرق والأزقة في منطقة العمليات، حيث يرجح الإعداد لهجمات ضدنا. إضافة إلى ذلك، لن تتوقف الدوريات في أثناء عملية قطع الطرق في المدينة، وسوف تستمر طوال ساعات حظر التجول، مما يصعّب على المتمردين إعداد الكمائن للعناصر التي تبقى في مكان واحد مدة أطول من اللازم. وبدلاً من عودتنا إلى القاعدة عند الساعة الرابعة صباحاً، سنغادر قبل الموعد بساعتين. وهذا يجهض احتمال رسم خطة للهجوم علينا في طريق العودة إلى القاعدة.

مرت آخر ليلة من عملية قطع الطرق دون حوادث أو إصابات. خرجت لأداء الواجب مع بقية الفصيلة، بصفتي قائد الجماعة الأولى، ولم يأت أحد على ذكر رفضي المشاركة في أداء المهمة، ليس وأنا في العراق على أقل تقدير.

تاسعاً

تابعت سريتنا لبعض الوقت، بعد انتهاء عملية قطع الطرق، التمركز في تقاطعات الطرق الرئيسة في الرمادي كل ليلة. أما مناشداتي ومطالباتي بتنفيذ المهمات باستخدام عنصر المفاجأة فقد أُخذت إلى الحد الأقصى، وهذا ما دفعني إلى الاعتقاد بضرورة توخي الحرص والحذر فيما يتعلق برغباتي المرجوة. فبدلاً من إقامة مواقع بارزة وواضحة على مفترق الطرق، ولافتات تحذير، وقضبان الأضواء الكيميائية، وسد الطريق بشاحنات عسكرية، وتمركز الجنود في نقاط محددة لإعادة المركبات من حيث أتت، طلب منا الاختباء خلف الأحراش المجاورة للطرق المعتمة. أما العلامة الوحيدة التي نضعها على قارعة الطريق للدلالة على أنها مقطوعة ومحظورة، فكانت شبكة من الأسلاك الشائكة، تقام على مسافة نحو خمسين متراً أمام موقعنا. خصص لفصيلتي موقع قرب الكمين الذي نُصب للفصيلة الأولى في أثناء الليلة الرابعة من عملية قطع الطرقات، على طريق النهر.

قال وليامز في أثناء اجتماع لقادة الجماعات: «أطلقوا النار على أي سيارة تصل إلى الأسلاك الشائكة».

سألتُ قائد فصيلتنا: «هل قلت: إن العلامة الوحيدة التي تدل على موقعنا هي شبكة الأسلاك؟».

«هذا صحيح».

«وهل نتمركز على طريق النهر، بعد تقاطع الطرق؟».

«صحيح، هذا ما قاله القائد».

ظهرت أمارات القلق على الوجوه في أنحاء الغرفة مع إدراك مضامين الأمر الذي تلقيناه للتو. كان مطلوباً منا التمركز على طريق معتم يؤدي إلى أكبر مستشفى في المدينة، دون وضع علامة أو جنود في الموقع، وإطلاق النار على كل من يصل إليه. وكل أب (أو أم) يأخذ طفلاً لمعالجته في المستشفى لا بد أن يصل إلى الأسلاك. لم تتطلب المهمة بصورة مباشرة قتل المدنيين الأبرياء، لكنها لم تترك مجالاً واسعاً لتفادي حدوث مأساة.

مع ذلك لم يشر أحد منا بكلمة إلى المبادئ اللاأخلاقية الكامنة في مثل هذا الأمر. أطاع الكل دون مبالاة وتابعوا الاجتماع، ودونوا ملاحظات عن كل ما قاله قائد الفصيلة. لقد تبنينا سياسة غير رسمية مفادها: «أطلق النار أولاً، ثم اسأل لاحقاً»، دون نقاش لها، فضلاً على تحديها.

عندما حان الوقت لإبلاغ أفراد جماعتي بتفاصيل العملية، لم أعرف ماذا أقول. شعرت بالارتباك والتشوش وتعارضت الأفكار في رأسي بسبب هذه الأوامر، لكن عرفت أن الطلب من جنودي عدم طاعتها سيعرضنا لخطر الاتهام الجنائي، وأرعبتني تلك الفكرة. أدركت أنني بحاجة إلى التوصل إلى طريقة أسلم لإبعاد الجماعة عن ارتكاب خطأ قاتل يطاردنا شبحه طوال ما بقي من حياتنا، لكن دون تشجيع العصيان بصورة سافرة.

قلت أخيراً بعد أن فكرت ملياً: «لن أطلق النار. لن أطلق النار إلا إذا تأكدت دون لبس بأنهم مسلحون، وشعرت بالتهديد».

لم تكن تلك خطة مضمونة أو معصومة عن الخطأ. فعلى سبيل المثال، كان رجال الشرطة العراقية مسلحين، ولا يرتدون زياً رسمياً، ويركبون في مؤخرة شاحنات مدنية. شعرت أني جبان لعدم اعتراضي علناً على أمرٍ يمكن أن يؤدي إلى قتل مدنيين عزل. نحن نملك الحق برفض تلك المهمة، وعرفت أن من واجبي الاعتراض في أثناء اجتماع قادة الجماعات. لكن فات الأوان الآن.

سأل أحد الجنود: «ولكن لماذا، أيها الرقيب؟».

سرني أن يطرح أحد هذا السؤال.

«لأننا لا نعلم هل يوجد في السيارة نساء وأطفال أم لا. سوف نطلق النار عليهم لمجرد وصولهم إلى شريط أسلاك لا يرونه أصلاً. نحن من سنعيش مع التبريح والعذاب إذا قتلنا الأبرياء. أيها الرجال، ليس النقيب أو العقيد من يضغط على الزناد، بل أنتم، وأنتم، وليس هما، من سيعيش مع التبريح وعذاب الضمير».

تمركزت الفصائل الأخرى في مواقع يمكن فيها رؤية الأسلاك الشائكة بوضوح، وإن غاب جنودها عن البصر. وحسب علمي، لن يصعب عليهم تمييز المدنيين من المسلحين، ولن يطلقوا النار خطأً على الأبرياء العزل.

لحسن الحظ، لم نرتكب نحن مثل هذا الخطأ أيضاً. أدركت أن الأهالي علموا بأننا نصبنا الشراك بجانب النهر، فتجنب معظمهم المنطقة ما

دمنا هناك. أسوأ ما حدث في تلك الليلة والليالي اللاحقة اضطرارنا في مناسبتين اثنتين لحراسة بعض المتفجرات، وهي قنابل مدفعية قديمة من عيار 155 مم تركها شبان عراقيون، في انتظار وصول خبراء التخلص من الذخائر وتفكيك المتفجرات.

بعد نحو أسبوعين تركنا مواقع قطع طريق النهر، لكن قيادتنا تابعت إصدار أوامرها بتنفيذ مهمات يمكن لأعدائنا توقعها بصورة كلية. عملنا على تأمين (وتطهير) الامتداد ذاته من الطريق الرئيسة رقم 10، بالطريقة ذاتها، وفي الوقت ذاته، في كل يوم. عرفنا جميعاً حتمية حدوث ما لابد أن يحدث، ولم يطل انتظارنا. ففي يوم مروع، حين قامت الفصيلة الأولى بعملية لتطهير الطريق وتأمينه، انفجرت عبوة ناسفة محلية الصنع، دمرت عربة الرقيب الأول آدامز، واخترقت شظية خوذته ودخلت جمجمته.

كنا في صباح ذلك اليوم نؤدي مهمة قوة الرد السريع، وأسرعنا إلى موقع الهجوم بأقصى ما استطعنا، ولكن، كالعادة، تأخرنا كثيراً؛ لقد هرب المهاجمون. عدنا إلى القاعدة، لنجد سرية تدهورت روحها المعنوية، إضافة إلى ما تبقى من عربة الرقيب آدامز المدمرة. لطخت بقع الدم مقاعد العربة والوشاح الأخضر الذي يلفه آدمز حول عنقه، والمرمي الآن على أرضية العربة الرملية اللون. أصيب آدامز بجروح خطرة في رأسه، ربما تؤثر بصورة دائمة في قدراته الحركية ومهاراته الذهنية. كانت تلك أخطر إصابة عانتها سريتنا حتى ذلك الحين.

مع ذلك لم تتوقف المهمات العبثية؛ ولا الخسائر في صفوف جنودنا، ولا تدمير عرباتنا. أصيب أحد أصدقائي، الرقيب ماريو فيغا، بجروح من

انفجار عبوة ناسفة محلية الصنع، حيث ألقاه الانفجار على مقعد خشبي في مؤخرة الشاحنة التي كان يركبها، فأصيب الجزء الأسفل من ظهره وذراعه اليمنى، وسبب له عمىً مؤقتاً. نقل إلى مركز طبي قريب، وكان يجب أن يحول من هناك إلى عيادة مناسبة لإعادة التأهيل. ولكن بدلاً من ذلك أُعيد إلى القاعدة، مع أن الوهن والعمى لم يمكناه من النزول من الشاحنة دون مساعدة. وفيما بعد اضطررت لإطعامه بيدي في قاعة الطعام، لأنه عجز عن الأكل بمفرده.

قال مشتكياً: «إذا كانت إصابتك خطرة بحيث تتطلب نقلك من وحدتك لمعالجتك، فمن المفروض أن يرسلوك إلى خارج منطقة القتال لكي تتعافى، لا أن يعيدوك إلى قاعدتك. هذا ما قاله الأطباء على أقل تقدير».

سألته، وأنا ألقمه ملعقة من البيض المخفوق: «إذاً، ماذا حدث؟ لماذا أنت هنا الآن، وليس في مستشفى مكيف الهواء لتتعافى؟».

قال، وقد شم رائحة البيض دون أن يتمكن من رؤيته: «حسناً، عندما كنت على وشك أن أغادر إلى المستشفى المناسب، أبلغني أحد الأطباء أن قائدي اتصل لاسلكياً ومنعني من الذهاب إلى أي مكان، وطلب إعادتي إلى هنا لأداء واجبي».

كافأته على هذه المعلومات بلقمة بيض كبيرة وقطعة من اللحم البارد. ومنحته وقتاً للمضغ.

سألته، قبل أن يستكمل ابتلاع اللقمة: «وماذا حدث بعد ذلك؟».

«ذهبت لمقابلة الرائد، وهو أحد الأطباء العاملين في العيادة».

سألت، دون أن أعرض مزيداً من الطعام: «وماذا قال؟». كانت النظارة السوداء الضخمة التي وضعها على عينيه تحدق بنظرة عمياء خالية من التعبير.

«قال نعم، يفترض أن تنقل إلى مكان آخر لتتعافى».

وضعت الملعقة الخالية على الطبق: «ولماذا لم تنقل؟».

أجاب مدافعاً عن نفسه: «لأن العقيد، طبيبنا، أتى وأخذني».

كان يقصد طبيب سريتنا، وهو عقيد وجراح تجميل في الحياة المدنية. أتذكر أنني أبلغته ذات مرة بأنني أمسكت زجاجة من الزئبق السائل، الذي يستخدمه المتمردون لصنع العبوات الناسفة المحلية. فقد خشيت الإصابة بتسمم. قال: إنه مغرم باللعب بالمعدن السائل، ويجب ألا أقلق إلا إذا أخذتُ رشفة منه.

«إذاً، ما الذي حدث بالضبط؟».

«جاء وسألني: لماذا أطرح الأسئلة على الأطباء الآخرين؟ ثم عدنا إلى هنا».

لم تكن قضية فيغا فريدة من نوعها؛ في الواقع، هناك عدة جنود أصيبوا بجروح خطرة تبرر إرسالهم إلى الوطن للتعافي، ولكنهم أعيدوا إلى السرية. فلو سُمح للجنود بالذهاب، سيظهر خطر تقلص حجم السرية إلى ما دون القوة القتالية المطلوبة. وفي هذه الحالة سوف تُحل ويسرّح أفرادها، فيفقد القائد منصبه.

هناك جندي آخر، خوسيه مانغوال، من الحرس الوطني في بورتوريكو، خضع لعملية جراحية كبيرة لاستئصال البواسير، ووجد صعوبة بالغة في

الحركة بعدها. لكن بدلاً من منحه إجازة للتعافي والنقاهة، احتفظوا به في الرمادي، حيث كان أحياناً يتولى العمل على جهاز اللاسلكي.

ووفقاً لما سمعنا، تعرضت وحدات الحرس الوطني في بورتوريكو لخديعة مضللة منذ البداية. فقد أرسلت إلى فلوريدا بناءً على طلب حاكم الولاية، لكي تتولى تأمين الموانئ والمطارات وحراستها، بينما يُرسل الجنود الآخرون —من أمثالنا– إلى الشرق الأوسط. ولكن ما إن وصلت حتى ألحقت فوراً بوحدتنا وأرسلت إلى الحرب. وشاع بين جنود وأهالي بورتوريكو أن حاكمهم غضب بسبب ما حدث، وأنه يحاول، مع القائد العام المحلي للحرس الوطني، إعادتنا إلى الوطن.

لم يكن ذلك الحادث الوحيد الذي أزعج جنود بورتوريكو الملحقين بوحدتنا. ففي أثناء التدريب في الأردن، أخذ الضابط التنفيذي لسرّية ألفا، وهو أبيض، صوراً رقمية لجنود من بورتوريكو وبعض الجنود السود، وعلقها على شكل أهداف للرمي. لم يؤد هذا الاستعراض الوقح للعنصرية إلى أي عواقب وخيمة على الضابط: بل اكتفى بنقله إلى وظيفة إدارية، ربما لوضعه في مكان أكثر أماناً له لا بسبب أي شيء آخر.

لكن المشاعر العنصرية في سريتنا ظلت أقل وضوحاً بصورة عامة. ومع ذلك فقد ظهرت على السطح أيضاً. وذلك عندما أطلق جندي "أبيض" رصاصة عرضاً وهو في مؤخرة عربة همفي، فارتدت من سطح معدني صلب، وأصابت جندياً آخر دون أن تؤذيه بسبب سترته الواقية. وأدت غلطة مشابهة إلى تأنيب شديد لجنديين من أصول لاتينية في فصيلتنا. ولم يتجنب الجندي الأبيض التأنيب فقط، بل نال وسام «القلب الأرجواني».

بدأت المشاعر العنصرية العرضية لدى قيادتنا، مقترنة بتصميمها على إرسالنا مراراً وتكراراً في مهمات عبثية، برأينا، من أجل تعزيز سيرتها المهنية، تولد استياء جدياً في صفوفنا.

ذات ليلة، بعد إنكار النقيب وارفل تأكيده السابق بأنه لن يعود إلى الولايات المتحدة دون شارة المشاة القتالية، طلب منه الرقيب وليامز الاجتماع مع فصيلتنا لبحث المسألة. عُقد اللقاء في غرفة جماعتي، حيث جلس أفراد الفصيلة كلهم، وعددهم اثنان وثلاثون جندياً، على أسرّة خضراء وزعها عليهم الجيش.

قال وارفل محتجاً: «لم أَقُلْ هذا قط. لم أقل إطلاقاً إنني لن أعود دون شارة المشاة القتالية. أودّ نيل الوسام، مثل كل ضابط، ولكن هذا التصريح لم يصدر عنّي».

كان الرقيب وليامز واقفاً بجانبه، يحدق إلينا. وسرعان ما تبيّن أنه غاضب. فعلى الرغم من الشكاوي المستاءة من تعليقات وارفل، لم يكن أحد في الفصيلة مستعداً لتحدي النقيب.

قال وليامز: «ها هو أمامكم الآن، هل تكررون أمامه ما قلتم لي؟».

ومع أني أدين بالفضل لوليامز على وقوفه مع الفصيلة على هذا النحو، إلا أن من الواضح أن ثمة مشكلة شخصية بينه وبين قائد السرية. فقد أراد وليامز أداء المهمات بطريقته الخاصة، وتوقع بانتظام ردة فعل وارفل، الذي أكد في كل مرة سلطته على وليامز. تعلقت آخر مناوشة بينهما بجندي في فصيلتنا اسمه كاراسكيلو، الذي كانت جدته في حالة خطرة جراء مرضٍ عضال في الجهاز التنفسي. الجدة هي التي ربت كاراسكيلو

ورعته، وهذا يمنحه الحق في الحصول على إجازة طارئة لزيارتها. قدم وليامز طلبات عديدة إلى وارفل نيابة عن كاراسكيلو، مستشهداً بإشعارين عاجلين من الصليب الأحمر، يثبتان تدهور حالة العجوز الصحية. ولكن وارفل ظل يرفض الموافقة على طلب الإجازة، بل عبر أمام وليامز عن اعتقاده بأن كاراسكيلو كاذب. عرف كل من في الفصيلة هذا النزاع بين الاثنين.

الآن جاء دور كاراسكيلو لمهاجمة وارفل.

قال: «قلت ذلك يا سيدي. قلت أمام الضباط من مختلف الرتب: إنك لا تريد العودة دون الشارة».

كرر الاتهام جندي آخر كان يجلس في مؤخرة الغرفة: «نعم، أنت قلت ذلك يا سيدي».

سرعان ما علا مزيد من أصوات اللوم، إلى أن ضجت الغرفة بها. ومع أن أحداً لم يكن ينتقد وارفل صراحة، أو يتهمه مباشرة بارتكاب أخطاء جسيمة، لكن مشاعر الاستياء تبدت بوضوح بسبب إخفاقه في حماية جنوده من المطامع الفظة واللاأخلاقية، حسبما شاع على أوسع نطاق، لقائد كتيبة مهوّس بجنون العظمة.

أصرّ وارفل مرة أخرى، وهو يومئ رأسه ويغمض عينيه: «لم أقل ذلك إطلاقاً. لم أقل قط إنني أريد الشارة إلى حد عدم الرغبة في العودة دونها».

سأله صوت مجهول صادر من مؤخرة الغرفة: «إذاً، ما الذي تريده فعلاً يا سيدي؟» خيم الصمت والهدوء على الغرفة.

أجاب وارفل دون تردد: «حلمي في الحياة أن أكون القائد العام للحرس الوطني في فلوريدا، هذا ما أريد».

لم يكن يريد أن يعود الجميع إلى الوطن سالمين وبمعنويات عالية، أو مساعدة الشعب العراقي على بناء الديمقراطية والمجتمع العادل الحر. لقد أخطأ الجواب، ولكن لم يضع أحد خواء المطمح السافر موضع المساءلة. خيم الصمت على الغرفة إلى أن غادر وارفل.

ولكن معظم غضب السرية لم يكن موجهاً إلى وارفل فعلاً، بل استهدف قائد الكتيبة، ميرابل. فقد سرت شائعات منذ البداية تقول إنه يبذل قصارى جهده لتنفيذ أسوأ المهمات لتوريط كتيبته في القتال، بل لإيجاد الظروف الضرورية لخوض المعارك، ولكنها لم تؤثر فينا قبل وصولنا إلى الرمادي والقتال في شوارعها. والحقيقة التي فهمتها من الرفاق أن عبارات من قبيل: «يجب إرسال رسالة إلى العدو بأننا لا نخاف» أو «يجب طرد العدو»، أخذت تبدو مرعبة ومروعة باطراد، لأنها صارت تُترجم عملياً إلى معارك عنيفة وهجمات بالعبوات الناسفة على جوانب الطرق، كان بالمستطاع تجنب معظمها بكل سهولة.

مع تصاعد حالة التوتر والاستياء، سمعتُ شائعات عن تخطيط جنود في وحدتنا لاغتيال ميرابل.

قال لي روزادو في أحد الأيام، بعد عودته من العمل على اللاسلكي: «سمعت أن أحدهم يفكر في تحويل زجاجة ماء إلى كاتم صوت ووصله بماسورة بندقية. أؤكد لك بأنهم يريدون قتله».

لم آخذ كلام روزادو على محمل الجد، على الأقل ليس قبل مرور بضعة أيام عندما دعينا إلى اجتماع استثنائي على مستوى تشكيل السرية، وهو

حدث غير معتاد في بيئة قتالية. وقف أمامنا النقيب وارفل حاملاً صفحة ورق أظهرها لنا. كانت رسالة أتت من داخل عش النسر متضمنة تهديداً بإيذاء ميرابل، بل وعائلته في الولايات المتحدة إذا لم يخطط لإعادة انتشارنا بأسرع وقت. أراد وارفل الحصول على أي معلومة توصله إلى معرفة كاتب الرسالة، وحذر بأن أي جندي يصدر مثل هذه التهديدات يمكن أن يعاقب، وسوف يعاقب وفقاً للمبادئ الموحدة لقانون العقوبات العسكري. لم يقدم أحد أي معلومات، لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر.

بعد وقت قصير من الاجتماع، سمعنا خبراً عن منحنا شارة المشاة القتالية. الشارة تحمل شعاراً لبندقية عتيقة في حالة إطلاق، تتكئ على قمة إكليل من أغصان السنديان يمثل القوة والولاء. جُلب الخياطون المحليون لصنع الشارات وتثبيتها على الجيب الأيسر من صدر سترة الزي العسكري الصحراوي. كان وضع الشارة اختيارياً، ولكن وزعت الشعارات على الجنود كلهم، وألمحت قيادتنا إلى أنها تشجع إلى أقصى حد استعمالها. تلك كانت المناسبة الوحيدة التي تقدم فيها قادتنا الصفوف: كانوا أوائل من زاروا الخياطين لتثبيت شارات المجد قرب قلوبهم.

بعد منح الشارة المطلوبة، بهت إغراء الحياة في الرمادي بسرعة في نظر ضباطنا، مثلما وجدها بقية الجنود قبلهم. ولكن فات الأوان على العقيد ليقول: «حصلت على خبرة القتال التي أحتاج إليها كلها، والآن أريد إعادة وحدتي إلى الوطن». لم تكن الأحداث في العراق تسير وفقاً للخطة المرسومة، والمؤسسة العسكرية بحاجة ماسة إلى أي جندي مشاة يمكن ضمه إلى الجيش. سوف تستبدل وحدة فوج الفرسان الثالث المدرع (التي ألحقنا بها) بنخبة من الوحدات التي نالت أرفع الأوسمة في الجيش

الأمريكي: الفرقة 82 المحمولة جواً. شملت التركة التي ورثها هؤلاء السادة الجدد على الرمادي القصرين الرئاسيين، والمباني الحكومية، وقوات الشرطة المحلية، والمخازن العسكرية، ومنشأة لتناول الطعام (كيلوغ براون أند روت Kellog Brown & Root) مع مستخدميها الأجانب كلهم، إضافة إلى كتيبة المشاة 124 من الحرس الوطني في فلوريدا ، القديمة، السيئة التجهيز والمعدات، التي اختبرت القتال في الميدان. سنبقى هنا، ولن ننتقل إلى مكان آخر.

ومع أننا ملحقون رسمياً بالفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً، إلا أننا نتبع مباشرة وحدة من فرقة المشاة الأولى، المعروفة باسم «الحمراء الكبيرة». حولنا هذا الوضع الغريب إلى حالة من التشرد العسكري إذا جاز التعبير، بحيث يمكن لـ «الحمراء الكبيرة» والثانية والثمانين، أن تشير كل منهما إلى الأخرى عندما يتعلق الأمر بتزويدنا بقطع الغيار، والعجلات الجديدة، والذخيرة التي نحتاج إليها. لم يتول أحد المسؤولية، ولكن الوحدات كلها، ومنها وحدة فوج الفرسان الثالث المدرع، أرادت استخدامنا للقيام بمهمات مشتركة.

في البداية، لم تكن العلاقات على خير ما يرام مع محاربي النخبة المولعين بالقتال من جنود الفرقة الثانية والثمانين الذين وصلوا حديثاً. فقد شعر ضباطهم بالإهانة حين لم نؤد لهم التحية العسكرية، مع أننا في الواقع فعلنا ذلك عمداً لحمايتهم من هجمات القناصة المحتملة. كما أنبوا عدداً من جنودنا ووبخوهم على عدم التزامهم بقصة الشعر العسكرية المعيارية، أو إطالة لحاهم، مع أننا أوضحنا ضرورة ذلك لمساعدتنا على الاختلاط بالأهالي في أثناء دورياتنا السرية الليلية بالسيارات المدنية.

أصدر قائد الفرقة الثانية والثمانين أمراً بمنع وحدات الحرس الوطني من الاستفادة من المخزن العسكري وقاعة الطعام في القصر الرئيس. جرى تحويلنا إلى منشآت من الدرجة الثالثة في قصر أصفر، وهو إجراء لقي كثيراً من الاستياء من أفراد السرية جميعاً. ولكننا، نحن وحدة الحرس الوطني، اعتدنا المعاملة السيئة من المؤسسة العسكرية، كأننا "ابن الجارية" الذي لا يريده أحد. ولذلك، تجاوزنا بسرعة المعاملة المهينة.

أحدث اقتران نيل شارة المشاة القتالية، مع عجرفة الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً وصلفها، تحولاً استثنائياً في موقف قائد كتيبتنا. فبعد أن بدا ميرابل متحمساً لإرسالنا إلى القتال كلما وجد فرصة سانحة، التفت إلينا فجأة طالباً العون في محاولته لإعادة الكتيبة إلى الوطن. كانت المناسبة خطاباً ألقاه أمام سريتنا في الذكرى الثانية لأحداث الحادي عشر من سبتمبر. توقعنا إحياء ذكرى الذين سقطوا في الهجمات الإرهابية وتبريراً وطنياً لاستمرار وجودنا في العراق. بدلاً من ذلك، كما أتذكر، صدم قائدنا جنود المشاة الذين أنهكهم القتال واحتشدوا الآن في الغرفة.

قال: «نحن جنود، وليس من حقنا مساءلة الأوامر أو المهمات. لا يمكننا أن نقول: إن هذا وقت عودتنا إلى الوطن؛ كل ما نستطيع فعله هو أن نقاتل ونطيع الأوامر». توقف، وبدا أنه يفكر لحظة بما سيقوله: «لكن تستطيع عائلاتنا أن تطالب بعودتنا. فهي تملك هذا الحق. زوجتي تعمل الآن مع مجموعة من أفراد عائلات الجنود في فلوريدا لجمع التوقيعات للضغط على السياسيين للقيام بما يستطيعون لإعادة كتيبة المشاة 124 إلى الوطن. ويمكن لعائلاتكم أن تفعل الشيء ذاته، وتستطيعون تشجيعها على الانضمام إلى هذا الجهد في سبيل العودة إلى الوطن».

وضح لي من خطبة ميرابل أنه لم يعد يطيق البقاء في الرمادي، ولم يكن لديه أي دلائل على موعد العودة إلى الوطن، ولم يعد قادراً على التأثير في هذه المسألة. إنها المرة الأولى التي أدركت فيها مدى عجزه وقلة حيلته آنذاك. ومع أنني بقيت مقتنعاً بأنه استخدم نفوذه لإدخالنا إلى العراق بسرعة، وأنه بحث عن المهمات القتالية الصعبة سعياً وراء تحسين سيرته المهنية، إلا أنني علمت الآن أيضاً أنه تجاوز الحدود، وأنه عاجز عن إعادتنا إلى الوطن.

بعد وقت قصير من استماعي لخطبة ميرابل، كتبت رسالة إلى النقيب وارفل أطلب إعادتي إلى الوطن. شرحت في الرسالة تفصيلياً وضعي القانوني، بصفتي جنديّاً في جيش الولايات المتحدة دون جنسية أمريكية - وأنني قبل التمركز في العراق خدمت في المؤسسة العسكرية أقل بقليل من ثماني سنوات، وبموجب قوانين الجيش وأنظمته، تكفي السنوات الثماني لا لمجرد إنهاء العقد الذي وقعته فقط، بل تمثل أقصى مدة زمنية يمكن لغير المواطن الأمريكي البقاء بصورة قانونية في القوات المسلحة. وأشرت إلى أن صلاحية بطاقة الإقامة (green card) على وشك الانتهاء.

بهذه الحجج ذاتها، حاولت دون نجاح العودة إلى الوطن في عدد من المناسبات منذ وقت مبكر من الانتشار، ولكن الإجابات التي تلقيتها من مختلف المسؤولين الذين تحدثت معهم، كانت متماثلة دوماً: «لا تقلق أيها الرقيب، ستكون بطلاً ومواطناً عندما تعود إلى الوطن». لم أكن أريد أن أكون لا بطلاً ولا مواطناً، أردت فقط الابتعاد عن حرب عددتها غير شرعية. ولكن كلما رفض طلبي، قبلت الأسباب التي قدمها المستشارون القانونيون، وسرعان ما أعود إلى وحدتي. وبدا المسؤولون الذين تعاملت

معهم جاهلين بأنظمة الجيش، ولكن ذلك - كما بدأت أكتشف- ليس عيباً هامشياً في النظام، بل جزء لزومي لا يتجزأ منه.

كانت محاولة الابتعاد عن الحرب والخلاص منها أشبه بعبثية مسعى سيزيف الذي حمل الصخرة إلى قمة التل، منها بالمحاولات الواقعية المجدية، خصوصاً وأننا الآن في العراق. فقد رفضت باستمرار طلبات الجنود للذهاب إلى الوطن لرؤية أقرباء يحتضرون، أو أطفال يولدون، أو إنقاذ أعمالٍ تجارية توشك على الإفلاس في غيابهم. وكلما فكرت في طلب إعادتي إلى الوطن أضحك في سري حتى من مجرد الفكرة. ولكني شعرت بين الحين والآخر أن علي المحاولة على أقل تقدير، حتى مع علمي أن الجيش سيكتفي بالهزء مني وإعادتي إلى خطوط القتال.

حاول القائد والرقيب الأول، بعد قراءة رسالتي، حل المشكلة بواسطة تحميل وثائق الهجرة من الإنترنت. ولكن كل ما أمكنهما الحصول عليه مجرد استمارات لإطالة مدة التأشيرات السياحية أسبوعاً أو اثنين. لحسن الحظ، عدّ الرقيب وليامز قضيتي معركة أخرى في حربه المستمرة مع وارفل، وعبر مواصلة ضغطه عليه، توصل أخيراً إلى اتفاق يسمح لي برحلة مدتها ثلاثة أيام إلى قاعدة الأسد الجوية للقاء مع ضابط من الدائرة العسكرية المختصة بالتعامل مع المسائل القانونية.

تغيرت القاعدة كثيراً منذ أن زرتها آخر مرة. فقد تحولت من شبكة كئيبة من ملاجئ الطائرات المدمرة وسط الصحراء النائية، إلى بلدة عسكرية مزدهرة تضم مخزناً متخماً بالمؤن، ومركزاً للاتصالات السلكية واللاسلكية، وبركة سباحة، ودائرة مالية، ومكتب بريد، وكنيسة صغيرة، ومكتباً للشؤون القانونية.

بعد مقابلة أولية أُحلت إلى نقيب اسمه محمد. وهو رجل طويل، أسمر، من أصل عربي على الأرجح، يعمل محامي دفاع في القضايا الجنائية في الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً، أي يدافع عن الجنود الذين يُتهمون بانتهاكات مثل المعاملة الوحشية للسجناء. كما عمل، قبل انضمامه إلى الجيش، في دائرة الهجرة والجنسية. بعد أن راجع قضيتي بسرعة استنتج أن علي تقديم طلب لتجديد إقامتي في الولايات المتحدة عبر الإنترنت. وأبلغني أن من الضروري ربما إرسالي إلى الوطن في وقت ما في أثناء عملية تجديد الإقامة، وأضاف بأن ذلك سابق لأوانه الآن. وعلى أي حال، فإن الأمر برمته بيد قيادتي.

سألته عن القانون الذي يمنع حالات التمديد بعد الخدمة في الجيش ثماني سنوات لغير المواطن الأمريكي، فادعى أنه لا يعرف شيئاً عنه وطمأنني بأنه لن تكون هناك عواقب سلبية بالنسبة لي، حتى في حالة وجود مثل هذا القانون.

أضاف مع ابتسامة مطمئنة: «لا تقلق، سيستمر راتبك، وستحصل على الفوائد والمزايا مادمت موجوداً هنا».

اكتسحني حينئذ ذلك الشعور المألوف بأن الآلة العسكرية ليست مبرمجة لمساعدة الجنود على الخروج من الحرب، خصوصاً إذا كانوا من المشاة. أتى الأمل الواحد والوحيد بمغادرة ذلك المكان بعد أن وجهت سؤالاً أخيراً إلى محمد:

«ماذا لو انتهت صلاحية إقامتي في الولايات المتحدة؟ هل يمكن للجيش أن يحتفظ بي؟».

في هذه المرة، كان محمد أكثر وضوحاً.

أجاب: «لا، إذا انتهت مدة إقامتك يسمح لك الجيش بترك الخدمة».

مع هذه المعلومة عدت إلى الرمادي وأبلغت القيادة بما سمعت. أُمرت بحضور اجتماع في غرفة النقيب وارفل، حيث التقيت أنا وويليامز، فضلاً على القائد، بالرقيب الأول والملازم غرين.

عند دخول الغرفة رأيت النقيب وارفل مضطجعاً على سريره مثل إمبراطور روماني مستبدٍ، ولكن دون طبق العنب. نظر إلى يمينه حيث وقف نوغل وابتسم له برقة. مرة أخرى شعرت كأني أُحاكم عن جريمة تستحق الإعدام: وارفل رئيس المحكمة، ونوغل ممثل الادعاء، وغرين هيئة المحلفين، أما وليامز فكان محامي الدفاع عني.

سألني المدعي: «لماذا لا تتقدم بطلب لتجديد إقامتك من هنا؟».

أجبت: «أيها الرقيب الأول، لدى قضية وصاية في المحكمة تنتظرني في الوطن، وأريد حلها قبل تجديد بطاقة الإقامة».

شرحت في رسالتي إلى القائد أنني رفعت دعوى لإثبات حقي في الوصاية على ابنتي، ونقضتها أمها في المحكمة الابتدائية. في نهاية المطاف، منحني القاضي حقوقاً أبوية، ولكنه حكم بأنني تسببت في مقاضاة لا ضرورة لها للأم، وأمرني بدفع جزء من أتعاب محاميها، وهذا لم أنفذه بعد. في ذلك الحين، أقلقني أن يصبح هذا الدين حجة قانونية ضدي عندما أقدم طلب تجديد الإقامة.

سألني القاضي وارفل: «لماذا لم تعمل على تسوية هذه المسألة قبل مغادرة الولايات المتحدة؟».

أجبت: «كنت أدرس في الجامعة بدوام كامل يا سيدي، لم أكن أملك آلاف الدولارات؛ بل اعتمدت على المنح الدراسية، والقروض، وراتب الجيش لأعيش».

قال النقيب، وكأنه يقاطعني: «نعم، ولكن لماذا لم تحاول إثارة المسألة قبل مجيئك إلى العراق؟». غابت الابتسامة الرقيقة الآن.

«بل فعلت يا سيدي؛ ويمكنك أن تسأل الرقيب الأول».

تبادلت نظرة سريعة مع نوغل، الذي بدا منزعجاً من حقيقة أنني أستغله من أجل قضيتي، ولكنه لم ينكر الادعاء.

تابعت: «بل أقلني مرة من مكتب الاستشارة القانونية في قاعدة فورت ستيوارت».

سأل وارفل، وهو ينظر هذه المرة إلى شيء في يده: «وماذا حدث هناك؟».

«طلبوا مني ألا أقلق، وأننا لن نبقى في العراق أكثر من ستة أشهر، وأنني لدى عودتنا سأكون بطلاً وسأحصل فوراً على الجنسية».

قال الرقيب الأول: «أعرف أن ثمة طريقة لتمديد إقامتك. وأظن أننا نستطيع تمديدها دون أن تضطر للعودة».

تدخل وليامز: «نعم، ولكن ذلك لن يحل مشكلة إقامته عندما يعود. وحتى إذا تمكن من تمديدها، يبقى أمامه حل مسألة عدم دفع أتعاب المحامي، مثلما أمر القاضي، وإلا قد يُحتجز بتهمة تحقير المحكمة».

بدا لي أن وليامز لم تكن لديه أدنى فكرة عما يتحدث عنه، وكدت أضحك، ولكنه تكلم بثقة كأنه محام في نقابة الدفاع عن الحريات المدنية الأمريكية.

تابع وليامز، متجاهلاً المدعي، وموجهاً نظرة حادة إلى القاضي: «يمكن أن يُرحّل من الولايات المتحدة فعلاً، ولديه بنت يجب إعالتها».

تمثلت غلطة وليامز في اعتقاده بأن هؤلاء يهتمون بالجنود وعائلاتهم. عرفت أن الحل الحقيقي الوحيد هو أن نجعلهم يرون إمكانية خسارة جندي إلى الأبد.

قال نوغل: «حالياً، أحاول فقط إبقاءه هنا، وعندما يعود يستطيع أن يهتم بالمسائل الأخرى».

قلت أخيراً معبراً عن رأيي بنفسي: «ما رأيك يا سيدي؟ لماذا لا ننسى كل هذا وتسمح لي بالذهاب في كانون الثاني (يناير)؟ إذ تنتهي مدة إقامتي في شهر آذار (مارس) من العام القادم، وهذا يعني أنه عليّ آنذاك إنهاء الخدمة العسكرية».

تصورت أنني إذا تمكنت من جعل النقيب يفهم أنه يمكن أن يخسرني نهائياً، فقد يرسلني إلى الوطن، على الأقل مدة أسبوعين. هناك يمكنني العمل على الخروج من الجيش إلى الأبد. هدفي الرئيس هو الخروج من العراق.

تابعت محملقاً دون أن أنظر إلى أحد: «امنحني بضعة أسابيع لاستكمال الإجراءات، إضافة إلى شهر إجازة نهاية الخدمة. أي إلى السادس من

شهر مارس، يا سيدي، حين تنتهي صلاحية بطاقة الإقامة. اسمح لي بالذهاب في يناير».

عبس النقيب باشمئزاز من إمكانية تركي الجيش نهائياً.

قال: «سنفكر في يناير عندما يحل يناير. أما ما سنفعله الآن فهو أن نتصل بفلوريدا بالهاتف عبر الأقمار الصناعية، ونتحدث مع الضابط المسؤول في مكتب الشؤون القانونية في الولاية».

قبل أن يتولى النقيب وارفل قيادة سريتنا، عمل موظفاً في الشؤون الإدارية في مقر رئاسة الحرس الوطني في فلوريدا. عرف جميع البيروقراطيين في الوظائف الإدارية. والضابط، العقيد ماسترز، التي سيتصل بها ليست زميلة وصديقة فقط، بل جارته أيضاً.

تابع قائلاً: «إذا وجد من يستطيع مساعدتك فستكون هي».

شابه هاتف الأقمار الصناعية الذي يستخدمه النقيب، هاتفاً خلوياً من التسعينيات، بحجمه الكبير وهوائيه الضخم. وعندما طلب الرقم رماني بنظرة فاحصة.

سألني: «إذا أُتيحت لك فرصة الرحيل عن هذه الحرب غداً، فهل ستقبلها أيها الرقيب؟».

أجبته دون تردد: «نعم يا سيدي، سأفعل». وتساءلت عن رد فعله إذا قلت له إنني معارض للحرب.

«حتى لو بقينا جميعنا هنا؟».

«أجل يا سيدي».

قال وقد ثبت عينيه علي: «لا أعرف كيف يمكنك أن تفعل ذلك. لا أستطيع العيش وحدي».

من الصعب أن أصف شعوري بدقة في تلك اللحظة. فمن ناحية، جعلتني فكرة مغادرة الوحدة أشعر بالذنب، بسبب جنودي على الأغلب. ومن ناحية أخرى، عرفت أن الحرب خاطئة، وأننا نعامل الشعب العراقي بوحشية نتيجة وجودنا هنا. ولكن شعرت أيضاً بحافز يدفعني لأن أُبلغ وارفل أن الرغبة في خوض القتال، وإصدار الأوامر من قاعدة آمنة، أمر يناسب ضابطاً هدفه في الحياة أن يصبح جنرالاً. أما أنا فلي أهداف أخرى في الحياة.

قال، منتظراً الرد من الطرف الآخر من الخط: «يجب أن تعدني، إذا سمحت لك بالذهاب، بأن تهتم بحل مشكلاتك كلها، ثم تعود».

قلت: «أعدك يا سيدي، ولكن يجب أن تعدني أنت أيضاً بأني إذا سرحت من الخدمة حسب القانون، فسوف أنال موافقتك».

«إذا كان القانون يسمح لك، فأعدك».

أمسك شخص على الطرف الآخر السماعة.

«نعم كاتي، مرحباً كاتي، هذا تاد. أكلمك من الرمادي».

ما تمكنت من فهمه من المكالمة أن كاتي فوجئت وسُرّت بسماع صوت «تاد» من العراق الذي مزقته الحرب. ولكن سرعان ما انتهت المجاملات، ربما لأن وارفل عرف أن كل دقيقة تكلف أكثر من دولارين. ولذلك تحول إلى المسائل الجدية.

«نعم كاتي، هل أستطيع أن أتحدث إلى العقيد ماسترز. ليست هنا؟». التفت إلي، وأردف: «إذاً، يمكنك مساعدتي. هناك جندي في سريتي يواجه مشكلات في الهجرة. ماذا؟ ميخيا. نعم، هل تعرفينه؟».

قطب النقيب جبينه، وغطى الهاتف بيده.

سأل: «هل تعرف أي شيء عن تحقيق يجريه الكونغرس في قضيتك؟».

أجبت: «ليست لدي أدنى فكرة». إذ لم أعرف حتى معنى تحقيق الكونجرس.

تابع مع كاتي: «نعم، نعم، إنه هنا، سوف يحدثك»

ناولني الهاتف.

سمعت صوتاً هاتفاً من أقصى العالم يسألني: «الرقيب ميخيا؟».

قلت: «نعم».

«الرقيب كاميلو ميخيا؟».

قلت متسائلاً عما يحدث؟ «نعم هذا أنا».

«مرحباً أيها الرقيب، اسمي كاتي ترنجيالي. وأعمل في مقر رئاسة الحرس الوطني في فلوريدا، سأسألك بضعة أسئلة». لم تذكر أي رتبة عسكرية مما جعلني أظن أنها مدنية.

قلت لها: «نعم يا سيدتي، ولكن كيف عرفت اسمي الأول؟».

«حسناً، ثمة تحقيق في الكونغرس بشأنك. أمك أرسلت رسالة إلى

عضو مجلس الشيوخ بيل نيلسون، من فلوريدا، طالبة إجراء تحقيق في قضيتك. والآن، دعني أسألك، أيها الرقيب...».

كنت في الواقع متشوقاً لسماع ما تريد أن تسأل: «نعم، اسألي، آسف».

«هل قدمت طلباً للحصول على الجنسية؟».

«لا، لم أفعل».

«ومتى انتهت مدة العقد بينك وبين الجيش الذي استمر ثماني سنين؟».

قلت، معتقداً أنها تعرف القانون الذي أشرت إليه في رسالتي إلى النقيب: «في شهر مايو من هذا العام».

كنا في الأسبوع الثالث من شهر أيلول (سبتمبر)، وانتهى عقدي مع الجيش رسمياً قبل نحو أربعة شهور.

قالت: «إذاً يجب تسريحك من الجيش فوراً».

قلت مشيراً إلى التعبير العسكري عن تمديد الخدمة الإجباري في أثناء الحرب: «وماذا عن وقف الخسارة؟».

قالت: «لا يمكن تمديد خدمتك ما لم تكن قد تقدمت بطلب للحصول على الجنسية وحددت المحكمة تاريخاً للحكم».

قلت، وقد تملكني شعور بالإثارة والإنكار في آن: «وماذا عن الحرب الدائرة الآن؟».

قالت: «القانون واضح أيها الرقيب. يجب أن تسرح من الخدمة. وما إن تصبح مواطناً، يمكنك معاودة الالتحاق بالجيش. لكن الآن يجب أن تسرح فوراً».

سألت الحبيبة الآنسة ترنجيالي: «هل يمكنك قول هذا الكلام لقائدي؟».

قالت: «نعم، بالتأكيد ناوله الهاتف».

قلت وقد رغبت في تقبيلها: «حسناً، أشكرك». ثم قلت للنقيب وأنا أعيد الهاتف إليه: « تقول لا بد من تسريحي».

قال مقطباً: «ماذا؟» ثم تحدث بالهاتف: «مرحباً، كاتي؟ مرحباً، كاتي، هل أنت على الخط؟». ثم أضاف وهو يقفل الهاتف بإبهامه ويضعه في جيب سراويله: «انقطع الاتصال».

بدا من الغريب أن ينقطع الخط فجأة بعد الحديث الطويل مع ترنجيالي دون أي مشكلة.

«حسناً يا سيدي، يجب تسريحي فوراً كما قالت».

قال النقيب غاضباً «لم تقل لي هذا. سنجرب مرة أخرى غداً، عندما تكون العقيد ماسترز في المكتب. إنها أكبر مسؤول قضائي في الولاية. وستعرف ما تفعل».

قلت وأنا أبتعد عن النقيب: «علم، يا سيدي».

علمت لاحقاً أن الرسالة التي كتبتها إلى القائد، وأرسلتها بالبريد الإلكتروني إلى الوطن لحفظها في السجلات، سلمتها والدتي إلى عضو في مجلس الشيوخ الأمريكي ليحاول إخراجي من العراق. وبسبب تلك الرسالة جرى تحقيق في الكونغرس (بدأه عضو فيه)، قرر وجوب تسريحي من الخدمة العسكرية. شعرت بأنه مهما ستقول العقيد ماسترز، فلن يؤثر

فعلاً. إذ لا يوجد ما هو أشد تأثيراً ونفوذاً من تحقيق يجريه الكونغرس. وعلى الرغم من قضاء أكثر من ثماني سنوات في الجيش، لم تكن عندي حتى ذلك الحين فكرة دقيقة عن مدى قوة المؤسسة العسكرية.

في الليلة اللاحقة، وقبل نحو ساعة من الموعد المقرر لاجتماعنا، أرسل النقيب في طلبي مرة أخرى مثلما توقعت. ناولني الهاتف للتحدث مع العقيد ماسترز. «رقيب ميخيا، درست قضيتك بعناية، وأظن أننا نستطيع مساعدتك على الحصول على الجنسية. سأرسل إلى قائدك الاستمارات لملئها».

في العادة، أرتاح في الحديث مع النساء أكثر من الرجال، خاصة في الجيش، ولكن أدركت على الفور أن العقيد ماسترز تمثل استثناء.

قلت لها: «نعم، يا سيدتي. أشكرك، ولكن ماذا عن القانون؟ قالت السيدة ترنجيالي إن هناك تحقيقاً في الكونغرس، أظهر ضرورة تسريحي من الجيش».

قالت ماسترز بنبرة فيها شيء من السخط: «حسناً، لم أجد هذا القانون. إضافة إلى ذلك، نحن نسرح من الجيش المصابين بالبدانة، ولكننا لا نفعل ذلك حالياً. أليس كذلك أيها الرقيب؟».

أجبت بارتباك: «لا أعرف يا سيدتي». تُرى، لماذا تتحدث عن البدانة.

«لا نسرحهم!».

سألتها متلعثماً: «ولكن ماذا عن التحقيق في الكونغرس، وحقيقة أنني قضيت المدة المطلوبة في الخدمة العسكرية دون التقدم بطلب الحصول على الجنسية؟».

قالت باستعجال جعلني أتساءل عن سببه: «إذا كنت جاداً في أن تصبح مواطناً فعليك ملء الاستمارات التي سأرسلها إليك وإعادتها إلي بأسرع ما يمكن. بعد ذلك يجب أن يتصل النقيب وارفل بالمكتب القانوني في بغداد ليعرف ماذا يفعل مع الجنود الذين هم في مثل وضعك».

سألت «المكتب القانوني؟».

«نعم، سأخبره عنه. في هذه الأثناء، عليك أن تعيد إليّ الاستمارات كلها. وسوف نساعدك لتحصل على الجنسية».

لم أرغب بأن أبدو معادياً للوطن، ولكن بدأت أتساءل عن سبب إصرارهم على جعلي مواطناً أمريكياً. طلبت في البداية العودة إلى الوطن لتجديد بطاقة الإقامة التي ستنتهي صلاحيتها قريباً. والآن، يبدو كل شيء مركزاً على أن أصبح مواطناً أمريكياً على الفور.

بعد الحديث مع العقيد ماسترز، عدت إلى غرفتي، ولم أكن راغباً في الواقع بحمل الصخرة إلى قمة التل مرة أخرى. كل ما يمكنني فعله هو محاولة الحفاظ على جسدي وروحي معاً ريثما تنتهي هذه التجربة مع الحرب. وعلى الرغم من خيبة الأمل بسبب اضطراري للبقاء، إلا أنني سررت باقتراب النهاية. لقد حاولت، على أقل تقدير، ويمكنني الآن العودة إلى جنودي لإبلاغهم بأني لن أتركهم. أطلعت اثنين منهم على الرسالة التي كتبتها، وعرفوا جميعاً أنني حاولت الخروج من العراق. لم يظهر أحد غضبه على رغبتي في الرحيل، بل يمكنني القول إنهم فضلوا بقائي.

بعد يومين، في الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر عام 2003، سلّم عامل اللاسلكي رسالة إلى الرقيب وليامز. فقد تحدث النقيب وارفل باللاسلكي

من القصر الشمالي، حيث عقد لقاء مع العقيد ميرابل وغيره من قادة السرية. وافقت الإدارة في الجيش على برنامج استراحة واستجمام يسمح للجنود الذين خدموا في العراق عاماً أو أكثر بإجازة مدة أسبوعين في الوطن. تسلمت كتيبتنا عشرين إجازة من هذا النوع.

قال وليامز وهو يقف أمام باب غرفتي: «القائد يريد أن تكون في المجموعة الأولى».

نجح أفراد الجماعة في حجب الضوء عن مهاجع النوم. وحين فتح وليامز الباب، غمر ضوء ساطع الغرفة، وبحثت عيناي عن ظله لاستعادة قدرتهما على الإبصار.

سألته وقد صدمني التطور الجديد المفاجئ، لكن احتفظت بهدوئي: «ألن ترسل غيري؟ ربما سأبقى هناك».

رد الشبح المعتم: «حسناً. ماذا يريدون بحق الجحيم؟ إقامتك على وشك الانتهاء».

قلت بإصرار: «نعم، ولكن مدة الإجازة أسبوعان فقط. ويريدون أن أعود مجدداً».

«لا تقلق بهذا الشأن».

تساءلت هل كان وليامز طيباً معي، أم أنه انحاز إلى صفي نكاية بوارفل. مهما كان السبب، لم يبد معارضاً لاحتمال مغادرتي العراق نهائياً. ربما خطر له أن هذه فرصة سانحة للتخلص من قائد جماعة اعتاد مساءلة سلطته.

تابع بإلحاح: «ما الذي يريدون فعله بحق الجحيم؟ انتهت مدة بطاقة الإقامة، ويجب أن تسرح من الجيش، فماذا سيفعلون؟».

قلت «لا بأس، يا وليامز».

«إذاً أسرع. يجب أن تكون مستعداً للتحرك في غضون ساعة». أغلق الباب، وتركني في العتمة لأفكر ملياً بضع دقائق.

جمعت بعض الأشياء الأساسية لحملها معي. فيما يتعلق بالذخيرة، علينا أن نأخذ مخزناً واحداً، لكن دون قنابل يدوية أو معدات خاصة. وما إن أصبحت على أتم الاستعداد، بحثت عن جنودي كلهم لأودّعهم.

سألني إستيم: «هل ستعود أيها الرقيب؟».

قلت: «لا أعرف. ربما لن أعود».

تمنى لي حظاً طيباً وعانقته لحظة. ثم جاء مانتيلا حاملاً مغلفاً أصفر.

قال: «أريد منك معروفاً، سلم هذا لزوجتي؛ ها هو رقم الهاتف».

«حسناً، لا تقلق، سأسلمه لها».

«حسناً، اهتمّ بنفسك».

حين خرجت من المبنى التقيت بنوغل، الذي حمل استمارات طلبات الإجازة لجنود سرية تشارلي كلهم. وبصفتي رقيباً أول، كنت الجندي الأعلى رتبة الذي يغادر السرية. تلقيت أوامر بإرسال رد بالبريد الإلكتروني إلى الرقيب الأول بمجرد الوصول إلى الولايات المتحدة، يؤكد وصولنا بأمان، ويحدد بالتفصيل من تاريخه بدء إجازة الأسبوعين رسمياً.

عندما صعدت إلى الشاحنة وصل النقيب وارفل قادماً من اجتماع القيادة. نظر إلي مبتسماً.

قال: «عملت على ضمك إلى هذه الرحلة؛ لأني أردت أن تهتم بمشكلاتك في الوطن. أتوقع منك أن تجد حلاً لها قبل أن تعود».

«سأهتم بكل شيء يا سيدي».

كانت تلك آخر كلمات قلتها للنقيب وارفل عندما بدأت مغادرة العراق.



عاشراً

كنت واحداً من نحو عشرين جندياً من كتيبة المشاة 124-1 على متن شاحنتين قديمتين من وزن خمسة أطنان في طريقنا إلى قاعدة الأسد الجوية، في المرحلة الأولى من رحلتنا إلى الوطن في إجازة لمدة أسبوعين للراحة والاستجمام. وإضافة إلى العشرين المحظوظين في العودة إلى الوطن، شملت القافلة عربتي همفي سلحت كل واحدة بمدفع رشاش من عيار 50 مم لتوفير الحماية للقافلة في الرحلة المتعبة. ولأن الطريق المباشر إلى القاعدة أصبحت مؤخراً عرضة للعديد من الهجمات بالعبوات الناسفة محلية الصنع ـ قتل أحدها جندياً، وجرح آخر في اليوم السابق ـ تقرر أن نسلك طريقاً أقل استخداماً، قادنا عبر الصحراء إلى مساحات شاسعة مقفرة لا يظهر فيها إلا بعض الرعاة بين الحين والآخر يرعون قطعانهم في بقع معزولة من العشب، أو مجموعة من الأكواخ الطينية وقف سكانها لرؤيتنا ونحن نمر. حاولتُ البقاء يقظاً وبندقيتي مصوبة إلى خارج الشاحنة، وأصبعي قرب الزناد، ولكن شيئاً ما حال دون اهتمامي بواجبي العسكري ذلك اليوم. كأن خوفي قد زال وحل محله لوهلة شيء

آخر، إحساس جديد. سحرتني مناظر الريف التي كنا نعبرها، بمنازلها البسيطة المطوقة بأشجار نخيل صغيرة ومياه نهر الفرات الراكدة؛ صعب علي التشبث بالانتباه واليقظة. كنت بحاجة إلى توديع العراق.

وصلنا إلى قاعدة الأسد، وسلمنا أسلحتنا إلى الرقيب المسؤول عن المعدات في الكتيبة، وهو إجراء يشير إلى الانتقال من البيئة القتالية في الرمادي إلى البيئة الأكثر استرخاء وأمناً في قاعدة الأسد، حيث يرتع الجنود في ترف التجول في أنحاء المنطقة دون لباس الميدان الكامل. قبل استحداث برنامج الإجازة والاستجمام مدة أسبوعين، استخدمت قاعدة الأسد مكاناً يقضي فيه جنود الحرس الوطني استراحة لمدة ثلاثة أيام. أما الآن فقد أصبحت موقعاً للتخلص من "حساسية القتال" إذ جاز التعبير بالنسبة للجنود الذين يغادرون ميدان المعركة.

زارنا في تلك الليلة قس في الجيش قدّم لنا إيجازاً يتعلق بموضوعين اثنين: ركز الأول على إعادة التكيف مع الوطن والأقارب، وتناول الثاني توقي الأسباب التي تؤدي إلى الانتحار. ذكّرني ذلك بالوقت الذي ذهب فيه أفراد فصيلتنا لمقابلة فريق إزالة التوتر الناجم عن القتال بين الجنود في الرمادي، الذي تألف من طبيب نفساني واثنين من مساعديه. بدأت الجلسة بطلب من كل جندي أن يتحدث عن تجربة مر بها في العراق وأثرت في حياته، ويشرح كيف تعامل معها. تناولت القصص كلها معارك خاضها الجنود وحوادث أخرى لها علاقة بالقتال. أما الطرق الموصوفة للتعامل مع مثل هذه اللحظات فقد تراوحت بين القراءة والكتابة وممارسة ألعاب الفيديو. وبعد أن «شارك» كل جندي بتجربته، شجعنا فريق الخبراء على تبادل استخدام طرقنا للتعامل مع التوتر النفسي الناجم عن القتال، ثم غادر.

بدا هنا أيضاً أن الإيجاز أكثر تركيزاً على حماية صورة الجيش من مساعدة الجنود. لكن الجلسة التي امتدت عشرين دقيقة وتمحورت على النصح «بعدم الإقدام على الانتحار» والتحذير منه، لم تتمكن من تخفيف حدة الكرب والتبريح لدى جندي خبر، مثلاً، فظاعة قتل طفل، تماماً مثلما تفشل جلسة علاج جماعي يجريها فريق معالجة التوتر النفسي الناجم عن القتال مع جندي تتعرض حياته للخطر أربع وعشرين ساعة في اليوم.

في نهاية المطاف، فإن قرار قائد الوحدة هو الذي يحدد هل يسمح لجندي عانى التوتر النفسي الناجم عن القتال بالذهاب إلى الوطن أم لا. أعتقد أننا جميعاً عانينا مستوى من التوتر النفسي يُعد مضراً بالصحة النفسية بالمعايير المدنية، وكان من المتعذر، كما هو واضح، إعادتنا كلنا إلى الوطن. لكن من الاستخفاف بالعقل والمنطق والذكاء أن يطلب طبيب نفساني من جندي يجهد لمغالبة التوتر الناجم عن معركة خاضها من مدة قريبة، أن يمارس ألعاب الفيديو.

في صباح اليوم اللاحق ركبنا حوامة من طراز شينوك Chinook لتنقلنا إلى مطار بغداد الدولي، الذي تولى حمايته الجنود الأمريكيون، ولكنه ضم أيضاً جنوداً أستراليين وبريطانيين. تغير المشهد في المطار منذ وصولنا للمرة الأولى في شهر نيسان (أبريل). ففي ذلك الوقت، بدا أشبه بمنطقة مهجورة كلياً باستثناء الجنود الأمريكيين والعربات العسكرية التي احتلت المهبط وصالات الركاب المدمّرة. ووفقاً لمستوى الإجراءات الأمنية التي رأيتها الآن، لم أشعر بأن التمرد قد تراجع، ولكننا استمتعنا في إحدى الصالات البعيدة بوجبة شهية في مطعم فخم تديره شركة إطعام مدنية.

بقينا في بغداد يوماً واحداً فقط. في صباح اليوم اللاحق، ركبنا طائرة تابعة لسلاح الجو من طراز سي 130- (C . 130) نقلتنا إلى قاعدة للجيش في الكويت. كانت القاعدة في منطقة مخصصة حصراً للقوات المسلحة الأمريكية، قريبة من مطار دولي على ما يبدو. في أثناء التوقف هنا، تقدمت عملية التخلص من حساسية القتال خطوة أخرى. لم يعد من الضروري ارتداء السترة الواقية أو الخوذة، وكان يكفي إظهار بطاقات الهوية العسكرية للتنقل بحرية بين متجرين لتبديل العملة، ومقهى الإنترنت، ومطاعم الوجبات السريعة، ووكالة السفريات، حيث اشترينا بطاقات السفر التي ستنقلنا إلى ديارنا من مطار بالتيمور ـ واشنطن الدولي، آخر محطة يدفع الجيش أجرة الوصول إليها.

بعد قضاء يوم واحد في الكويت، ركبنا طائرة تجارية إلى فرانكفورت في ألمانيا. كانت تلك أول طائرة تجارية أركبها منذ رحلتي الأولى إلى الشرق الأوسط في شهر آذار (مارس). منحني الصعود على متنها إحساساً بالجو العادي الطبيعي، وقربني إلى واقع الحياة المدنية المنسية التي ابتعدت عنها كثيراً مذ غادرت الولايات المتحدة. راودني شعور غريب حين وجدت نفسي في "مركبة" لا تبرز المدافع الرشاشة من نوافذها، ولا يتطاير الرصاص حولها، ولا تتعرض لهجمات بمدافع الهاون أو القذائف الصاروخية.

بقينا في ألمانيا ساعتين، لإعادة ملء خزان الطائرة بالوقود، وتلقي إيجاز جديد، عن الإرهاب وقيادة السيارة في حالة السكر هذه المرة. تألف إيجاز الإرهاب من توجيهين اثنين: أولاً، وجوب عدم ارتداء الزي العسكري في الولايات المتحدة لأن الخلايا الإرهابية العاملة هناك قد تحاول قتلنا ـ

أو إلحاق الأذى بعائلاتنا ـ لأننا التحقنا بالجيش. ثانيا، عدم إعطاء أي معلومات عن وحداتنا العاملة في العراق، حتى لو كان السائل امرأة جميلة في حانة. أما الإيجاز عن الموضوع الآخر فكان أبسط كثيراً: «لا تشرب الخمر وتقود السيارة».

قضينا في الرحلة أربعة أيام قبل الوصول إلى بالتيمور. صحيح أن التعب أنهكنا، ولكن الشعور بالارتياح والسعادة بوصولنا إلى أرض الوطن تجلى بكل وضوح. بدا لي ذلك تحقيقاً لحلم مستحيل، عودة مفاجئة لحياة سُلبت مني فجأة أيضاً. عند هبوط الطائرة، رحب بنا قائدها في الولايات المتحدة، ورد الكل بالهتاف والتهليل والتصفيق.

وعند انتقالي إلى الطائرة التي ستأخذني إلى فلوريدا، شعرت أن مزاجي ينوس بين الفرح والكآبة. عرفت أنني سعيد لأني سأرى ابنتي وعائلتي مرة أخرى، ولكن لم أعرف سبباً واضحاً لحزني أيضاً، ربما عرفت بأني سأعود إلى حرب واحتلال كرهتهما. أو يقيني السري بأنني لن أعود، وسأترك أفراد وحدتي في حرب تستعر في أرض لا ننتمي إليها، ولكنها أرض عقدنا فيها أواصر أخوة لا يمكن أن تزدهر إلاّ في خضم فظاعة الحرب.

في بالتيمور بدّلت بطاقة الطائرة، التي كانت في الأصل إلى ميامي، للنزول قبلها في فورت لودرديل. أردت قضاء أكبر وقت ممكن مع عائلتي، بطبيعة الحال، ولكني سمعت أيضاً أن وسائل الإعلام عرفت بوصولنا، فنحن أول مجموعة من جنود فلوريدا تعود إلى الوطن من الحرب، ولم أكن راغباً بمواجهة المراسلين والصحفيين. خشيت ألاّ أتمكن من التعبير

عن معارضتي للاحتلال. ركبت سيارة أجرة من فورت لودرديل، وفاجأت أمي عندما وصلت إلى البيت.

كانت اتصالاتي مع أمي عن الحرب بالغة الصعوبة. كرهت حقيقة أنني أرسلت لمساندة حرب لا شرعية واحتلالٍ استعماري، دون أي اعتبار للقانون الدولي. ولكن مع تعاظم خطورة المهمات، تقلصت أهمية التحليلات السياسية والأخلاقية للحرب، ليحل محلها في نهاية المطاف خوف مهلك من الموت. لم يكن من السهل علي محاولة الحفاظ على الهدوء ورباطة الجأش في أثناء المهمات القتالية، ولكن ذلك لم يكن شيئاً بالمقارنة مع التحكم بأعصابي عند التحدث مع والدتي بالهاتف من العراق. فقد اعتقدت اعتقاداً راسخاً أننا نخوض حرباً من أجل مصالح بضع شركات أميركية كبرى، من أجل النفط، والإمبراطورية. ومثلت مشاركتي في الغزو مصدراً ثابتاً للتمزق الوجداني لديها؛ لأنها، من جهة، آمنت أن للشعب العراقي الحق في القتال ضد احتلال استعماري غاشم، ولكنها من جهة أخرى، خافت من فكرة أن يصيبني مكروه. اتضح هذا الخليط من القلق، والارتباك، والخجل كلما كلمتها بالهاتف، وشعرت بالذنب لوضعها في هذه المحنة المؤلمة.

عندما وصلت إلى منزلها، ركضت نحوي وطوقتني بذراعيها، وضمتني بقوةٍ وقبّلت رأسي. شعرت آنذاك أن في فمها كلام، ولكنها بكت بحرقة وفقدت السيطرة على مشاعرها ولم تتمكن قول شيء. لم أتمكن من الكلام أنا أيضاً؛ أردت أن أبدو قوياً، وعرفت أن صوتي سيخونني. وقفنا متعانقين، والدمع يملأ عيوننا. لم أكن أعرف هل كان ذلك اليوم أسعد أيام حياتي، أم أشدها حزناً.

تمكنت في صباح اليوم اللاحق من رؤية ابنتي للمرة الأولى في تسعة شهور بدت وكأنها بطول العمر كله. اكتسحني الخوف وعدم اليقين. إذ لم يتجاوز عمرها سنتين ونصف السنة عندما غادرت الولايات المتحدة إلى الحرب، وعرفت أنني تغيرت. شعرت أحياناً أنني شخص مختلف كليّا. تُرى هل ستتذكر من أنا؟ هل يمكن لهذا القادم الجديد أن يكون أباً لها؟

دهمتني ذكريات قاعدة الأسد، حين حاولت – وأننا ممدد بين مناوبات الحراسة على الأرضية الإسمنتية خارج الخرائب التي أقامت فيها فصيلتي - أن أمحو ذنوب وخطايا ما كنا نفعله بالاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية. الحقيقة أنني أسأت معاملة السجناء على الرغم من معرفتي بخطأ ذلك، لأنني خفت من اتخاذ موقف يعارض الأوامر التي قوضت مبادئي الأخلاقية. فكيف يمكن أن أعلّم ابنتي التمييز بين الصواب والخطأ والحق والباطل بعد أن ارتكبت هذه الأخطاء والخطايا كلها؟ وأي سلطة أخلاقية بقيت لي لأكون والداً صالحاً؟ مع مرور الوقت في العراق، أصبحت أكثر انشغالاً بالمهمة الوحيدة: النجاة بجلدي. وغدت القضايا الأخرى أقل أهمية باطراد. لكنها الآن، أمام باب منزل سامانثا، عادت لتكتسح كياني كله.

ما إن فتح الباب حتى حملت سامانثا بذراعي. تفحصت وجهي بضع ثوانٍ بجدية كبيرة.

قالت، وقد ارتسمت على محياها ابتسامة عريضة: «أبي».

شعرت بالعجب والرهبة حين اكتشفت كم كبرت في تسعة شهور، ومدى طلاقتها في الكلام. عندما تعانقنا، انحسرت شكوكي السابقة

كلها وتراجعت، وعرفت أنه لم يفت الأوان لإعادة اكتشاف ذاتي القديمة، ولأعود أباً صالحاً لابنتي من جديد.

لكن سرعان ما هدّأ الشعورَ بالإثارة إحساسٌ عميق بالخوف. هل سببت لها معاناة لا تحتمل في مثل هذا العمر المبكر، هل أتخلى عنها مرة أخرى؟ وجدت نفسي أقاوم البكاء مجدداً عندما أخذت سامانثا إلى السيارة، حيث كانت والدتي بالانتظار.

قلت لها، وأنا أثبت حزام مقعد سامانثا: «لقد عرفتني».

أجابت أمي: «بالطبع. كل ما فعلته في غيابك هو الحديث عنك، أليس كذلك يا سامانثا؟».

لم تجب؛ واكتفت بالنظر إلي بصمت. عرفت أن والدتي بذلت قصارى جهدها لأبقى حياً في ذاكرتها، عبر عرض الصور وأفلام الفيديو التي تظهرنا معاً في الحديقة المقابلة لمنزلنا، أو ونحن نلعب في مياه المحيط عندما كانت رضيعة، أو نمضي الوقت معاً في المنزل، نأكل أو نلعب، أو تسجل الإثارة على وجهها الصغير الجميل، حين تمكنت من المشي أولى خطواتها ولما تبلغ ثمانية شهور. والآن، وقد التأم الشمل مرة أخرى، يمكن صنع تاريخ مشترك وتسجيله، ولكن إلى متى؟

جددت استعادة علاقتي مع ابنتي عزمي على الضغط على الجيش لالتزام قوانينه وأنظمته وتسريحي من الخدمة العسكرية. كان لدي بعض الأمل في هذا الصدد. فعلى الرغم من كل شيء، قالت السيدة ترنجيالي، الموظفة المدنية في الحرس الوطني في فلوريدا التي تحدثت معها من العراق: «يجب تسريحك من الخدمة العسكرية فوراً». ومن المؤكد أنها لم

تتحدث عن شيء تجهله، خصوصاً بعد التحقيق الذي أجراه الكونغرس واستحث استقصاء قضيتي. قالت أيضاً: إن القانون واضحٌ، وأثبتت وجود قانون رسمي متبع في الجيش يمنع التمديد الإجباري للجنود غير المواطنين بعد قضاء مدة الأعوام الثمانية.

لم يكن من العسير العثور على القانون الفعلي. توجهت إلى مقرّ رئاسة وحدتي في مدينة ميامي، وشرحت الوضع إلى أحد معاريف السابقين، الذي عمل في شعبة التجنيد. وتبين أنه يعرف القانون، بل كان موجوداً بحوزته، وأخذ نسخاً من الفقرة التي أحتاج إليها لعرض قضيتي أمام الإدارات القانونية في الجيش.

بعد أن اتصلت بالعديد من المكاتب القانونية التابعة لفرقة المشاة الثالثة، أحالوني إلى دائرة الانتقال في قاعدة فورت ستيوارت Fort Stewart، بولاية جورجيا. ولكنهم ادعوا أنهم لا يستطيعون مساعدتي، لأنني مازلت جندياً في الحرس الوطني على الرغم من كوني جندياً عاملاً في الخدمة ومشاركاً في الحرب. وعندما اتصلت بالحرس الوطني في فلوريدا تحدثت مع الرقيب الأول وينغارد، المسؤولة عن الشؤون الذاتية.

قالت بشأن تمديد التعاقد معي أكثر من ثمانية أعوام: «نعم، ما كان يجب أن تمدد خدمتك. ولكن لا نستطيع مساعدتك، لأن لواء المشاة الثالث والخمسين بكامله (من الحرس الوطني في فلوريدا) يخضع لقيادة فرقة المشاة الثالثة. فهي المسؤولة عن تسريحك. لو كنت هنا لتمكنت من تسريحك».

سألتها: «ما معنى لو كنت هنا؟».

أجابت: «أعني في الولايات المتحدة».

عرفت عندئذ أنها ظنت أنني أتصل من العراق. قلت: «ماذا لو أنني الآن في الولايات المتحدة؟».

أجابت، وكأنها شاردة الذهن: «لو كنت في الوطن لتمكنت من تسريحك». تصورتُها تضع السماعة بين رأسها وكتفها، وهي منشغلة بأوراق أمامها.

قلت وقد تجدد الشعور بالأمل: «حسناً، أنا الآن في الولايات المتحدة. في إجازة من العراق مدة أسبوعين».

قالت بسرعة: «لا، لا، لا. ليس هذا ما قصدته. عنيت أنني أستطيع تسريحك عندما تعود وحدتك من العراق».

«ولكنكِ قلتِ للتو ما كان يجب تمديد خدمتي».

«نعم، لكن ليس الآن». بدت وكأنها تتحدث مع طفل يمكن إقناعه بسهولة. «أنت حالياً في إجازة، وإذا لم تعد إلى الخدمة يمكن اتهامك بالتغيب عن الخدمة دون إذن، وأنت تعرف ما معنى ذلك، أليس كذلك أيها الرقيب؟».

التغيب عن الخدمة دون إذن، درجة أدنى من الفرار، تهمة في زمن الحرب عقوبتها قاسية جداً.

أجبت، مدافعاً عن نفسي: «أنا لا أتحدث عن الغياب دون إذن، بل عن حقيقة أنه كان يجب عدم إرسالي إلى العراق أصلاً، وأنت تقولين إنني يجب أن أعود».

قالت بصوت أعلى: «أتعرف، أيها الرقيب، أن من المدهش والغريب فعلاً أنك قضيت في الخدمة مدة أطول من ثمانية أعوام، ومع ذلك لم تصبح بعد مواطناً أمريكياً».

أجبتها «حسناً، أيها الرقيب الأول، لم أفكر كثيراً بالجنسية، ولكني لا أظن أن عدم الحصول على جنسية الولايات المتحدة يجعلني شخصاً سيئاً».

قالت: «لا، لم أقل ذلك».

«يبدو أنك تقولين إن من الممكن انتهاك القانون، ويمكن تمديد خدمتي بطريقة غير قانونية، ولكن ضمن ذلك التمديد غير القانوني، يجب علي الالتزام بقواعد إجازتي القانونية».

ازدادت جرأتي قليلاً آنئذ.

قالت بنبرة تصالحية: «كل ما أقوله هو إنك تنتمي إلى الجيش النظامي العامل. ويجب أن تتبع سلسلة قيادتك».

قلت يائساً: «ما معنى ذلك؟».

قالت، وهي توشك على إنهاء الحديث: «أيها الرقيب، يُقال إن العجلات التي تُحدث صريراً تأخذ معظم الزيت. تابع المحاولة».

شجعني هذا الجواب غير المتوقع، فاتصلت بإدارة نقل الأفراد في فرقة المشاة الثالثة. تحدثت مع الرقيب الأول سامرز التي حادثتها من قبل.

قالت: «نعم، ولكن يجب أن تعود إلى وحدتك، وأن تطلب منها تسريحك قبل أن نتمكن من فعل أي شيء».

«تقصدين أنني يجب أن أعود إلى العراق لأسرح من الجيش، ثم أعود إلى الولايات المتحدة؟».

«أنت الآن في إجازة أيها الرقيب». ثمة نبرة من نفاد الصبر يمكن اكتشافه في صوتها: «يجب أن تعود وإياك أن تنتهك الأوامر وقواعد الإجازات».

حاولت أن أحافظ على هدوئي: «أجل، ولكن لماذا أعود إلى العراق لكي أسرح من الخدمة هنا في الولايات المتحدة؟».

«لا نستطيع أن نسلمك وثائق تسريحك؛ قائد وحدتك هو الذي يجب أن يفعل ذلك، وهو في العراق».

الثقة المفاجئة في صوتها جعلتني أعتقد بوضوح أن الموضوع وصل إلى خاتمته حسب ظنها. يجب أن يوقع قائدي الوثائق، وترى أن ذلك يعني ضرورة العودة إلى العراق. في الماضي، كنت أقبل هذا الحكم بكل بساطة، لأنه يصدر من رتبة أعلى، ولكن ليس الآن.

«إذا تمكنت من إقناع قائدي بتوقيع أوراق التسريح، يمكنك عندها تسريحي هنا، هل هذا صحيح أيها الرقيب الأول؟».

«إذا لم تعد قبل نهاية إجازتك فسوف تتهم بالغياب دون إذن».

«ما من أحد يفكر في الغياب دون إذن»، كنت أقول الحقيقة هذه المرة. «سؤالي هو: هل يجب أن أكون جسدياً في العراق لكي أُسرّح هنا؟ أقصد، إذا كانت معي هنا وثائق تسريحي، موقعة وجاهزة».

بدت أنها تفكر كثيراً في جوابها، أو ربما تفكر بمضامين جوابها ومقتضياته. لذلك قررت أن أساعدها.

«بعبارة أخرى، أيها الرقيب الأول، هل هناك أي قانون يقضي بأن أكون في العراق جسدياً لكي أسرّح من الجيش؟».

بعد توقف قصير للتفكير أجابت: «لا». بدا صوتها الكسول كأنه يحمل عبء الإقرار بالهزيمة.

كانت الكلمة كافية بالنسبة لي. أرسلت فوراً رسالة بالبريد الإلكتروني إلى النقيب وارفل، تشرح بدقة أنني أحتاج إليه ليكتب رسالة إلى ميرابل يطلب موافقته على توقيع وثائق تسريحي. حاولت إظهار احترامي له، وذكرته بوعده لي: إذا كانت الأنظمة تنص على وجوب تسريحي، فسوف أنال موافقته.

أرسل وارفل جواباً غاضباً ومحبطاً، لكنه لم يفاجئني. قال في جوابه: «لا يظهر طلبك قلة الاحترام فقط، بل يعبر برأيي عن الجبن. تأكد أنني لن أكتب مثل هذه الرسالة». وباتباع سلسلة القيادة، كتبت إلى العقيد ميرابل، وشرحت قضيتي بالتفصيل، بل استشهدت بالقوانين ذات العلاقة.

كان ردّ ميرابل أكثر دهاءً وتحفظاً من رد وارفل. قال: إن الضابط المسؤول عن الشؤون الذاتية سينظر في الوضع، ووعد برد سريع، وطلب أن أذكره إذا لم أتلق جواباً في ثلاثة أيام.

قضيت حتى ذلك الحين أكثر من أسبوع في الولايات المتحدة. ومع اقتراب إجازة الأسبوعين من نهايتها، أصبحت توسلات والدتي برفض العودة أشد إلحاحاً. قالت لي مراراً وتكراراً: إن عليَّ البقاء في الوطن بغض النظر عن رأي الجيش حول حقي القانوني في التسريح من الخدمة. بالنسبة لها، كانت الحرب غير شرعية، ولذلك ليس ثمة ما يلزمني بالعودة

إلى خوض غمارها. قدمت لي قائمة بأسماء وعناوين أشخاص ومنظمات يمكنها أن تدعم الجنود المعارضين للحرب، بالرغم من عدم وجود فارين معروفين في ذلك الوقت.

في البداية، اعتمدت الرغبة عن تحدي الجيش علناً على ما أدركت لاحقاً أنه اعتقاد ساذج بأن اتباع الإجراءات الصحيحة، مع ادعاء قانوني مفحم، سيؤديان إلى تسريحي من الجيش. عرفت أن تمديد خدمتي لم يكن قانونياً، وأن الحرس الوطني في فلوريدا، بعد تحقيق الكونغرس، قرر وجوب تسريحي فوراً. ومن المؤكد، كما فكرت، أن الجيش سيحترم أنظمته وقوانينه، خصوصاً وأن عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي مطلع على الوضع.

وهكذا، أرسلت بعد ثلاثة أيام «المذكرة الودية» التي طلبها قائد كتيبتي. ذكر في الجواب أن ضباط استخبارات الكتيبة راجعوا قضيتي ووجدوا أن علي البقاء مع وحدتي حتى انتهاء المهمة، ولا يمكن تسريحي إلا بعد عودتها إلى الوطن. عندئذ فقط، كما أبلغني ميرابل، يمكنني أن أقرر ماذا أريد أن أفعل بحياتي.

بعد الاعتقاد بأنني على وشك أن أترك الجيش والحرب، تملك كياني شعور بالعجز. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ عليّ العودة إلى العراق، لأبطش بالشعب، وأغتصب الأرض، وقد أموت هناك، وضميري المعذب يرفض ذلك كله.

لم أكن واثقاً مما يجب أن أفعل في تلك المرحلة. لم تكن الأنظمة والقوانين في الحقيقة ذات أهمية كبيرة في نظري، ولا قدرة الجيش من

الناحية القانونية على الاحتفاظ بي؛ لم أعُدْ أهتم بذلك كله. الحقيقة أنني احتقرت الحرب ووجودي فيها، ولكني لم أتمكن من قول ذلك للجيش. كان عليّ أن أعود إلى العراق، وأكبت شعوري بالذنب، وقيمي، وضميري، وأعود إلى الحرب وأجد طريقة للبقاء حياً هناك، لا بالجسد فقط، بل بالروح أيضاً. علي العثور على طريقة تقيني خسارة روحي في الحرب، والعودة إلى الوطن محتفظاً بإنسانيتي، لأتمكن من أن أكون أباً صالحاً لابنتي.

كان من المؤلم التفكير بها؛ فهي خاسرة وفقاً للاحتمالات كلها. فإذا عدت إلى الحرب، قد أُقتل بأكثر من طريقة. لم يكن ألم الموت الجسدي هو ما يؤرقني فقط، بل تبريح موت الروح مرات ومرات كلما قتلت إنساناً. لم يكن ثمة فارق مهم بين أن تضغط على الزناد، أو تعطي الأوامر، أو تكتفي باتخاذ موقف المتفرج في مواجهة مهمات عبثية تؤدي إلى سفك دماء الأبرياء. نحن نموت، بالتدريج، كلما سقطت ضحية، إلى أن نفقد الروح، ويتحول الجسد إلى جثة، دافئة تتنفس، ولكنها خاوية من المبادئ والمشاعر الإنسانية.

قد يؤدي عصيان أوامر الجيش إلى الملاحقة القانونية وفقاً لأحكام القضاء العسكري، والمحاكمة العسكرية، وربما إلى الإعدام رمياً بالرصاص! وحتى إذا لم أتلق أقسى عقوبة، قد أزج بالسجن مدة طويلة، ربما خمسة أعوام، أو عشرة. وكيف أستطيع أن أكون أباً صالحاً في السجن؟ قد يغيّرني السجن؟ وهل أكون صالحاً وطيباً بعد خمسة أو عشرة أعوام في السجن؟ وماذا لو قررت والدة سامانثا الهرب بابنتي الصغيرة، فلا أراها مرة أخرى؟ قد يحدث ذلك؛ وإن حدث، أي قوة ستدعمني أمام القانون وأنا «مجرم» سابق ومدان بالفرار من الجيش؟

لا، يجب أن أعود. بإمكاني النجاة بجلدي من الحرب، ومن ثم أرجع إلى الوطن. سبق أن تمركزنا في العراق لأكثر من سبعة شهور، وربما لم يبقَ لنا سوى بضعة شهور قبل عودتنا إلى الولايات المتحدة. يمكن أن أعود وأطيع الأوامر مرة أخرى، وأنجو بجلدي، وأعود إلى الوطن، وأعيد بطريقة ما بناء نفسي وروحي.

ولكن ماذا عن العراقيين؟ لقد قتلنا مدنيين. هل قتلتهم أنا؟ وماذا عن الشاب الذي رمى القنبلة؟ كان بعيداً عنا، ولم يتمكن من إلحاق الأذى بنا، ولكنه رمى القنبلة؛ مع ذلك لم أقتله، أليس كذلك؟

أطلق الكل النار عليه. وماذا عني؟ لم أتذكر أنني أطلقت النار عليه. كان في مرمى بصري، ووجدت بعد الحادث إحدى عشرة طلقة ناقصة من مخزن البندقية، لكني لا أتذكر أنني أطلقتها عليه. إطلاق إحدى عشرة رصاصة يبقى متشبثاً في الذاكرة إلى الأبد، فكيف انمحى من ذاكرتي؟

آه، ولكن ثمة ذكرى عن الحادثة: كان يتحرك ببطء في مرمى بندقيتي؛ ويده توشك على رمي القنبلة، ولكن قبل أن يفعل ذلك مباشرة، فتحنا النار عليه، وهنا توقفت الذاكرة. ثم لاح فجأة غارقاً في بركة من دمه. خرج رجلان من الجمهور رافِعَيْن أيديهما. أخذا القتيل، ثم غابا في الزحام. لقد قتلنا للتو ابن أحدهما. أراه مراراً وتكراراً، وأرى نفسي في غرفة مظلمة، وحيداً، أعد الرصاصات التي أطلقتها على الفتى. قتل! مات! رحل إلى الأبد.

وماذا عن الصور الأخرى، هل هي حقيقية أم متخيلة وموهومة؟ صورة الطفل الذي انمحى وجهه ووقف قرب جثة والده المقطوعة الرأس — هل

توهمتها؟ أصبح يتيماً، أو ربما قتل هو الآخر، وسيبقى دون وجه في ذاكرتي إلى الأبد، لأني لم أرد رؤيته. من السهل إلحاق الأذى بهم، وذبحهم، وقتل أحبائهم عندما يكونون بلا وجوه.

وماذا عن المدنيين السبعة الذين قُتلوا بالقرب من ذلك المسجد البهي ـ ألم يكن لهم وجوه؟ أتذكر واحداً، بل ثلاثة؛ أظن أنني أتذكر ثلاثة وجوه. وماذا عن الرجل المقتول في السيارة؟ لا، لا أتذكر وجهه. أطلقت النار عليه ولكن ربما كان ميتاً آنئذ. كان ذلك قراراً آلياً ولا إرادياً ـ لم أطلب من جسدي أن يصوب البندقية نحوه وأن يضغط على الزناد؛ حدث ذلك دون إرادة مني. كان على بعد أمتار منّي، وأطلقت النار عليه لأني عرفت أنه مذنب. لكن بأي ذنب؟ لا أعرف، لعله مذنب بتهمة إطلاق النار عليه. ولكن كيف غاب وجهه عن الذاكرة؟ كان قريباً مني. لكن لا أتذكر وجهه. انمحت صورته من الذاكرة؟ بلى، ثمة صورة، لاحت وهلة خاطفة. لحم آدمي. أجل، لحم ودم، لم يكن وجهاً، بل لحم ودم ما كان وجهاً ذات مرة. كان ميتاً عندما أطلقت النار عليه. لا بد أنه ميت، يجب أن يكون ميتاً. إنه ميت.

ثم هنالك البنت الصغيرة، الأميرة الصغيرة الجميلة التي جابت شوارع مملكتها، مملكة قمنا باحتلالها وتدميرها. كان وجهها قذراً، لوحته الشمس، ولكنه فائق الجمال. عيناها ساحرتان، ولم يفسد ابتسامتها العذبة الموت والدمار اللذان اكتسحا كل ما حولها. ذكرتني بابنتي.

ولكن فكرت بأني لست الملام. ويجب ألا أقلق من خسارة روحي. أنا جندي. ويجب أن أعود إلى جنودي المشاة واستمر في طاعة أوامر رؤسائي.

هذا ما يفعله الجنود. لا يمكن لومي على ذلك. يمكن لحياتي أن تكون ملكي بعد الحرب. أما الآن فأنا أنتمي إلى الجيش.

قررت الاتصال عبر الخط الساخن بإحدى المنظمات التي تضمها قائمة زودتني بها أمي. منظمة حقوق الجنود في كاليفورنيا، التي تساعد الجنود على حل قضاياهم القانونية. بقي يومان اثنان من إجازتي.

سألتني، تيريزا، مستشارة منظمة حقوق الجنود بنبرة تشي بالقلق: «هل تستطيع أن تطلب تمديد إجازتك؟ سنكون بحاجة إلى مزيد من الوقت للعثور على محامٍ يتسلم قضيتك».

تمديد؟! لم أفكر في ذلك قط. ماذا أقول لهم؟ أنا بحاجة إلى وقت للعثور على محامٍ مدني لتسريحي من الجيش؟ من المستبعد نجاح مثل هذا المسعى.

سألتُ: «كم نحتاج من وقت للعثور على محام؟».

قالت: «هل لديك المال الكافي لدفع الأتعاب؟». بدا صوتها عذباً وتساءلت كيف يبدو شكلها؟

سألت متردداً: «كم يكلفني ذلك؟».

«نحن نريد أمر استدعاء قضائياً، أي أن تنظر محكمة مدنية في قضيتك، فإذا تبيّن أنك على حق، تطلب المحكمة المدنية من الجيش تسريحك. أما أتعاب المحامي الذي سيدافع عن قضيتك فتتراوح بين خمسة عشر وخمسة وعشرين ألف دولار».

قلت فزعاً: «مستحيل!».

قاطعتني، في محاولة لطمأنتي: «لا تقلق، سنحاول العثور على محامٍ يدافع عن قضيتك مجاناً. ولكن هذا سيتطلب بعض الوقت».

سألت: «كم؟».

قالت: «أقصى مدة تستطيع الحصول عليها. لماذا لا تبدأ بالبحث عن محامٍ في منطقتك، بينما تمنحنا مزيداً من الوقت، ثم نتحدث مرة أخرى غداً؟».

قلت، محاولاً مغالبة شعور قوي بالإحباط: «حسناً».

بعد انتهاء الاتصال مع تيريزا، اتصلت بالحرس الوطني في فلوريدا، فأحالوني إلى النقيب المسؤول عن التمديد. تركت لها رسالة على المجيب الآلي.

في اليوم اللاحق، اتصلت تيريزا. لم تكن أخبارها مشجعة.

قالت: «لم أتمكن من العثور على محام إلى الآن. هل استطعت تمديد الإجازة؟».

قلت يائساً: «لا. تركت رسالة على المجيب الآلي للنقيب، ولكن لم أتلقّ منها جواباً».

سألت تيريزا: «هل فكرت في تقديم طلب للتمتع بوضعية المعارض للحرب بدافع الضمير؟».

فوجئت بسؤالها: «المعارض بدافع الضمير؟ أنا؟! لا. تعرفين أنني من المشاة، وشاركت في القتال». حدثتها قليلاً عن تجربتي في العراق.

قالت بهدوء واقتناع: «نعم، أعرف، لا يهم. مازال بإمكانك التقدم بالطلب».

«ولكني لست معارضاً بدافع الضمير».

أصرت بإلحاح: «بلى، أظن أنك معارض بدافع الضمير. أعرف أنك لا تريد العودة إلى العراق. ولكن اسمح لي أن أسألك: هل تريد أن تشارك في أي حرب؟».

في الواقع لم أفكر في ذلك قط. أعرف أن المفترض بالمعارضين بدافع الضمير معارضة الحروب كلها، أما أنا فلست متأكداً أن ذلك ينطبق عليّ. على أي حال، لم يعد ذلك مهماً لأنني حاربت في العراق. ألم يفت أوان الادعاء بأني معارض بدافع الضمير؟

قالت تيريزا مفسرة: «لا، لم يفت. يمكن أن تبدل رأيك بسبب تجربتك في العراق. تبدو أنك تفعل كل ما بوسعك للابتعاد عن الحرب، ويظهر من كلامك أن لديك قناعات أخلاقية قوية ضد الحرب وضد العنف عموماً».

قلت بإصرار: «لا، أطلقت النار على الناس، هل تعلمين ذلك؟ كنت جندي مشاة في الحرب. ولا مفر من ذلك».

قالت: «اسمع، دعني أواصل محاولة العثور على محامٍ. في هذه الأثناء، سأبعث إليك بالبريد الإلكتروني الأسئلة التي يجب أن تجيب عنها لتقديم طلب المعارض بدافع الضمير. أجب عن الأسئلة في انتظار اتصال وحدتك».

وافقت على النظر في الطلب، دون أن أقتنع تماماً. طبعت الأسئلة ووضعتها على المنضدة بالقرب من السرير، وشعرت بتوتر شديد منعني

من قراءتها. تمددت على السرير في العتمة، وفكرت ملياً في الحرب، وفي جنودي، وفي الشعب العراقي. ظلت صور التجارب المرعبة التي خبرناها تلوح أمامي، وأنا في انتظار أن يرن الهاتف. فكرت في ابنتي، ثم غلبني النعاس.

عندما رن الهاتف أخيراً، بدا الصوت عالياً ومفاجئاً. لم أكن راغباً في الرد، شعرت بالذعر. وحين فتحت عينيّ أدركت أن الصباح قد أتى، أي لم يبقَ أمامي سوى يوم واحد في الولايات المتحدة.

سمعت صوتاً أنثوياً عبر الهاتف، بدا سلطوياً وواثقاً: «أنا النقيب آش. هل أنت الرقيب أول ميخيا؟».

قلت وكأني أحتضر: «أجل يا سيدتي».

قالت النقيب آش: «تحدثت مع قائدك النقيب تاد وارفل. إنه قائدك، أليس كذلك؟».

قلت بنبرة أكثر حيوية، لكن خشيت من أتسمع خفقان قلبي: «أجل أيها النقيب، إنه قائدي».

«حذرني من أنك قد تحاول تمديد الإجازة، وقال: إن الأوامر تقتضي عودتك إلى مكان عملك، الرمادي في العراق، بمجرد انتهاء إجازتك».

قلت وقد بدأ العالم ينهار فوق رأسي: «علم، يا سيدتي».

قالت، وهي تواصل غرس الخنجر في قلبي ببطءٍ: « راجعت طلبك. لا أظن أن حجتك قوية لطلب تمديد الإجازة. هل فهمت، أيها الرقيب الأول؟».

«نعم، يا سيدتي».

«اليوم هو آخر يوم لك هنا، أليس كذلك أيها الرقيب؟».

«بلى، يا سيدتي».

«متى تغادر طائرتك؟».

«صباح الغد يا سيدتي».

«حسناً، آمرك مباشرة بركوب تلك الطائرة غداً أيها الرقيب».

«نعم، يا سيدتي».

تابعت: «أنت رقيب أول، وهذا يعني أنك أمضيت زمناً في الخدمة العسكرية، ولذلك أنت تعرف عواقب تخلفك عن تلك الطائرة».

قلت: «نعم، يا سيدتي».

«وأنت تعرف أنك معرض للترحيل من البلد إذا لم تستقل تلك الطائرة؛ لأنك لست مواطناً».

.«نعم يا سيدتي! كما قلتِ: أنا رقيب أول، وقضيت مدة طويلة في الجيش؛ وأعرف العواقب، أيها النقيب». ثمة نبرة وقحة في صوتي، ولكنها تجاهلتها.

أجابت بهدوء: «حسنٌ، أيها الرقيب. أحاول تيقن أنك تعرف ما يمكن أن يحدث».

قلت بقدر ما أستطيع من السخرية: «شكراً لك يا سيدتي، لا تقلقي. أنا أعرف العواقب».

عندما تحدثت في تلك الليلة مع تيريزا، تداعى أخيراً ما تبقى من أطلال عالمي المنهار.

قلت لها: «لم يوافقوا على التمديد. يُفترض أن أستقل الطائرة صباح غد لأعود إلى العراق. ماذا أفعل الآن؟».

لم تجد محامياً إلى الآن.

قالت، وفي صوتها نبرة من اليأس: «لا يمكن أن أطلب منك عدم ركوب الطائرة. كل ما أستطيع قوله هو: سنحاول العثور على محام، وسنعمل على تسريحك من الجيش وأنت في العراق».

«يبدو أنك لا تفهمين». شعرت أني أحتضر وأنا ألفظ الكلمات: «لا يأبهون بالقانون في العراق؛ كل ما يهمهم هو الاحتفاظ بجنودهم هناك. لن يسمحوا لي بالعودة أبداً إذا ذهبت إلى هناك».

«ربما يصغون إلينا إذا وجدنا محامياً، ولكن لا أنصحك بالبقاء». اكتشفت في صوتها مزيجاً من اللطف واليأس.

شعرت أنني وحيدٌ في العالم دون سند أو معين.

«تابع العمل على موضوع المعارض للحرب بدافع الضمير. ولن نتوقف عن محاولة إعادتك من العراق». بدت صادقة ومخلصة، ولكن اكتسحتني حالة من اليأس والخذلان، فقد تخلى الكل عني.

شكرتها بصدق على مساعدتها، ووعدت بأن أبقيها مطلعة على وضعي، مهما فعلت. لكن بعد تلك الليلة لم أسمع صوت تيريزا قط.

استقبلت الصباح في السرير، لكن قضيت الليل مسهداً. عليّ أن أنهض، وأعرف برنامج الرحلة، وأستعد للمغادرة. لم تكن ثمة حاجة للنهوض من السرير فوراً. مازال الوقت مبكراً، وأمامي وقت طويل. شعرت بتعب شديد، وثقل في جسدي. مرت الساعات وأنا ممدد على السرير. لم أعرف بالضبط موعد المغادرة، ولم أنظر إلى الساعة منذ زمن. ولكن عرفت أن من الضروري النهوض. يجب أن أعود إلى العراق. خيم الليل فجأة مرة أخرى. فاتتني الطائرة. قررت أن أعود في اليوم اللاحق. ثم استسلمت للنوم.



الحادي عشر

كانت مدينة نيويورك تغتسل بمطر خريفي بارد، عندما زرت للمرة الأولى مجموعة الدفاع عن حقوق الجنود المسماة «مجموعة الجندي المواطن» التي يقع مقرها في الجادة الخامسة في مانهاتن. مضى نحو أسبوع على النهاية الرسمية لإجازتي، وبداية مدة اختفائي عن الأنظار التي استمرت خمسة شهور في شمال شرق الولايات المتحدة، حيث انتقلت بعد أن عزمت على عدم العودة إلى العراق.

تمثل جزء من سبب الانتقال إلى نيويورك، أكثر مدن الولايات المتحدة تحرراً، في البحث عن «رفاق يواجهون مشكلات مماثلة»، والقرب من أولئك الذين يتبنون المواقف والمشاعر ذاتها تجاه الحرب. ولكن جزءاً آخر من السبب يعود لدواعي الأمان والسلامة. كرهت ترك بيتي وأسرتي، خصوصاً ابنتي، لأعيش حياة الهارب المتخفي تحت الأرض. ولكن لو بقيت في ميامي، سيجعل نظام النقل الجماعي الهزيل تجنب قيادة السيارة أمراً مستحيلاً، ولتعرضت لخطر أن توقفني الشرطة المدنية بسبب مخالفة مرورية، وهي الطريقة الأكثر شيوعاً للقبض على الجنود المتغيبين عن

قطعاتهم دون إذن. إضافة إلى ذلك، ثمة خطر الإبلاغ عني من أفراد وحدة الحرس الوطني التي أنتمي إليها، حين يقضون إجازتهم في الوطن، أو من أقرباء الجنود الذين أعرفهم ويخدمون في العراق.

تبين لي دون لبس فشل محاولة إقناع نفسي بأن العودة إلى العراق هي السبيل الصائب الوحيد. إذ لم تعد الأسباب التي استخدمتها في الماضي ذرائعَ لتبرير المشاركة في الحرب تحمل أي ثقل أو تأثير. مازلت أشعر بألم عميق كلما فكرت بأن جنودي ربما يصابون أو يقتلون وأنا بعيد عنهم؛ لقد جمعتنا علاقة وثيقة في أثناء الحرب، ولم أترك قيادتهم الميدانية دون تفحص دقيق للذات والمشاعر والأفكار. وتوصلت إلى إدراك أن الأفراد يجب أن يتخذوا قراراتهم بأنفسهم استناداً إلى ضمائرهم.

يبرر كثير من الجنود مشاركتهم في الحروب المرفوضة بذريعة القتال دفاعاً عن بعضهم بعضاً. من المؤكد أنني صارعت هذه الحجة، ولكن مهما قلنا عن القتال دفاعاً عن الرفاق، تبقى الحقيقة الصارخة: ليس لنا الحق بغزو العراق واحتلاله. فضلاً على ذلك كله، لقد قبلنا، نحن الجنود، حقيقة أن وجودنا في الجيش يمكن أن يعرضنا للخطر يوماً ما، ولكن هذه الحالة لا تنطبق على الشعب العراقي. فلم يكن أمامه خيار آخر عندما اكتسحته الحرب والاحتلال اللذان فرضناهما عليه بالقوة الغاشمة. قطعنا شوارعه، وتحكمت دورياتنا بطرقاته، واقتحمنا بيوته. بدا لي أن البربرية الحقيقية هي ما جلبناه لهذا الشعب من موت ودمار وخراب.

لكن لم توفر هذه الأفكار التأملية أجوبة سهلة، والحقيقة أنني لم أشعر لحظة واحدة بقدر من وضوح الرؤية دفعني إلى اتخاذ قرار حاسم

بمعارضة الحرب؛ ببساطة: لم أركب الطائرة التي يفترض بي ركوبها. اعتقدت أنني سأسافر على الرحلة اللاحقة، ولكني تخلفت عنها أيضاً، ثمّ عن الرحلة التي أتت بعدها، وهكذا دواليك إلى أن استيقظت ذات يومٍ مقتنعاً بأنني لن أعود إلى العراق.

عرفت في أعماق نفسي أني تخلفت لسبب، وأن هناك غرضاً وراء عودتي إلى الوطن دون الرجوع إلى العراق. عرفت أن الحرب بالنسبة لي أبعد ما تكون عن النهاية، حتى لو لم أرجع إلى العراق؛ بل ربما هي البداية. لن تكون الحرب ذاتها، لن تماثل تلك التي خضت غمارها في طرق الرمادي وأزقتها، ولن تتطلب مني حمل بندقية. لقد انتهيت من ذلك كله. ستكون هذه، أولاً وقبل كل شيء، حرباً تستعر داخل ذاتي، حيث تتصارع مخاوفي وشكوكي مع ضميري، حرباً أخوضها لاستعادة إنسانيتي وحريتي الروحية. ستكون أيضاً حرباً ضد النظام الذي أتيت منه، معركة ضدّ الآلة العسكرية، ضد التنين الإمبريالي الذي يلتهم جنوده والمدنيين العراقيين على حدٍّ سواء، من أجل المكاسب والأرباح. عرفت نوعاً ما أن علي تحويل الكلمات إلى أسلحة، وأن الكلام الآن هو السبيل الوحيد للقتال.

ما إن وصلت إلى ميامي من العراق، حتى بدأت إجراء المقابلات الصحفية والتحدث عن الواقع الكئيب الذي يواجه الجنود الأميركيين في العراق. بعد بضعة أيام من العودة، فتحت والدة الاختصاصي بيريز، السيدة ميلاديس غوريرو، منزلها لمجموعة من أقارب الجنود لإقامة صلاة من أجل سلامتهم (في وقتٍ مبكرٍ من الغزو، عندما حظيت الحرب والرئيس بتأييد شعبي قوي، وقفتّ مع أمي وعمي في قلب مدينة ميامي، تحت لافتات كُتب عليها: «أعيدوا جنودنا إلى الوطن»، وهم بالملابس

العسكرية. منذ ذلك الحين، تجنبت الثلاثة، وكأنهم وباء فتاك، مجموعة محافظة أكبر عدداً هي «مجموعة دعم الأسرة»، تألفت من عائلات جنودٍ آخرين في وحدتي، وعدّتهم من الراديكاليين). بعد الصلاة، طلب مراسل لمحطة فوكس نيوز Fox News، إجراء مقابلة معي، الجندي الوحيد الذي حضر المناسبة. شعرت بالخجل، ولم أعبر عن أي إدانة أخلاقية أو سياسية للحرب، لكن أبديت بعض الملاحظات والتعليقات الانتقادية للمؤسسة العسكرية. شرحت للمراسل كيف حرمت وحدات الحرس الوطني من الدعم اللوجستي المناسب لأداء واجباتها القتالية. وكيف انهارت تقريباً الروح المعنوية للجنود، خلافاً لما تزعمه وسائل الإعلام، وكيف افتقد أفراد وحدتي الهدف والوجهة، وتحرقوا شوقاً للعودة إلى الوطن. ولكن المحطة لم تبث المقابلة.

أمّا الآن، وأنا أمارس النشاط السري تحت الأرض، فقد اختلفت الأمور. إذ لم أعد أتناول (دون أن أعلن هويتي) مسألة هبوط معنويات الجنود بسبب افتقارهم إلى المعدات وتمديد خدمتهم في العراق فقط، بل كيف يتصرف قادتنا العسكريون دون أدنى اعتبار لحياة المدنيين العراقيين أو الجنود، في سبيل نيل الأوسمة والمكافآت، فضلاً على إساءة معاملة السجناء. وأصبحت أعبر علناً عن مشاعري إزاء الحرب، و سبب رفضي العودة. لم أعد أكتم أيّ شيء.

المقابلة الأولى التي أجريتها كانت مع مراسل لقناة سي إن إن (CNN) الذي سبق وقابل والدتي، عندما بدأت هي وزوجها، خوليو، الاحتجاج علناً على الحرب. بُذل جهد كبير لإخفاء هويتي الحقيقية، وأبقى المصور وجهي ظليلاً، كما استخدمتُ اسماً مستعاراً (كارلوس). قلت للمحاور إني من

المحاربين القدماء في العراق، وعمري ثمانية وعشرون عاماً، غير متزوج ولدي طفلة، وجندي مشاة اضطررت للتخفي والاختباء بسبب معارضتي للحرب. بعد أسبوعين، بثت المقابلة عبر محطات التلفزيون والإذاعة الوطنية، وأعتقد أنها أول مقابلة تبث مع أحد معارضي حرب العراق.

قبل حياة التخفي والنشاط السري، عرفت عبر وسائل الإعلام رجلاً يدعى ستيف روبنسون، وهو محارب متقاعد من القوات الخاصة كان يقود منظمة تدعى «المركز الوطني لموارد حرب الخليج»، وفرت الدعم والمساندة لقدماء المحاربين الذين شاركوا في حرب الخليج عام 1991. ثم اتصلت، عبر ستيف، مع تود إنساين، مدير منظمة تدافع عن حقوق الجنود اسمها «الجندي المواطن» Citizen Soldier.

وهكذا، بعد أسبوعين من انتهاء إجازتي، وجدت نفسي في الجادة الخامسة في مانهاتن أمام العنوان الذي حصلت عليه من تود بواسطة الهاتف. حين نظرت إلى المبنى من الشارع، حسبت للوهلة الأولى أنني وصلت إلى مقر فخم لمنظمة ثرية وفيرة التمويل. لكن عندما دخلت المبنى تبين لي أن مكاتب "الجندي المواطن" متواضعة. فضلاً على ذلك، وخلافاً لصورة المحامين أصحاب القلوب المتحجرة والخالية من العواطف التي تخيلتها دائماً، ظهر أن تود شخص واقعي وعملي، مبتسم دائماً، وفيه شبه كبير من كريستوفر ووكن – عززته لهجته النيويوركية الثقيلة. حين كان محامياً شاباً في الستينيات والسبعينيات، شارك تود في حركة المعارضة التي شكلها الجنود ضد حرب فيتنام، وساعد أولئك الذين رفضوا القتال ولجؤوا إلى الدول الأخرى، ووفر لهم عودة آمنة إلى الولايات المتحدة، ودفاعاً قانونياً، والأدوات اللازمة لنشر قصصهم في وسائل الإعلام.

ما إن تحدثت مع تود حتى انفتح أمامي الباب إلى عالم جديد. تحول الشعور بالعجز والوحدة والانعزال إلى إدراك وجود شبكة كاملة من الأشخاص والجماعات، من منظمات حقوق المرأة وقدماء المحاربين المناهضين للحرب، إلى عائلات الجنود والجماعات الدينية: شاركوني كلهم مشاعري إزاء الحرب.

ناقشت أنا وتود كيف سأتعامل مع غيابي عن الجيش دون إذن. اتفقنا على ضرورة بذل كل ما أستطيع من جهد لتفادي الاعتقال، ومن ثم تسليم نفسي طوعاً، مع الإصرار في المحكمة على حقي في التسريح القانوني من الخدمة العسكرية. سوف تبطل إستراتيجية تسليم نفسي طوعاً تهمة الفرار، الذي يعرف –تقريباً– بأنه غياب عن الخدمة العسكرية دون إذن، مع نية عدم العودة إليها.

اجتمعنا، أنا تود، عدة مرات خلال الشهور اللاحقة لمناقشة الشكل الذي ستبدو عليه عودتي اللاحقة إلى الجيش. وعندما بلغت الحملات الانتخابية الرئاسية الأولية الذروة، وأثار عدد من المرشحين المعادين للحرب قضية العراق في مناظراتهم مع خصومهم المحافظين، اقترح تود أن أفضل إستراتيجية أعتمدها هي أن أسلّم نفسي في حدث سياسي، وأعلن ذلك أمام وسائل الإعلام، لممارسة الضغط على أولئك المرشحين ودفعهم إلى الوفاء بوعودهم. واعتقد أن وسائل الإعلام ستهتم بقضيتي على نطاق واسع، لأنني أول محارب سابق يشجب الحرب علناً ويرفض العودة إليها، ومن ثم فإن المؤسسة العسكرية سوف تضطر إلى التساهل معي بسبب عيون الرأي العام المسلطة عليها.

إلا أني لم أكن مهيئاً بعد لتسليم نفسي. قبلت احتمال التحول إلى معارض للحرب بدافع الضمير، وبدأت العمل على الطلب الذي تسلمته من تيريزا. شعرت أيضاً بالحاجة إلى إجراء نقاش جدي، وجهاً لوجه، مع مستشار قانوني حول ما هو متوقع من احتمال مثولي أمام محكمة عسكرية. فهو الذي سيتولى فعلياً الدفاع عني، بخلاف تود المسؤول عن الجانب السياسي والعلاقات العامة من القضية. ولهذا السبب، كما أوضح تود، يجب الذهاب إلى بوسطن للقاء شريكه، المحامي لويس فونت.

عندما تهيأت للذهاب، أخذني تود إلى كشك لشراء بطاقة سفر بالحافلة إلى بوسطن. ودهشت حين وجدت أن سعر البطاقة ذهاباً وإياباً يبلغ عشرين دولاراً فقط.

سألت: « لماذا هي رخيصة إلى هذا الحد؟».

قال مفسراً: «شركات الحافلات في الحي الصيني (Chinatown) تخوض حرب أسعار دائمة فيما بينها، وهذا يضمن الحصول على أرخص سعر هنا».

كانت تلك المعلومة المفيدة الأولى التي كسبتها من تود في أثناء مدة إقامتي متخفياً في نيويورك. ولم يمر وقت طويل حتى عرفت كل المطاعم الرخيصة التي تقدم وجبات طعام شهية من الشرق الأوسط، إضافة إلى العديد من الأماكن الآمنة لإجراء مقابلات سرية مع وسائل الإعلام، معظمها في مقرات منظمات غير ربحية، عارضت الحرب سراً، مع أنها لم تظهر على العلن انتماءاتها السياسية، وأسعدها مد يد العون إلى جندي مستعد لإعلان رأيه صراحة.

أضاف تود وهم يبتسم بثقة: «ولا تقلق من شرطة مدينة نيويورك، فلديها مشاغل كثيرة تمنعها من ملاحقة الجنود المتغيبين عن وحداتهم دون إذن».

أرشدني إلى قطار الأنفاق الذي يوصلني إلى البيت، ومثلما سيفعل دائماً تقريباً في المستقبل كلما افترقنا، أعطاني بطاقة القطار.

قال ملوحاً وأنا أنزل الدرج المؤدي إلى المحطة: «قيمتها نحو عشرين دولاراً، ولم أستعملها سوى بضع مرات فقط».

يقع مكتب المحامي لويس فونت خارج بوسطن مباشرة في بروكلين (بولاية ماساتشوستس). كنت قد تحدثت معه هاتفياً بضع مرات، ولكننا لم نتقابل، ولم يرغب، لأسباب أمنية، في مناقشة تفاصيل قضيتي ما لم نجتمع وجهاً لوجه. في ذلك الوقت، كانت الحكومة ووسائل الإعلام متواطئة فعلاً على الزعم بأن معنويات الجنود مرتفعة في العراق، وكنت المحارب الوحيد الذي يعرف لويس وتود أنه على استعداد لتكذيب هذا الزعم وفضح زيفه. وهذا ما جعلني مرغوباً، واستحث لويس على نصحي بتجنب الاتصال عبر الإنترنت والهاتف بقدر ما أستطيع.

رافقتني والدتي، وجدتي، وخالتي نورما، وصديق ساعدني في الانتقال من ميامي إلى الشمال الشرقي، في زيارتي الأولى إلى بوسطن لمقابلة لويس، الذي استقبلنا بوصفنا أسرة منذ لحظة دخولنا مكتبه. تمثل شاغلنا الأساسي في عدم مشاركة لويس مشاعرنا الأخلاقية والسياسية المناهضة للحرب. ولكن عندما قدمنا جميعاً أنفسنا، غادر لويس الغرفة، ثم عاد حاملاً دفتراً حاشداً بالصور وقصاصات الصحف التي تظهر موقفه المناهض للحرب في فيتنام.

وُلد لويس فونت ونشأ في الجنوب الأمريكي، من أب وأم من بورتوريكو، وجسد في شبابه قصة نجاح الجيش في تجنيد الشباب من ذوي الأصول اللاتينية في المؤسسة العسكرية الأمريكية. كان واحداً من أوائل الخريجين من الأكاديمية الحربية الأمريكية في وست بوينت، أشهر كليات الضباط التابعة للجيش الأمريكي وأعرقها. ثم قرر الجيش إيفاد الملازم فونت إلى كلية هارفارد للأعمال، حيث بدأ الضابط الشاب يستمع بمزيد من الاهتمام إلى الشكوك التي راودته حول حرب فيتنام، التي كان من المتوقع أن يشارك فيها في نهاية المطاف. آنئذ، رفض لويس علناً المشاركة في حرب عدّها لاأخلاقية، وأصبح أول ضابط في تاريخ وست بوينت يعترض على الأوامر علناً.

أما تود إنساين، الذي كان محامياً ممارساً آنذاك، فقد ساعد في تنظيم دفاعٍ قانونيٍ وسياسيٍ عن الملازم فونت، الذي اتهم جنرالات الجيش الأميركي بارتكاب جرائم حرب ضد شعب فيتنام. قال لويس مبتسماً برقة: «أفهم ما تمر به يا كاميلو».

سرعان ما اتضح أنه فهم بالتأكيد، وربما أكثر مني في ذلك الوقت. واجه لويس في ذلك الحين حكماً بالسجن خمسة وعشرين عاماً، واستمرت محاكمته سنة كاملة. ولكن الضغط الشعبي الذي مارسه الدفاع عنه ثبت أنه أصعب من أن تحتمله مؤسسة عسكرية واجهت صراعات داخلية حادة، فضلاً على العصيان والتمرد. في النهاية، أذعنت الآلة العسكرية وأخلي سبيل لويس بصورة مشرفة بوصفه معارضاً للحرب بدافع الضمير. لقد سافرت إلى بوسطن أملاً بالعثور على محام يفهمني؛ فوجدت مصدراً للإلهام ونموذجاً يُحتذى مثاله.

كان الجو في بوسطن بارداً عندما غادرنا مكتب لويس في ذلك الوقت المبكر من أصيل أحد أيام الخريف. تجولنا في الشوارع ساعات بحثاً عن فندق، ولكن غرف الفنادق كانت محجوزة من المسافرين الذين يأتون كل سنة إلى بوسطن لحضور مهرجان الزخرفة بأوراق النباتات. وعندما فقدنا الأمل، رد لويس على مكالمة وضعناها في بريده الصوتي. بدا أن شبكة السلام والعدالة السرية مدت خيوطها في ماساتشوستس مثلما فعلت في نيويورك. حصلنا على اسم ورقم هاتف شخص يستطيع أن يمدّ لنا يد العون لقضاء الليلة. دهشنا لتمكن لويس من إعداد هذه الترتيبات بمثل تلك السرعة. لم يكن مطلوباً منّا تسجيل الاسم أو إظهار البطاقة الشخصية، بل كفانا القول إننا من طرف لويس فونت. وبمثل لمح البصر، كنا نمضي الليلة في منزل فخم في ضواحي مدينة بوسطن بمنطقة نيوإنغلاند.

لم نجد أحداً في انتظارنا عند الوصول، ولكن وجدنا الأبواب مشرعة وتعليمات ترشدنا إلى أماكن مفاتيح الغرف. إضافة إلى عبارة مجاملة: «نتمنى لكم أمسية سعيدة». قضيت في الشهور اللاحقة عدة ليال في المكان ذاته، الذي لم يكتف باستقبال المسافرين المتعبين الذين ينشدون الراحة والهدوء فقط، بل رحب أيضاً بالناشطين في منظمة السلام والعدالة، ومجموعات التضامن الدينية، والطلاب الأجانب الذين يعيشون اعتماداً على ميزانيات متواضعة.

طوال الشهور اللاحقة، تابعت والدتي الاتصال عن طريق الخط الساخن بقسم الفارين من الجيش لتعرف هل أدرج اسمي بينهم، ولكن لم يرد اسمي إطلاقاً. بل لم يقم رجال الشرطة بزيارة منزلها. وبغض النظر

عن حفنة من المذكرات الحاقدة التي أرسلها النقيب وارفل عبر البريد الإلكتروني لإبلاغ مجموعة مساندة الأسرة بأني مطلوب بتهمة الفرار من الجيش، لم يحدث شيء مهم.

بيد أن عدم سعي الجيش إلى ملاحقتي لم يدفعني إلى التخلي عن الحيطة والانتباه؛ بل على العكس تماماً. إذ فهمت أن صمت الجيش هو مجرد حذر واحتراز. وأدركت تماماً الانتهاكات القانونية التي ارتكبها الجيش عند إرسالي إلى العراق وتمديد خدمتي، واعتقدت أنه يحاول العثور على طريقة للتعامل معي بهدوء دون تلطيخ صورته أمام الرأي العام.

تعاظمت الحاجة إلى اليقظة والانتباه لأنني تابعت اللقاءات، سراً، مع وسائل الإعلام المحلية والدولية. حذرني لويس من وجود مسؤول في المؤسسة العسكرية يراقب على الأرجح جميع المقابلات التي تجرى مع الجنود حول الحرب، خصوصاً أصحاب الآراء المنشقة منهم — المعارضون للحرب بدافع الضمير الذين يرفضون العودة إلى الجيش. وكنت واحداً منهم آنذاك.

قال لي لويس ذات مرة: «كلما أجريت مقابلة، يقول مسؤول في الجيش، أو ربما في وزارة الدفاع (البنتاغون): ها هو كاميلو مرة أخرى».

قلت: «أتظن ذلك فعلاً؟».

«طبعاً. فكر في الأمر، أنت المحارب الوحيد الذي خدم في العراق، ورفض العودة إليه، وفضح ما رآه في الحرب. ولأنك كنت هناك لا يريدونك أن تتكلم». توقف لحظة، ثم قال: «لا ترتكب أي غلطة، فهم يعرفون كل شيء عنك في أعلى مستويات الحكومة».

أخذت هذه التحذيرات في الحسبان، فتوقفت عن استخدام هاتفي الخلوي وحسابي في الإنترنت، وتخلصت من بطاقة الصراف الآلي. أجريت اتصالاتي عبر أجهزة الهاتف العمومية، محاولاً استخدام جهاز مختلف كل مرة. وإذا دعت الحاجة إلى مناقشة موضوع مهم مع لويس، كنت أسافر إلى بوسطن لنتحدث وجهاً لوجه. نصحني بتجنب الاتصال مع أفراد وحدتي، أو أي عسكري بوجه عام، ما لم يكن هو (لويس) أو تود حاضراً. لكن لم أتوقف عن إجراء المقابلات مع الصحفيين، التي أعد تود الترتيبات لها في المطاعم والمقاهي، الآمنة والباهظة في آن.

قال ذات مرة ونحن نستقل قطار الأنفاق إلى مطعم إيطالي صغير وفخم: «سنكون بأمان هناك. لقد أتوا بالطائرة لإجراء مقابلة معك؛ معهم ما يكفي من المال، تأكد أنهم سيدفعون الفاتورة».

وفي الحقيقة، دفع المراسلون الفاتورة دوماً. لكن ما أثار انتباهي أكثر من الطعام أو من يدفع ثمنه، مقاربة الصحفيين وطريقة طرحهم للأسئلة. على سبيل المثال، ركز معظم الصحفيين الأمريكيين، سواء أيدوا الحرب أو عارضوها، بؤرة اهتمامهم على معاناة العائلات الأميركية وعلى تداعيات رفض القتال وعواقبه على المؤسسة العسكرية.

كان سؤالهم النمطي هو: «ألا تعتقد أن الجيش، إذا سمح لك بأن تكون معارضاً للحرب بدافع الضمير بسبب رفضك الحرب في العراق، سوف يفتح الباب على مصراعيه أمام كل جندي ليحذو حذوك؟».

بدا لي أن الموقف المسكوت عنه بين هؤلاء المراسلين يشير إلى أن على الجنود، سواء كانوا على صواب أو خطأ، الامتناع عن الكلام وإطاعة

الأوامر. في ذلك الوقت، وجدت في هذا التحليل التبسيطي للأمور مقياساً لافتقار وسائل الإعلامية الأمريكية إلى المهارة والإبداع والابتكار. كنت أومئ برأسي متأملاً بينما ينهي الصحفي المتجهم سؤاله، مع أني عرفت تماماً وجهته المقصودة؛ بل كان بوسعي كتابة الإجابات عن الأسئلة المتوقعة، وتوفير الوقت. كانت الإجابة المتوقعة عن السؤال المتوقع جاهزة عندي: «ومن ثم لن نجد من يقاتل في الحرب».

بيد أني كنت أقول - وكأنما أجيب عن السؤال للمرة الأولى: «ولكن لا داعي للقلق من عدم رغبة الجنود في القتال، طالما وجد سبب وجيه لخوض الحرب. المشكلة تكمن في غياب السبب الوجيه لوجودنا في العراق. لم أوقّع على عقد لأحارب من أجل نفط الشرق الأوسط، ولا أظن أن أحداً في الجيش فعل ذلك».

عندئذ يسأل الصحفي: «وماذا تقول لأمهات الجنود الذين قتلوا في العراق إذاً؟ إن أبناءهن قتلوا في سبيل النفط؟ وانهم من المرتزقة؟».

شعرت أن الجواب ليس من اختصاصي؛ فلست أنا من أرسل أبناءَهن الأعزاء إلى الحرب، ولست من جنى الثروات الطائلة من عقود إعادة إعمار ما دمرناه (مع أني لم أشاهد عمليات واسعة لإعادة إعمار العراق). ولكني اعتدت أن أقول دائماً: «اتخذت قراري استناداً إلى فهمي لهذه الحرب بوصفها حرباً إجرامية، ولا شرعية، وتشن في سبيل إقامة إمبراطورية أمريكية». كنت أقول للصحفي: «لو قتلت في الحرب لقتلت مرتزقاً، مثلما أؤمن في صميمي؛ لقد اتخذت قراراً شخصياً بعدم خوض هذه الحرب والموت فيها. وأطلب من الأمهات التعبير علناً عن آلامهن، والتوحد في معارضة هذه الحرب لمنع سفك مزيد من الدماء دون داع».

كانت إجاباتي صادقة، ولكن حقيقة أنني حفظتها عن ظهر قلب، جعلتني أشعر بأني أمارس نوعاً من الخداع والتزوير. شعرت أيضاً بأنها ناقصة، فثمة الكثير مما يجب قوله، خصوصاً تكلفة الحرب الباهظة على الشعب العراقي. ولكني عرفت أن معظم الصحفيين الأمريكيين لم يبحثوا عن أجوبة وافية لأسئلتهم، بل مجرد تعليقات وجيزة مبتذلة يمكنهم استغلالها. ومع ذلك، شعرت بضرورة التعامل مع الوضع القائم، وتجريب كل طريقة ممكنة لعرض نوع من وجهة النظر النقدية أمام رأي عام غافل عن الحقائق عموماً.

لكن الأمور اختلفت مع المراسلين الأوروبيين، الذين أبدوا اهتماماً أكبر بتجاربي، التي حولتني إلى معارض للحرب بدافع الضمير. وتناولت غالبية أسئلتهم التفاعلات اليومية بين الجنود الأمريكيين والمواطنين العراقيين العاديين؛ فقد أرادوا معلومات عن الغارات، وحظر التجول، وحوادث القتل عند نقاط التفتيش، وإساءة معاملة السجناء. إضافة إلى عدد الجنود في وحدتي، في الرمادي، الذين عارضوا الحرب مثلي. قلت: إنني لا أعرف الكثير عن الجنود الذين وافقوني -أو خالفوني- الرأي، سياسياً، أو أخلاقياً، أو روحياً. ما عرفته فقط هو وجود حالة من الاستياء الشديد من الحكومة ومن المهمة في العراق، بالرغم من غياب المساءلة العلنية للحرب.

شعرت بأني قادر على التوسع قليلاً مع المراسلين الأوروبيين مقارنة بنظرائهم الأمريكيين، وتلقيت عموماً قدراً أكبر من التعاطف من الطرف الآخر من المحيط مقارنة بالولايات المتحدة؛ بل عُرضت عليّ المساعدة إذا قررت الذهاب إلى أوروبا، وتكرر هذا العرض عدة مرات.

قالت باتريشا، مراسلة إحدى الصحف الأوروبية الاشتراكية، وهي تدعوني باسمي المستعار: «كارلوس، يمكنك الذهاب إلى أوروبا، أما هنا فسوف تزج في السجن».

قلت: «ربمّا، ولكن هذا وطني».

قالت بإلحاح في مزيج من الحزن واللطف: «نعم، ولكنك لم ترتكب خطأً. فلماذا تبقى هنا ما دمت قادراً على الذهاب إلى أوروبا؟ الناس يكرهون الحرب هناك، كما تعلم».

قلت: «سبب بقائي هنا هو بالضبط أنني لم أرتكب خطأً. فضلاً على أن كثيرين هنا يكرهون الحرب أيضاً».

نظرت إلي، كأنما لا أعرف ما الذي ينتظرني.

أضافت، وكأنها قادرة على التنبؤ بما يحمله المستقبل: «نعم، ولكنك ستدفع ثمن قرارك يا كارلوس. ستدفع الثمن».

التقينا، أنا وباتريشا، بضع مرات وجمعتنا صداقة متينة. لم تنس قط إبلاغي بعدم تسليم نفسي للجيش، فقد اعتقدت أن العسكر، وليس أنا، هم من ارتكب الجريمة. وأكدت أن التعافي من تأثير الحرب يتطلب جهداً ووقتاً، فإذ أضيف إلى ذلك السجن، لن أتمكن من التخلص من الأضرار النفسية والعاطفية التي تصيبني. قلت لها دائماً: إنني اتخذت قراراً بعرض قضيتي أمام الرأي العام، وأمام المحكمة العسكرية إذا دعت الحاجة. حاولت أن أبدو واثقاً، ولكني في الحقيقة كنت خائفاً من الرأي العام، وتسليم نفسي إلى الجيش. وغالبني دافع قوي يدعوني إلى الانسحاب بهدوء، والادعاء بأن الحرب لم تحدث قط.

عندما تحولت أيام التخفي إلى أسابيع، وامتدت الأسابيع إلى شهور، بدأت أشعر بمزيد من الضغط لتسليم نفسي علناً وعلى رؤوس الأشهاد. فوضوح الذهن، أخلاقياً وفكرياً، لم يترك أمامي أي خيار سوى مناهضة الحرب علناً، ورفض أي مشاركة جديدة فيها. بحلول هذا الوقت، اعتنقت فكرة المعارض للحرب بدافع الضمير، وأمضيت ساعات لا تحصى في ملء استمارات الطلب، الذي يؤهلني لهذه الصفة. وأجبرتني هذه العملية، إلى جانب العديد من المقابلات الصحفية التي أجريتها في السر، على إحياء تجاربي في العراق وعيشها مجدداً، والتأمل في معناها ومدلولها. في نهاية المطاف، تحول هذا التحليل والمساءلة للحرب، ولكياني الذاتي في خضمها، إلى وسيلة ساعدتني على بلوغ مرحلة الوضوح المطلق في الوعي، لا بمجرد خطأ الحرب على العراق فحسب، بل الحروب كلها. لكن هذه القناعة الراسخة المتنامية لم تفلح في محو آثار الخوف المتأصل في أعماقي، الذي وصل أحياناً إلى حد الرعب، من تسليم نفسي إلى الجيش علناً. ظل صدى كلمات باتريشا يتردد في رأسي: «ستدفع الثمن، يا كارلوس، ستدفع الثمن».

لم يفلح بث خبر القبض على صدام حسين، على نطاق واسع، في تبديد مخاوفي. فقد استغلته وسائل الإعلام إلى أبعد مدى لتبرير الغزو والاحتلال. ولم تبد أي اهتمام بحقيقة عدم العثور على أسلحة دمار شامل، وعدم وجود رابطة بين صدام والقاعدة — أصيب الناس بنوع من الغشية نتيجة روايات وسائل الإعلام المضللة، وبدا كأن الكل يهلل للحرب والعسكر. باولا زاهن، مثلاً، كادت تصفع الجنرال ويسلي كلارك في برنامج إخباري على محطة سي إن إن (CNN) حين قال: إنه لا يزال يعتقد أن الحرب غير مبررة.

سألته، وقد أذهلها أن يفكر أحد بطريقة مغايرة: «حتى بعد القبض على صدام حسين؟!».

قال الجنرال: «أجل».

لم يكن موقف كلارك، على الأقل في نظري آنذاك، يمثل الشريحة الأوسع من الرأي العام. كأنما عجز الناس كلهم عن مساءلة الواضح الجلي. فالمعلومات والروايات المضللة التي نشرتها الحكومة ووسائل الإعلام الجماعية حول القبض على صدام نجحت في خداع عامة الناس بسحرها المشعوذ. تساءلت في سري ماذا يفعل جندي منشق في مواجهة هذا الاتفاق الجماعي (القطيعي) على قبول الوهم الخدّاع المضلل، الذي انتشر على أوسع نطاق؟ فمع وجود رأي عام يشعر بمثل هذا الرضا عن الذات، ويعيش مثل هذا الانفصال عن الواقع، سوف أتعرض لحملة إدانة شرسة لا ترحم، أولاً من أمةٍ منومةٍ مغناطيسياً بالحرب، ثم من آلة الحرب ونظامها القضائي الذي يعاقب المنشقين.

تجولت على غير هدى في شوارع المدن الضخمة المجهولة الاسم في شمال شرق الولايات المتحدة، وقضيت ساعات بعد الظهر في الحدائق العامة والمتاحف، أعمل على استيفاء شروط وضع المعارض للحرب بدافع الضمير، التي بدت دون نهاية. وحين أغمض عيني، تتراءى عزيمتي غارقة في لجة الخوف من تسليم نفسي علناً، وهلعي من الجيش والحكومة، وخشيتي من المستقبل، وعجزي عن العيش حياة حقيقية. شعرت أنني جبان لأني غير قادر على أداء واجبي الأخلاقي الواضح دون لبس في ذهني.

كلما فكرت في العودة إلى الجيش وتسليم نفسي علنا، يشل حركتي خفقان قلبي المتسارع، وأكاد أسمع صوت نبضاته المدوي. ظل تود يلح على ضرورة عدم التأخر في التحرك، ويقترح كل شهر تنظيم مسيرة جماهيرية أو حدث مشابه، وتمثلت الفكرة في جعل المناسبة علنية ومشهودة إلى أقصى حد ممكن، لتسليط ضوء كاشف على تعامل المؤسسة العسكرية مع قضيتي. لكن لويس، الذي عرف مدى خوفي، لم يلح على جعل المناسبة حدثاً إعلامياً. مع أنه أراد هو أيضاً أن أحدد على الأقل موعداً لتسليم نفسي.

قال لي ذات مرة: «أعرف صعوبة الأمر. لقد أقنعت عملاء من الجنود الفارين بتسليم أنفسهم. لكنهم لم يفعلوا ذلك إلا وهم مخمورون، فقد بلغ بهم الرعب هذا الحد».

لم يكن ذلك في الواقع خياراً مطروحاً بالنسبة لي، إذ أدركت ضرورة الحفاظ على صفاء الذهن ووضوح الرؤية، لقول ما يجب قوله عندما أسلم نفسي. نُبّهت مراراً وتكراراً إلى أهمية انتقاد جندي للحرب، استناداً إلى تجربته الشخصية في ميدان المعركة. في ذلك الوقت، لم ينتقد جندي واحد عائد من الحرب، باستثنائي، الواقع الميداني في العراق، ولو بالتلميح فضلاً على التصريح. ولذلك بدا حمل المسؤولية ثقيلاً على كاهلي.

كان بعض من حولي يقولون: «أنت رجل شجاع. وسوف تعبد الطريق أمام حركة انشقاق جديدة داخل المؤسسة العسكرية. وسيتبع كثيرون خطوتك الرائدة».

كنت أومئ رأسي تعبيراً عن الشكر والامتنان، قبل أن أفكر بالعقوبة المحتومة، وأخشى من وهن العزيمة. كنت أقول لنفسي: هل أنا شجاعٌ

حقاً؟ لم أفعل شيئاً بعد! ثم ترد إلى ذهني كلمات أخرى: لا بد من وجود رائد، صوت يكسر حاجز الصمت. لا بد من وجود رائد. فيتضح أمامي ما يجب أن أفعله مرة أخرى.

وقع حدثٌ مفتاحيٌ بعد إحدى زياراتي لمقابلة لويس في ماساتشوستس. رافقتني في الزيارة نانسي ليسين وتشارلي ريتشاردسون، الشريكان المؤسسان لمنظمة شعبية مناهضة للحرب تسمى: «عائلات الجنود تعلن رأيها»، انضمت إليها والدتي عندما كنت في العراق. بعد محادثة طويلة مع لويس بشأن عودتي إلى الجيش، أخذتني نانسي وتشارلي إلى مكان يبعد عن بوسطن نحو أربعين دقيقة: «دير السلام» (في شيربورن، بولاية ماساتشوستس). وسوف يلعب هذا المكان دوراً رئيساً في تسليم نفسي للجيش في نهاية المطاف.

استقبلنا في الدير مؤسسه ومديره لويس راندا. على شاكلة كثير من شبان الطبقة الوسطى، التحق راندا بالحرس الوطني لتفادي الذهاب إلى فيتنام. ولكن في أثناء التدريب الأساسي، خطر له أن تلك طريقة مراوغة لتجنب القتال، وتقدم بطلب للحصول على وضع المعارض للحرب بدافع الضمير، ورفض ارتداء الزي العسكري، ثم أضربَ عن الطعام احتجاجاً. رد الجيش بمحاولة إرساله إلى الخدمة في فيتنام. لكن تدخل السناتور إدوارد كيندي ضمن له وضع المعارض بدافع الضمير وحال دون إرساله إلى الحرب. ومنذ ذلك الحين، نذر لويس حياته لقضية السلام، وأسس في عام 1972 «مدرسة تجربة الحياة Life Experience School»، وهي برنامج يمكّن الأطفال والشباب ويؤهلهم ليصبحوا حماة السلام. بعد أربع عشرة سنة، وسع لويس نشاطه وافتتح «دير السلام»، ليكون ملاذاً للناشطين

من مختلف العقائد والمشارب، الذين يرغبون في تعلم منهج اللاعنف أو ممارسته.

يجب اختبار الحياة في الدير وممارستها لفهم أهدافه؛ إذ لا توجد كلمات قادرة على التعبير عن الروح السائدة في المكان الذي تحول فيما بعد إلى بيتي الثاني. ثمة تمثال برونزي بالحجم الطبيعي لغاندي يرحب بالزوار، وتضم الأراضي المحيطة بالدير محمية للحيوانات فيها بقرة، وثلاثة خنازير، وحمار، وعنزتان. المحمية مفتوحة دوماً للزوار لقضاء بعض الوقت مع الحيوانات. وخارج الإسطبل، عند سفح تلٍ صغير، تنتصب شاهدة كتبت عليها كلمات «قبر المدني المجهول الذي قتل في الحرب». في عام 1994، أزاح الستار عن النُّصُب التذكاري بطل العالم السابق في الملاكمة، ومناهض الحرب الشهير، والمعارض للحرب بدافع الضمير، محمد علي كلاي.

هناك بيتان من ثلاثة طوابق إلى جانب الإسطبل يشرفان على مقبرة قديمة خارج أراضي الدير. أحدهما منتجع يضم أربع غرف للزوار الذين ينشدون السلام والراحة، وكنيسة صغيرة لمختلف الديانات، ومطبخاً لتحضير الوجبات النباتية، ومكتبة صغيرة تحوي مجموعة من الكتب التي تتناول السلام وفظائع الحرب. أما جدران ملجأ السلام فمزدانة بقصاصات الصحف التي تتحدث عن الناشطين الذين دفعوا ثمناً باهظاً مقابل دفاعهم عن السلام، مع آثار ومقتنيات لقديسين وأشخاص عاديين قُتلوا في أثناء نضالهم في سبيل العدالة الاجتماعية.

عندما دخلت المنزل للمرة الأولى فوجئت بالموسيقى الروحية المهدئة، التي تترع المكان بروح السلام والوئام والتناغم. ثم دهشت لسماع نداء

غريب، لكن مألوف: الأذان الذي يدعو المسلمين إلى الصلاة. كانت تلك أول مرة أسمع فيها الأذان منذ عودتي من العراق، وذكّرني بالروابط التي تصل بين الناس في العالم، ووحدة الجنس البشري التي جلبتني إلى الدير.

في ركن من المنزل الرئيس، وداخل الكنيسة الصغيرة متعددة الأديان، هناك مزار مكرس لرئيس أساقفة السلفادور الراحل أوسكار أرنولفو روميرو Monsignor Oscar Arnulfo Romero الذي اغتيل عام 1980 بسبب التزامه قضية السلام والعدالة ـ ليكون أول أسقف يُذبح عند مذبح كنيسة منذ توماس بيكيت Thomas Becket في القرن الثاني عشر. عرضت الصور التي التقطت بعد لحظات من اغتيال روميرو إلى جانب قطعة قماش ملطخة بالدم من المذبح، حيث أقام آخر قداس. أما نظارته فقد وضعت بالقرب من قطعة القماش، لتعزيز حضوره الروحي القوي، وتوكيد الثمن الذي دفعه حين قال كلمة الحق أمام السلطة الجائرة.

امتلأت جدران مدخل المنزل الثاني بصور الأطفال. في أحدها، حدق في وجهي طفل مشوه فقد ساقه بسبب لغم أرضي. وأظهرت صورة أخرى وليداً أتى إلى هذا العالم ليعيش بضع لحظات جحيمية قبل أن يموت. فقد وُلد مشوهاً بسبب اليورانيوم المنضب، المادة المشعة التي استخدمها الجيش الأمريكي في صنع الذخائر والألواح المصفحة للعربات.

عند انفجار المقذوفات والألواح المصفحة التي تستخدم اليورانيوم المنضب يتحول إلى مسحوق وينتشر في الهواء والماء، ليلوث كل شيء في مساره، ويصيب الجنود والمدنيين وحتى الأجنة، بآلام شديدة، وتشوهات خطرة، ويسبب الموت أحياناً.

لزمت الصمت عندما كنت أشاهد هذه الصور المروعة، ولكني وعيت التغير الذي حدث في أعماقي. بدأت أشعر بالخجل من خوفي من السجن واتهامي بالخيانة. أدركت أنني جبنت منذ البداية، عندما كان من واجبي رفض الذهاب إلى الحرب، لكني لم أفعل شيئاً. في العراق، رأيت -وشاركت في- المعاملة الوحشية والمهينة للسجناء والمدنيين، ولكني لم أملك الشجاعة الكافية لعصيان الأوامر. والآن، في مواجهة الواجب الأخلاقي الذي يدعوني إلى رفض الحرب ومعارضتها علناً، أصابني الشلل مرة أخرى، ومنعني الضعف والوهن من تحطيم أغلال خوفي. ولكن عندما نظرت إلى وجوه أولئك الأطفال، من أزمنة وأمكنة مجهولة، شعرت بعزيمة متجددة، وأدركت أنني أملك القوة لتسليم نفسي والتعبير عن رأيي. أكثر من ذلك، عرفت أن الدير هو المكان الذي أردت حدوث هذا كله فيه. سوف أعلن إدانتي للحرب ورفضي العودة إليها في هذا المكان، الذي كرس للسلام منذ بدايته.

عندما أطلعت تود فيما بعد على خطتي، أبدى بعض التحفظات. ما أقلقه أن الدير بعيد جداً عن بوسطن وعن المدن الأخرى، ويصعب على الصحفيين الوصول إليه. ولكن لويس أصرّ على أهمية اختيار مكان أشعر فيه بالراحة، ووافقته عائلتي الرأي. في نهاية الأمر أذعن تود، وبدأنا نعدّ الخطة لتسليم نفسي علناً للجيش.

حتى ذلك الحين، ظل معظم أقربائي، ومنهم والدي، لا يعرفون شيئاً عن وضعي. كانت تلك السرية ضرورية لسلامتي، ولكنها مطلوبة أيضاً لحماية المقربين إليّ من احتمال أن يضايقهم الجيش ويعرضهم للمساءلة القانونية. ولكننا قررنا الآن المضي قدماً في الخطة، وبدأنا الاتصال بجميع

الأقرباء والأصدقاء، إضافة إلى مختلف الجماعات والمنظمات المعارضة للحرب والراغبة في الوقوف إلى جانبنا.

اخترنا موعداً هو 15 آذار (مارس) 2004، أي بعد مضي خمسة أشهر على انتهاء إجازتي رسمياً. أخذنا في الحسبان مواعيد عمل الأشخاص الذين نرغب في توجيه الدعوة إليهم، ليتاح لأكبر عدد ممكن حضور المؤتمر الصحفي الذي ننوي عقده في الدير. وبعد المؤتمر الصحفي، سيرافقني كثير من الحاضرين إلى المكان الذي أنوي أن أسلم فيه نفسي للسلطات العسكرية. كانت استجابة وسائل الإعلام مشجعة جداً؛ شملت مقابلة مع دان راذر Dan Rather في برنامج «60 دقيقة»، رتبت لنا بمساعدة صديق لويس راندا (الراحل)، هوغ تومسون Hugh Thomson. كان هوغ موضوع برنامج وثائقي عن الذكرى السنوية الثلاثين لمذبحة ماي لاي My Lai، حيث ركز على عمله البطولي عندما هبط بطائرته الهليكوبتر للحيلولة دون قتل مزيد من المدنيين في تلك المذبحة الوحشية الشائنة في فيتنام.

عشية تسليم نفسي إلى الجيش، اجتمعت أنا وعائلتي مع الصحفيين والأصدقاء لتناول العشاء وإجراء بضع مقابلات نهائية في «مدرسة تجربة الحياة»، الواقعة على بعد بضعة أميال من الدير. حضر والدي ووالدتي، وشقيقي كارلوس؛ وزوج أمي خوليو؛ وجدّتي (لأمي) أنتونيا؛ وخالتي نورما؛ وخالي أليكس؛ ولويس فونت وزوجته غيل غليزر؛ ومراسلان صحفيان من تشيلي؛ وبعض أصدقاء العائلة المقربين. ثم عدنا جميعاً بعد العشاء إلى دير السلام، حيث كانت فرقة (تقدمية) من المنطقة تعزف الموسيقى. شارك والدي وشقيقي ببعض الأغنيات من نيكاراغوا. هناك،

بعد عمل خمسة شهور، وكتابة خمس وخمسين صفحة، تمكنت أخيراً من استكمال صفة المعارض للحرب بدافع الضمير.

قال لويس بحزم: «يجب أن تشهرها، لكي نعرضها على الجيش».

في صباح اليوم اللاحق، وصل إلى الدير المطران الكاثوليكي توماس غامبلتون Thomas Gumbleton، من أبرشية ديترويت. أقام المطران القداس، ثم وقع على طلب الحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير. ومن بين الذين حضروا للتعبير عن المساندة والتأييد، نانسي ليسين Nansy Lessin وتشارلي رتشاردسون Charley Richardson، من منظمة «عائلات الجنود تعلن رأيها»، وفرناندو سواريز دل سولار Fernando Suarez del Solar، الذي كان ابنه جيسوس واحداً من أوائل مشاة البحرية الذين قُتلوا في العراق؛ وديف كلاين Dave Cline، رئيس جماعة المحاربين القدماء من أجل السلام؛ إضافة إلى عدد تراوح بين ستين وثمانين آخرين من المعارضين للحرب والمتضامنين معنا.

لم نعرف شيئاً عن وسائل الإعلام التي ستحضر المؤتمر الصحفي في أعقاب القداس. أقلقتني فكرة تود عن بعد المسافة وصعوبة وصول الصحفيين إلى المكان. ولكن حشد المراسلين، الأجانب والمحليين، الذين قابلونا بالتحية في المرج الأخضر أمام الدير، فاق توقعاتنا كلها. رتب لويس للمناسبة بحيث نجيب عن الأسئلة، ونحن نقف إلى جانب نُصُب «المدني المجهول الذي قتل في الحرب»، حيث تتلألأ شعلة تكريم القتلى. وبعد أن ردد طالب من «مدرسة تجربة الحياة» النشيد الوطني الأمريكي، ألقى الأسقف غامبلتون كلمة وجيزة عن التراث الطويل لمعارضة الحرب

بدافع الضمير في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، مستشهداً برموز تاريخية مثل القديس فرانسيس الأسيسي Saint Francis، والقديس إغناطيوس Ignatius Saint من لويولا.

قررت أن أرتجل، ومن ثم أدليت ببيان صادر من القلب، بعد أن ألقى الأسقف كلمته، قلت فيه ببساطة: إني عارضت الحروب كلها، وكنت أداة للعنف في الماضي، ولكنني اخترت الآن أن أكون أداة للسلام. وأعلنت أنني معارض للحرب بدافع الضمير، وقلت: إن الحرب في العراق تستهدف النفط، وإني لست مرتزقاً، وعبرت عن يقيني بعدم وجود جندي يوقع عقداً مع الجيش، ليقطع نصف العالم ويحارب من أجل النفط.

تابعت قائلاً: «من يريد دعم الجنود لا يمكن أن يؤيد الحرب».

واختتمت ملاحظاتي بالإشارة إلى قرار الناخبين في أسبانيا أمس باختيار رئيس وزراء جديد التزم سحب الجنود الأسبان كلهم من العراق.

قلت: «بالأمس، قال الشعب الأسباني لا للحرب. آمل أن يحذو الشعب الأمريكي حذوه في شهر تشرين الثاني (نوفمبر). شكراً لكم».

صاح مراسل لإحدى الصحف: «ولكن، يا كاميلو، عندما وقعت العقد مع الجيش، عرفت أنك ستخوض حرباً يوماً ما. فما الذي جعلك تغيّر رأيك؟».

«حسناً، لقد كنت هناك، وأستطيع أن أؤكد لك أن من يدفع الثمن ليس أهل السلطة، ولا الذين يعلنون الحروب؛ بل الجنود والمدنيون والأبرياء العزل».

قال رجل طويل يرتدي بزة زرقاء، بدا أشبه بعميل في الاستخبارات: «نعم، ولكن كنت تعلم أن الجنود والمدنيين يموتون في الحرب. فما الذي رأيته لتغيّر رأيك؟».

«كنا نتعرض لكمائن، ويسقط قتلى. ولكن أعتقد أيضاً، بغض النظر هل تجلس مطمئناً في قصر أم تقف متوتراً في الشوارع معرضاً لخطر الكمائن كما حدث لي، فإن شن الحرب من أجل النفط عمل لا أخلاقي».

قالت امرأة من شبكة تلفزيونية أسبانية بارزة: «كاميلو، ما الفرق في نظرك بين ما تذكره الأخبار هنا عن الجنود في العراق وتجربتك أنت هناك؟».

أجبتها، وقد سرني أنها طرحت السؤال: «نعم، أكبر خيبة أمل أن وسائل الإعلام تؤكد أن معنويات الجنود عالية في العراق، وأننا سعداء بوجودنا هناك. لكن هذا غير صحيح. لقد كذبنا بشأن أسلحة الدمار الشامل والصلات الرابطة بين العراق والإرهاب لتبرير الحرب. في الواقع، نحن نقدم للإرهاب عبر هذه الحرب سبباً للوجود. لكن في الحقيقة، حتى بالنسبة للذين دعموا الحرب وأيدوها، نشعر جميعاً أننا سقطنا في الفخ هناك، لأن الشعب العراقي لا يريدنا، ولا يوجد معنى ولا هدف للمهمة. العراق يعاني الحرمان: لا ماء، ولا كهرباء، ولا إعادة إعمار؛ والشعور السائد هو أننا هناك لحماية أنفسنا».

قبل تسليم نفسي ببضعة أسابيع، أجريت لقاء صحفياً مع مراسل شيكاغو تربيون Chicago Tribune. بعد اللقاء، ذهب للتحدث مع جنود من وحدتي، التي عادت آنذاك من العراق. وعندما تطرق إلى ما قلته

عن أسلوب قادتنا العسكريين في استخدامنا طُعماً لجر المتمردين إلى القتال وتحفيزهم على مواجهتنا، أكد عدد منهم صدق كلامي. ولم يكن من المفاجئ أن يتخذ النقيب المسؤول عني خطأً مغايراً في المقابلة. ومن تعليقاته التي نشرت صباح ذلك اليوم، اختار الصحفي واحدة:

قال وهو ينظر في دفتر صغير كان يحمله: «كاميلو، يقول قائدك: إنك افتقدت الشجاعة. ما قولك في ذلك؟».

نظرت في وجه المراسل، وقلت: « لم أفتقد الشجاعة. في الواقع، قمت بواجبي بوصفي جنديّاً».

قال آخر يبدو مسؤولاً رسمياً: «ولكن ماذا تقول لجنود وحدتك الذين ربما يقولون: إنك تخليت عنهم؟».

«أقول لهم: إنني اتخذت قراراً شخصياً باتخاذ موقف مناهض للحرب، اعتماداً على مبادئي الأخلاقية. وحتى إذا اختلفوا معي الآن، لا بد أنهم سيدركون يوماً ما كيف كذبوا علينا حول هذه الحرب. وأقول أيضاً: إنني اليوم أتحدث باسم العديد من الجنود الذين يعارضون هذه الحرب، ولكنهم لا يملكون القوة لإعلان معارضتهم. أنا لا أتخلى عن رفاقي، بل أناضل من أجلهم».

سألتني صحفية أنيقة، تجلس على العشب أمامي: «ما الذي سيفعله الجيش بك الآن، برأيك؟».

قلت صادقاً: «ليست لديّ أي فكرة. ولكن مهما حدث، حتى إذا سجنت سنوات، فسيكون ضميري مرتاحاً على الأقل، وسأنعم بالسلام الداخلي، لأني أعرف أن الله غفر لي».

بعد ذلك، اتخذت الأسئلة منحى قانونياً، ولذلك طلبت من لويس وتود الإجابة. وبعد أن أدلى بعض الحاضرين بيانات موجزة دفاعاً عني، خاطب لويس المراسلين قائلاً: إنه مستعد للدفاع عني إذا قرر الجيش محاكمتي أمام محكمة عسكرية، ولكنه شدد على أننا نتوقع منه التعامل معي إدارياً، وقبول صفة المعارض للحرب بدافع الضمير.

قال لويس: «في أثناء حرب فيتنام، حين تغيب الرئيس بوش عن وحدته في الحرس الوطني مدة تجاوزت غياب عميلي، تعامل معه الجيش إدارياً. ونحن نتوقع أن يعامل الرقيب الأول ميخيا بالطريقة ذاتها».

بعد المؤتمر الصحفي، ركبنا، أنا وأصدقائي وعائلتي وعدد كبير من الصحفيين، حافلة استأجرها لويس لنقلي إلى قاعدة عسكرية، لأسلم نفسي رسمياً. أتى رجال الشرطة المحلية قبل لحظات من مغادرتنا، وعندما شاهدهم أحد الناشطين يقتربون منّا عبر المقبرة، تشكل حائط بشري حولي بسرعة لمنعهم من اعتقالي. لكن أحدهم أوضح أنهم جاؤوا لأن عدداً كبيراً من السيارات قد توقفت في مكان محظور عند مدخل الأراضي المحيطة بالدير. عند ذلك فقط عادت الأمور إلى طبيعتها.

عندما قال لويس لضابط الشرطة: إننا على وشك المغادرة إلى قاعدة هانسكوم الجوية، على بعد قرابة عشرين دقيقة من شيربورن، عرض مرافقتنا. وهكذا انطلقنا بمرافقة سيارة شرطة في مقدمة قافلة طويلة من المؤيدين والأنصار.

حين سرنا على طرق الضواحي الريفية، عزف والدي وشقيقي مزيداً من موسيقى نيكاراغوا الشعبية، بينما طرح بعض المراسلين، من

ضمنهم فريق أرسله مايكل مور Michael Moore منتج الأفلام الوثائقية، بعض الأسئلة الختامية. ولدى وصولنا إلى القاعدة، رحب بنا مزيد من الصحفيين والناشطين الذين نصبوا آلات التصوير ومعدات تسجيل الصوت. وفي موقع قريب، عند الجهة الجانبية للطريق المواجهة للمنشأة العسكرية، رفرف علم السلام وراية المحاربين القدماء من أجل السلام. قبّلت أصدقائي وأقربائي وعانقتهم، ثم تقدم نحونا، أنا ولويس، عدد من رجال الشرطة العسكرية. بدا واضحاً أنهم لا يعرفون شيئاً عما يجري.

قال لويس مخاطباً الضابط المسؤول: «مرحباً، يا سيدي، اسمي لويس فونت؛ أنا محام أمثل الرقيب الأول ميخيا، الذي أتى إلى هنا اليوم ليسلم نفسه رسمياً إلى الجيش، ويكون تحت تصرفه».

بعد أن قدمت للضابط بطاقة الهوية العسكرية، طلب مني مرافقته إلى القاعدة. قبل الوصول إلى البوابة، التفتُّ لألوح مودعاً للمرة الأخيرة. ردّ التحية أقاربي، وأصدقائي، والمحامون المدافعون عني، والناشطون المؤيدون للسلام، وعدد من مراسلي شبكات الأخبار الرئيسة. بدا أن جواً من الحزن العميق يخيم على المجموعة. هتفت إحدى النساء: «إننا نحبك يا كاميلو!» فرد الحشد الحزين بالهتاف والتهليل.

التفت والدي إلى والدتي، وقال باكياً: «ماذا فعلنا يا ماريتزا؟ لماذا سلمنا ابننا لهم؟».

ظلوا هناك مدة يراقبون المشهد بانتباه عندما التقيت بجماعة من رجال الشرطة العسكرية، يرتدون ملابس مموهة، ويحملون أجهزة اللاسلكي والبنادق. أخيراً، ركبت سيارة دورية، أخذتني إلى مبنى مجهول داخل قاعدة هانسكوم الجوية.

الثاني عشر

بدا من الواضح أن الضباط في هانسكوم لم يكونوا على علم بما يجري خارج قاعدتهم في ذلك اليوم. لم يطرحوا أي سؤال عن الجانب السياسي من القضية، بل لم يتطرقوا إلى غيابي دون إذن. أرادوا فقط التحقق من أنني عضو في وحدة الحرس الوطني في ميامي بفلوريدا. بدا جنود القاعدة المكلفون بحراستي كأنهم خائفون مني، وعاملوني كأني جنرال واسع النفوذ أو شخصية رفيعة المستوى. وبعد برهة، دفعهم الفضول لمعرفة هل أنا نجم شهير، إضافة إلى كوني رقيباً أول في الحرس الوطني.

سألني الجندي المكلف بحراستي: «لماذا جاء هؤلاء كلهم معك، أيها الرقيب؟».

قلت، ومازلت متأثراً بأحداث ذلك اليوم: «لا أعرف، ربما لأنهم يوافقونني الرأي».

سأل مقطباً: «يوافقونك الرأي؟! وماذا عن أولئك الذين يحملون آلات التصوير التلفزيونية؟».

أجبته، وأنا راغب عن الدخول في التفاصيل: «ستعرف عما قريب».

بعد التحقق من أنني جندي في الحرس الوطني، ونظراً لأنني وضعت نفسي طوعاً تحت تصرف الجيش، قررت القيادة في قاعدة هانسكوم أن اختطار هربي معدوم. وفي غضون بضع ساعات من تسليم نفسي، تسلمت بطاقة ذهاب إلى ميامي من وكالة سفريات داخل القاعدة، وانتظرت قدوم لويس ليوصلني إلى مطار لوغان Logan الدولي في بوسطن. كانت والدتي وخالتي في انتظاري هناك لنسافر بالطائرة معاً.

عندما ودعني لويس وغيل وابنتهما إميلي في المطار، لم تكن والدتي وخالتي الوحيدتين في انتظاري. فقد انتشر خبر أول محارب سابق في العراق يدين الحرب، وسمع بضعة مراسلين خبر قرار القاعدة الجوية بإخلاء سبيلي وإرسالي إلى ميامي بالطائرة؛ بل عرفوا اسم شركة الطيران. واحتشدت مجموعة من عشرة مراسلين تقريباً في انتظاري داخل صالة الركاب.

«لا، لم يوجه إلي بعد أي اتهام. ولا أعرف ماذا سيفعلون. لا، لم يسيئوا معاملتي. أنا على ما يرام. شكراً لكم. سوف التحق بوحدتي في فلوريدا، غداً صباحاً ربما».

تحركت معنا مجموعة المراسلين، حاملين آلات التصوير والمايكروفونات، ونحن نشق طريقنا نحو أمن المطار. تملكني شعور غريب جراء هذا الاهتمام الكبير، ولكن الأمور سارت على هذا المنوال منذ أن خرجنا من القداس في دير السلام. إضافة إلى ذلك، أبلغني لويس وتود بأن وجود المراسلين يقلص احتمال التعرض لسوء المعاملة من العسكر.

لم يختلف الوضع كثيراً عند وصولنا إلى مطار ميامي الدولي في وقت متأخر من تلك الليلة. وجدنا بانتظارنا عدداً من مراسلي الصحف ومحطات التلفزة المحلية. قلت لهم: إنني سأذهب إلى بيتي ثم ألتحق بوحدتي في ساعة مبكرة من صباح اليوم اللاحق. كانت والدتي قد أعدت مسبقاً الترتيبات اللازمة لحضور ميلاديس، والدة الاختصاصي أوليفر بيريز، التي استضافت أول صلاة حضرتُها لدى عودتي إلى فلوريدا، لنقلنا من المطار. أخذتنا ميلاديس إلى بيتها، حيث شاهدنا الأخبار المحلية على التلفزيون. احتل خبر تسليم نفسي إلى الجيش مقدمة النشرات الإخبارية، وشملت التغطية الإعلامية مقابلات مع بعض أفراد وحدتي، الذين لم يؤيدوا موقفي على الأغلب. لاحظت غياب جنود جماعتي، أو حتى فصيلتي عن المقابلات، مع أنهم جميعاً يعيشون في منطقة ميامي. من الواضح أن وسائل الإعلام في المدينة لم تبد أي اهتمام برأي الجنود الذين قاتلوا فعلاً إلى جانبي.

لم تسعفنا العودة إلى بيتنا في النجاة من وسائل الإعلام المسعورة. لم ينقطع رنين الهاتف. في البداية، استقبلت والدتي المكالمات، وشرحت بكل صبر أننا مرهقون، وأننا بحاجة إلى قسط من النوم. ولكنها لم تتوقف، وفي النهاية اضطررنا لرفع السماعة. استيقظنا، بعد بضع ساعات لنجد البريد الصوتي متخماً بالرسائل، وعربة بث تلفزيوني تنتظر أمام المبنى.

وجدنا مجموعة أخرى من المراسلين في انتظارنا أمام مبنى التدريب التابع للحرس الوطني في شمال ميامي، إضافة إلى محقق من شرطة ميامي رافقني لمقابلة رائد من الدائرة القانونية في الحرس الوطني. وعندما دخلنا المبنى، توقف المحقق لحظة، وبعد أن تأكد من عدم وجود أحد حولنا، التفت إليّ.

قال: «رقيب ميخيا، أريد أن تعرف أنني جندي، إضافة إلى كوني ضابطاً في الشرطة. أنا رقيب أول احتياطي». تلفّت حوله لحظة، ثم قال: «أظن أنك محق في كل ما تقوله، لكن يجب أن تعلم أن هناك عواقب خطيرة لأفعالك».

أجبته: «أعرف أيها الرقيب، أعرف أن ثمة عواقب».

«قد ينتهي بك المطاف في السجن، أنت تسبب مشكلة للجيش».

«أعرف أيها الرقيب».

ختم كلامه وبدا صادقاً: «طيّب، مادمت تعرف». ثم ذهب إلى إحدى الغرف بحثاً عن الرائد.

داخل مركز التدريب، الذي لم يكن سوى ملعب ضخم لكرة السلة، رأيت أوليفر وميلاديس. أرادا تقديم كل دعم ممكن لي. وبعد بضع دقائق، انضمت إلينا والدتي وخالتي، بعد أن تحدثتا في الخارج إلى الصحفيين. ثم شاهدنا رقيب الفصيلة السابق، بالانغو، يتجول في الملعب. كان يرتدي ملابس مدنية، ويتحدث عبر هاتف خلوي بصوت مرتفع. بدا كأنه يريد منا أن نسمع كل ما يقول.

قال، وهو ينظر إلى الهاتف، ثم يختلس نظرة إلينا، ليتأكد من جلب انتباهنا: «نعم، أنا هنا في مركز التدريب. أجل، إنه هنا». اقترب منا قليلاً. «ماذا؟! لا أريد أن أتحدث معه، إنه جندي هارب». ثم قال لأوليفر الذي وقف إلى جانبي: «أيها الاختصاصي بيريز: ما الذي يجري هنا؟».

رد أوليفر على بالانغو، الذي أصبح الآن على بعد ثلاثة أمتار منا: «لا شيء، أيها الرقيب».

قال بالانغو، الذي ظل قابضاً على هاتفه قرب أذنه، مع أن المكالمة انتهت على ما يبدو: «حسناً، تسرني رؤيتك». تساءلت: هل كان يتحدث على الهاتف فعلاً، أم أنها مجرد تمثيلية.

أجاب بيريز: «تسرني رؤيتك أيضاً أيها الرقيب». ولكن بالانغو سار مبتعداً، والهاتف الصامت مازال على أذنه.

اقترب منا رجل آخر يرتدي ملابس مدنية. عرف نفسه بأنه زوج إحدى المجندات في الوحدة. تحدث إلي بالأسبانية بلهجة أهالي الكاريبي.

قال، وعلى وجهه تعبير جدي: «شاهدتك في الأخبار بالأمس، وعرفت أنك ستكون هنا اليوم. أحضرت لك هذه، لتحمي كل خطوة من خطواتك». وأخرج من جيبه سبحة وضعها في يدي، وأضاف: «فليباركك الله يا بني». ثم اختفى في إحدى الغرف.

عندما التقيت في نهاية المطاف بالرائد المسؤول في الدائرة القانونية في مكتب قريب من الملعب، أبلغني أن الأمر صدر بأن أستقل عربة حكومية إلى قاعدة الجيش في فورت ستيوارت، بولاية جورجيا، حيث يجب أن أنتظر قرار الجيش فيما يتعلق بقضيتي. وعُيّن فريق من جنود كتيبتي لمرافقتي إلى القاعدة. وعلينا أن نغادر خلال بضع ساعات.

اتصلت على الفور عبر هاتفي الخلوي بلويس. وعندما أبلغته بالأمر الذي تلقيته للتو، لم يشعر بالارتياح. التفتُّ إلى الرائد، وقلت: «طلب مني المحامي أن أبلغك بأننا نعدّ هذا إجراءً عقابياً من جانب الجيش. وحقيقة أنني سلمت نفسي مرتين طوعاً؛ أولاهما في قاعدة هانسكوم في ماساتشوستس، والثانية هنا صباح هذا اليوم، دليل دامغ على النية لحل مشكلتي مع الجيش، ولا حاجة إلى نقلي مخفوراً».

أجاب الرائد، وبدا جلياً أنه يحاول طمأنتي: «لا،لا، لا، كل ما في الأمر أننا نريد أن نقدم كل مساعدة ضرورية، لنتأكد من وصولك إلى فورت ستيورات. نحن نفعل هذا لنساعدك».

نقلت كلامه إلى لويس، الذي كان ينتظر على الهاتف.

قال: «هؤلاء لا يريدون مساعدتك، بل وضعك تحت السيطرة، لتصمت. هل تستطيع الوصول إلى فورت ستيوارت دون مساعدتهم؟ هل تستطيع ماريتزا ونورما توصيلك إلى هناك بالسيارة؟» في إشارة إلى والدتي وخالتي.

قلت له أجل.

بدا أن صبره نفد: «إذاً، اطلب منهما ذلك. واشكر الرائد على العرض، ولكن قل له: إنك تفضل الذهاب إلى هناك بوسائلك الخاصة، وإنك لا تحتاج إلى حراسة».

نقلت كلامه إلى الرائد. وحين ظل مصراً على نقلي بسيارة حكومية مع مرافقة لحراستي، طلب لويس التحدث معه مباشرة. دام الحديث بضع دقائق، وعندما أعاد الرائد الهاتف إليّ، بدا لويس أكثر هدوءاً:

«كاميلو، قلت للرائد إنك ستُطيع أي أوامر مباشرة تتلقاها طبعاً، ولكن إذا أرغمت على ركوب سيارة حكومية لتقلك إلى فورت ستيوارت مع حراسة عسكرية، سنعدّ ذلك إجراءً عقابيّاً من قبل الجيش، وسنقدم شكوى رسمية. وسوف أتصل برؤسائه. اتصل بي مرة أخرى عندما يتخذون قراراً، ولا تفعل أي شيء دون إبلاغي».

بعد نحو ساعة دخل المكتب رائد آخر، قوي البنية لئيم الملامح، وسلمني مذكرة.

قال: «الرقيب الأول ميخيا، بما أنك رفضت مساعدتنا، آمرك مباشرة بالالتحاق بقاعدة فورت ستيوارت، بولاية جورجيا، في موعدٍ أقصاه الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم السابع عشر من آذار (مارس) 2004. هل فهمت أيها الرقيب؟».

تضمنت المذكرة التي تسلمتها نسخة مكتوبة من الأمر. وبعد التشاور مرة أخرى مع لويس، وقّعتُ المذكرة وأعدتها. شعرت بالارتياح، إذ لم يعد من الضروري أن أغادر في اليوم نفسه، لأنني أعددت بعض الترتيبات لقضاء بضع ساعات مع سامانثا. وعندما خرجت لأتحدث مرة أخرى مع الصحفيين، أوقفني الرائد المسؤول في الشؤون القانونية.

قال: «إذا لم يكن عندك مانع أيها الرقيب ميخيا أودّ أن أمشي معك قليلاً».

أجبت، وأنا ألاحظ صديقه القوي اللئيم خلفنا: «سوف أتحدث مع الصحفيين، فهل ستحاول منعي؟».

هزّ رأسه قائلاً: «لا، لا، يمكنك التحدث معهم؛ أريد فقط الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالجيش».

وقفت والدتي، وخالتي، وميلاديس، وأوليفر خلفي عندما تحدثت مع وسائل الإعلام. في حين وقف الرائد بجانبي مباشرة طوال الوقت، وراقب صديقه اللئيم ما يحدث عن بعد، وقد ضمّ ذراعيه إلى صدره. كدت أشعر

تقريباً بنظراته الحاقدة تخترق ظهري. لكن الحضور العسكري لم يمنعني من التعبير عن رأيي.

قلت مخاطباً الصحفيين: «مبرر هذه الحرب هو المال، ولا يجوز أن يذهب أيّ جندي إلى العراق ليضحي بحياته في سبيل النفط».

ابتسم بعض المراسلين، وأومأ آخرون برؤوسهم موافقين؛ وبدا كأن غيرهم يريدون قتلي. ثم سألني أحدهم إن كنت مستعداً لما قد يحدث لي وللذهاب إلى السجن؟

أجبت: «أنا مستعدٌّ للذهاب إلى السجن، لأن ضميري مرتاح. أنا مستعد لأي تضحية».

عندما سأل الصحفيون: ما هي الإجراءات التي سيتخذها الجيش؟ أجاب الرائد: إن مذكرة اعتقال ستصدر بحقي إذا لم ألتحق بقاعدة فورت ستيوارت في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم اللاحق، ولكن لا توجد اتهامات ضدّي الآن. وحين سئلت عن معاملة الجيش، قلت: إن الجيش يعاملني باحترامٍ، ويحافظ على كرامتي. بعدها تحولوا إلى أوليفر، الذي قال: إنه يساندني، ولكنه قد يعود إلى الجيش إذا دعاه للقتال مرة أخرى. وعندما سألوه عن رأيه بي قال: «أعتقد أنه قائد شجاع، ويجب عدم معاقبته».

سأل مراسل آخر: «هل تعدّه جباناً؟».

قال أوليفر: «لا، خضت معه معارك عديدة. إنه ليس جباناً».

لم أتمكن من قضاء سوى مدة قصيرة مع سامانثا، قبل التوجه إلى

فورت ستيوارت في تلك الليلة. تستغرق الرحلة بالسيارة إلى هناك تسع ساعات تقريباً، وهذا يعني أن عليَّ الانطلاق بعد توصيل سامانثا إلى أمها فوراً، وقضاء الليل على الطريق. كان وداعها مؤلماً. ثمة جو كئيب من عدم اليقين خيم على كل مناسبة التقينا فيها، منذ أن علمت بأني ذاهب إلى الحرب، ولم تكن هذه المرة مختلفة. ومع أني شعرت بالارتياح لأني بدأت أخيراً عملية حل المشكلة مع الجيش، إلا أن القلق اجتاحني أيضاً. إذ لم أعرف هل سأعاقب بالترحيل أم بالسجن سنوات؟! أرهقني التفكير باحتمال ألاّ أرى ابنتي مرة أخرى وأثقل كاهلي.

تولت والدتي وخالتي القيادة طوال الرحلة، بينما حاولتُ أخذ قسط من النوم في المقعد الخلفي. تحظى الرحلة بالسيارة نحو الشمال انطلاقاً من ميامي، التي تقع عند أقصى الطرف الجنوبي من شبه جزيرة فلوريدا (ومعظم سكانها من أصول لاتينية)، بميزة فريدة، فهي تقرب المسافرين من الجنوب (الأمريكي)، كلما اتجهوا شمالاً. وبعد الاهتمام الإعلامي الذي تلقيته منذ أن سلمت نفسي للجيش، أحجمت عن الخروج من السيارة عند توقفنا في المطاعم أو محطات الوقود. ففي ذلك الوقت، كان تأييد الحرب والرئيس قوياً ومنتشراً في سائر أنحاء فلوريدا.

عند وصولنا في نهاية المطاف إلى البلدة المجاورة لفورت ستيوارت في الساعة السابعة صباحاً، تحدثت بإيجاز إلى مجموعة صغيرة من المراسلين المنتظرين خارج الفندق الذي حجزت فيه خالتي؛ وأبلغتهم والدتي بمكان المؤتمر الصحفي ليتوجهوا إليه. شملت المجموعة مراسل وكالة أسيوشييتدبرس الدائم الحضور، وعدداً قليلاً من مراسلي الصحف المحلية. وفوجئت بفريق إخباري "مسلح" بآلة تصوير فيديو أرسله الجيش.

بعد أن نمت بضع ساعات، غادرنا الفندق إلى القاعدة. وعند وصولنا خرج رجلان بملابس مدنية من سيارة دون علامات. بدا أن الحراس عند البوابة يعرفونها. أحدهما قوي البنية يضع نظارات شمسية سوداء، تقدم نحونا وعرّف نفسه. قال: إنه من إدارة التحقيق الجنائي العسكري، وطلب مني مرافقته مع شريكه.

سألته خالتي نورما، الواقفة إلى جانب والدتي: «عذراً، هل يمكن أن نأتي معه؟ نستطيع أن نوصله بالسيارة إلى أي مكان».

طمأنها موظف إدارة التحقيق الجنائي: «لا تقلقي يا سيدتي. سنأخذه إلى الوحدة التي تم فرزه إليها».

قالت خالتي بإلحاح: «ولكننا نستطيع أن نقلّه إلى هناك».

فكّر الرجل لحظة قبل أن يوافق. بعد الالتحاق بوحدتي الجديدة والتحدث بإيجاز إلى الرقيب الأول المعين حديثاً، عانقت والدتي وخالتي وأكدت لهما أنني سأكون بخير. عندها فقط غادرتا بعد تردد إلى فندق قريب، حيث ستقيمان مدة أسبوع.

بدأت المرحلة اللاحقة من رحلتي عبر جيش الولايات المتحدة، رحلة زودتني بمعرفة عميقة وجديدة بهذه المؤسسة الضخمة والقوية. أبلغ القادة في فورت ستيوارت المراسلين أن بإمكانهم التحدث معي خارج القاعدة، تفادياً لإثارة مشكلات مع الجنود الآخرين؛ لكن أغفلوا إعلامهم بالأمر المباشر القاضي بمنعي من مغادرة القاعدة تحت أي ظرف. وبهذا القرار، أوقف الجيش فعلياً المقابلات مع الصحفيين، وكتم تعليقاتي العلنية المناهضة للحرب.

وإضافة إلى عزلي عن وسائل الإعلام والعالم الخارجي، حاولوا فصلي عن بقية جنود الوحدة التي عينت فيها: كتيبة الحجز الطبية. الكتيبة تحتجز الجنود الذين عادوا من العراق وعانوا مشكلات صحية، أو لم يُرسلوا إلى الحرب بسببها. ولم يوجد فيها سوى قلة قليلة من الجنود لأسباب قانونية.

شعر معظم جنود الكتيبة الطبية بأنهم تعرضوا لخديعة كبرى من النظام العسكري، خصوصاً أولئك الذين أصيبوا بجروح في الحرب، وانتظروا شهوراً لتلقي المعالجة الطبية الأساسية. أما الثكنات التي وضعوا فيها فكانت عبارة عن مبان إسمنتية غير مطلية، وبعضها لم يجهز حتى بالحمامات أو المراحيض. كما تبعد مسافة طويلة عن المستشفى، وتلك مشكلة عانى منها على وجه الخصوص الجنود المصابون بجراح تجعل من الصعب عليهم المشي.

بدا واضحاً أن الجيش أراد إبعادي عن هذا الاستياء المتأجج تحت السطح خوفاً من أن يسعّر لهيبه جندي معارض للحرب مثلي. كنت أكوم أمتعتي على السرير في ثكنة الكتيبة الطبية، عندما دخل الرقيب الأول مسرعاً، وطلب مني أن أحزم أمتعتي كلها من جديد.

قال باستعجال: «رقيب ميخيا، أنا آسف. ثمة خطأ ارتكب؛ سوف نضعك في مبنى آخر مخصص لضباط الصف».

أدركت على الفور أن المشكلة لا علاقة لها بوضعي مع ضباط الصف، لأن هناك رقباء آخرين في المبنى. بل بحقيقة أن المبنى مفتوح من الداخل، والجنود يناموم معاً في حجرة كبيرة؛ ولا يريدون أن أقيم صلات فكرية مع

خمسين جندياً آخر، خصوصاً وأن معظمهم يملؤهم الغضب من الجيش ولا يترددون في انتقاده.

أما المبنى الآخر، الواقع على الطرف المقابل من الشارع، فكان يتألف من عشر غرف تؤوي كل واحدة جنديين اثنين. وإضافة إلى الخصوصية في هذه الغرف، هناك أيضاً قاعات مشتركة تضم ثلاجة وفرن مايكروويف، وحمامات ومراحيض. نقل جنديان من إحدى الغرف، لكي أشغلها بمفردي، واستشعرت الكره الذي سببه هذا الترتيب نحوي من قبل جيراني.

لم يستمر هذا الوضع المزعج طويلاً، لأن القاعدة تسلمتْ بعد أسبوعين أو ثلاثة عدداً من المساكن الحديثة المحمولة على قاطرات. ونقل أفراد الكتيبة الطبية كلهم إلى هذه المساكن المحمولة، باستثنائي. إذ لم يكتف الجيش على ما يبدو بوضعي في غرفة بمفردي؛ بل أراد عزلي داخل مبنى لا يوجد به أحد غيري.

لم يختلف الأمر كثيراً فيما يتعلق بعملي في القاعدة. في البداية، لم يعرفوا أين يضعونني، وتمثل أحد الخيارات المبكرة، الذي فكّر فيه أحد المسؤولين في سلسلة القيادة، في تكليفي بالمساعدة في إدارة ميادين التدرب على إطلاق النار، وهذا يبعدني عن مناطق النشاط والحركة في القاعدة. لكن المشكلة في هذه الوظيفة أن لويس قدّم طلب التمتع بصفة المعارض للحرب بدافع الضمير إلى القائد العام في اليوم اللاحق على تسليم نفسي في قاعدة هانسكوم، وتنص الأنظمة المطبقة على ضرورة عدم تكليف المعارض للحرب بدافع الضمير بواجبات لها علاقة من أي نوع بالتدريب العسكري. لكن هذا النص لا يلتزم به الجيش دوماً. إلا أنه في هذه المرة لم

يرغب في المخاطرة، خصوصاً مع الاهتمام الإعلامي المركز على قضيتي، فألغى قرار تكليفي بالوظيفة.

بعد ذلك بوقت قصير، عينت في القسم المسؤول عن التدريب في فورت ستيوارت. في البداية، تركز عملي على نقل قطع الأثاث والمفروشات، ولكن الرقيبين العاملين معي أصيبا ولم يعد باستطاعتهما حمل أي أثقال؛ ولم يكن من المفترض أن أقوم بالمهمة الشاقة وحدي دون معين، ولذلك تركني المسؤولون وشأني. فجلست دون عمل أشاهد أخبار التلفزيون كل صباح. وعندما يحين موعد الغداء، كنت أذهب إلى مطعم قريب لتناول وجبة مقيتة عموماً، ثم أعود إلى المكتب لأقفل الباب، وينتهي عمل اليوم.

استمر هذا الوضع إلى أن اكتشفت سكرتيرة العقيد المسؤول عن القسم بأن لدي بعض المهارات الأساسية في الكومبيوتر. واهتمت على وجه الخصوص بمعرفتي ببرنامج «باور بوينت» (PowerPoint)، التي عدتها مفيدة على الرغم من ضآلتها. وسرعان ما أصبح عملي متصلاً بصورة مباشرة بها أو بالعقيد.

في البداية حسبت أن العقيد لا يعرف شيئاً عن وضعي، ولا من أكون، إلى أن جاء في أحد الأيام إلى المكتب، وسألني إن كنت على علم بالمحتجين المجتمعين خارج القاعدة تأييداً لي؟ أجبته بالنفي. ولما أبلغت لويس بالحديث المقتضب مع العقيد، انزعج كثيراً.

«ما كان يجب أن تقول ذلك، يا كاميلو!». كانت نبرة لويس تنخفض درجة دوماً عندما يذكر اسمي. «يمكنه الآن أن يبلغ الجنرال أو أي مسؤول آخر بأنك لا تعرف ما يحدث».

قلت، ولم أفهم سبب المشكلة: «ما الضرر في ذلك؟».

أجاب: «لأن ذلك يعني أن يخرج مسؤول من القاعدة ليقول للمحتجين: إنهم لا يمثلونك، لأنك لا تعرف شيئاً عنهم».

بدأت أستوعب الصورة.

« كاميلو، تأكد أن كل ما تقوله لهؤلاء سيحاولون استغلاله لمصلحتهم».

سألت: «ماذا يجب أن أقول إذاً؟ في الحقيقة لم أعلم بوجود محتجين في الخارج».

«قُلْ له باختصار: مع كل الاحترام، أيها العقيد، نصحني المحامي بعدم الرد على أي أسئلة قبل مناقشتها معه، وهو يرحب باتصالك به مباشرة، وهذا رقم هاتفه».

غير أني في الواقع وجدت صعوبة بإحالة رؤسائي إلى المحامي، كلما طرحوا علي سؤالاً أو تلقيت منهم أمراً. شعرت كأنما أبني جداراً بيني وبين الجيش، وبدا ذلك مستحيلاً بعد نحو تسع سنين من الطاعة. وازدادت صعوبة الوضع على نحو خاص مع طلب الموافقة على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير.

وصفتُ في الطلب، بشيء من التفصيل، الأحداث المتصلة بسوء معاملة السجناء وإهانتهم في قاعدة الأسد الجوية. في البداية لم يستحث ذلك أي إجراء، أو حتى اهتمام، ولكن بعد تفجر فضيحة سجن أبو غريب على مستوى العالم كله، بدا لي كأن سلسلة القيادة قد استثمرت كثيراً من الطاقة والجهد لحملي على ملء استمارة مختلفة، بتاريخ لاحق على غلافها.

أبلغني قائد سريتي، النقيب موهر Mohr، ضابط المشاة الودود، لكن الصارم، بأن «محاميك ارتكب خطأ في الطلب الأصلي»، ثم أضاف، معتذراً تقريباً: «أنا التزم الأنظمة والقواعد هنا».

أجبت، ربما للمرة العاشرة: «علم، يا سيدي. تحدثت في هذا الأمر مع محاميّ، وأكدّ لي عدم وجود أي خطأ. وهو يعارض إعادة كتابة الطلب، بل يريد منك أن تتصل به».

قال: «لن أتصل بمحاميك، أيها الرقيب ميخيا». عرفت أن النقيب موهر أراد مضايقتي، ولكنه حاول في أغلب الأحيان أن يظل هادئا. «أنا قائد سريتك، وأبلغك بضرورة إعادة ملء الطلب».

قال لويس فيما بعد: «صدقني، يا كاميلو، إن قائد سريتك لا يتخذ القرارات، ولا يقرر كيفية تعامل الجيش معك؛ بل يتلقى الأوامر من جهات عليا».

كررت إبلاغ الرقيب الأول وقائد السرية، بأنني لن أعيد ملء الاستمارة مرات تنأى عن الحصر؛ مع ذلك، استمر الاثنان في محاولة إقناعي بتقديم طلب جديد، بذريعة وجود خطأ في القديم، مع أنهما عرضا بين الحين والآخر حججاً جديدة.

قال النقيب موهر ذات مرة: «رقيب ميخيا، تعلم أن محاميك قدم الطلب إلى القائد العام مباشرة».

القائد العام هو أرفع سلطة في القاعدة العسكرية. في حالة فورت ستيوارت، كان القائد العام هو الجنرال وليام وبستر، الذي أرسل إليه

لويس بالفاكس طلب الموافقة على منحي صفة المعارض للحرب بدافع الضمير بتاريخ 16 آذار (مارس) 2004.

«ويُفترض أن ينتقل الطلب عبر سلسلة القيادة، التي تبدأ من عندي».

على مدى العقود التي اشتغل في أثنائها لويس في ميدان القانون العسكري، قدم كثيراً من طلبات الموافقة على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير، وتمتع بخبرة واسعة واطلاع شامل على الإجراءات كلها. كما درس بدقة القانون العسكري الموحد، وعمل عليه مدة أطول من سنوات حياة النقيب موهر المهنية، وربما الشخصية. لا توجد أي أخطاء في الطلب.

من الأسباب المحتملة وراء تصميم القيادة في فورت ستيوارت على إعادة ملء الطلب ادعاء المؤسسة العسكرية أن فضيحة سجن أبو غريب نتجت عن «بضع تفاحات فاسدة»، بضعة جنود من ذوي الرتب الدنيا. لكن الطلب الذي تقدمت به للموافقة على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير ناقض هذا الزعم، ووصف كيف يدير المحققون السريون («الأشباح») العملية كلها، وهذا يشير إلى أن سوء معاملة السجناء إجراء منهجي أجازه مسؤولون حكوميون كبار على أعلى المستويات. فالإجراءات المتعلقة بكيفية «تطبيق» المعاملة السيئة والمهينة كانت تنتقل من وحدة إلى أخرى عبر دورات تدريبية سريعة، مما يؤكد أنها ممنهجة ونظامية وليست حالات فردية معزولة. وأظهر أيضاً أن سوء معاملة السجناء بدأ بمجرد وصول الجنود الأمريكيين إلى العراق، بل قبل إعلان الرئيس: «انتهاء العمليات الحربية الرئيسة».

قبل افتضاح الانتهاكات في سجن أبو غريب على نطاق واسع، كان بمقدور المؤسسة العسكرية أن تنكر بسهولة ادعاءات الجنود عن سوء

معاملة السجناء، بوصفها أكاذيب لا أساس لها من الصحة، أو تُجري تحقيقاً سرياً أُعدت نتائجه مسبقاً. ولكن مع تراكم الأدلة التي تفصّل المعاملة الوحشية وغير العادية في سجن بغداد، لم تجد المؤسسة العسكرية مفراً من التظاهر، على أقل تقدير، بأنها تتعامل مع الادعاءات بصورة جدية. إن تجاهل طلب المعارض للحرب بدافع الضمير، وصف سوء معاملة السجناء، قبل أسابيع من افتضاح انتهاكات سجن أبو غريب، لم يكن طريقة مناسبة لحماية صورة الجيش، خصوصاً وأن مقدمه تمركز في بؤرة اهتمام إعلامي واسع.

وحين أدركت القيادة في فورت ستيوارت أخيراً بأنني لن أعيد ملء استمارة الطلب، بدأت محاولة إجراء العملية كلها بأقصى سرعة. ففي أحد الأيام، ودون سابق إنذار، أبلغني نقيب لم ألتقِ به من قبل، أنه الضابط المسؤول عن البت في الطلب، وأن جلسة الاستماع ستعقد في اليوم اللاحق. لم يبق أمامي سوى أربع وعشرين ساعة لاستكمال الإعداد للقضية، وهي مهمة تتطلب دعوة الشهود، وجمع الأدلة التي أريد تقديمها، والتأكد من وصول محاميّ إلى جورجيا من ماساتشوستس.

قال لويس عبر الهاتف: «لا، قطعاً لا. ليس غداً، ولا بعد غد، ليس قبل انتهاء المحاكمة العسكرية. لدينا الكثير من الأمور لمعالجتها قبل جلسة الاستماع. يمكن أن تطلب من النقيب الاتصال بي إذا رفض».

أدى ذلك كله إلى مزيد من التدهور في العلاقة مع رؤسائي المباشرين. فبالنسبة لهم المسألة بسيطة: كنت في نظرهم مجرد جندي، ولذلك يجب أن أطيع الأوامر. ولم يفهم المضامين السياسية الأشمل لوضعي إلا أصحاب

الرتب العليا في التراتبية العسكرية. غير أنهم لم يتعاملوا معي مباشرة؛ بل اكتفوا بإصدار الأوامر من مواقعهم الرفيعة في السلطة، إلى مستويات السرية، حيث يدير المشهد النقباء والرقباء.

كانت تلك مدة عصيبة، ولكن شهدت أيضاً بعض الأوقات المريحة قبل بدء المحاكمة. والغريب أن أسعد اللحظات أتت حين علمت للمرة الأولى أنني سأمثل أمام محكمة عسكرية. فقد انتهى الانتظار المقلق وتيقنت أنني سأحاكم. والأهم أنني عرفت بأن العقوبة القصوى لن تتجاوز السجن اثني عشر شهراً، نظراً لنوع المحاكمة العسكرية المبيّن في لائحة الاتهام. حتى ذلك الحين، لم تكن لدينا أي فكرة عن كيفية تعامل الجيش مع القضية. فقد ظهر احتمال أن يختار الجيش عدم مقاضاتي، ليتخلص مني بهدوء، إدارياً، ودون عقوبة. لكن واجهت أيضاً احتمال الحكم بسجني مدة طويلة.

في يوم صدور قرار الاتهام، استدعاني النقيب موهر إلى مكتبه. وعند دخولي إلى الغرفة، رأيت المدعي العام ، النقيب بالبو Captain Balbo، وهو رجل قصير بدين، نظر إلي بعينين سوداوين مجروحتين. وبدا أنه غاضب مني.

دفعني موهر إلى الوقوف باستعداد، ثم تلا الاتهام وفقاً للمادة 85 من قانون العقوبات العسكري الموحد: الفرار من الجندية.

قال وهو يقرأ من لائحة الاتهام التي حملها بيديه كلتيهما: «الحيثيات: قام الرقيب الأول كاميلو ميخيا، في 16 تشرين الأول (أكتوبر) عام 2003، أو نحوه، عامداً متعمداً، بالتخلي عن واجب خطير: الخدمة في العراق، وترك وحدته، فصيلة المشاة 124 التابعة للكتيبة الأولى المتمركزة في

الرمادي، وظلّ متغيباً وفاراً من الخدمة حتى تاريخ 15 آذار (مارس) 2004 تقريباً».

ما رفع معنوياتي أكثر من معرفتي بأن العقوبة القصوى لا تتعدى السجن مدة سنة، الدعم الذي تلقيته من الجنود الآخرين في القاعدة الذين علموا برفضي العودة إلى الحرب. إذ خبر كثير منهم تجارب مماثلة أو أسوأ في شوارع مدن العراق وأزقتها التي مزقتها الحرب، وعرفوا أنني لا أختلق أو أكذب. اكتفى أغلبهم بالتعبير عن التأييد والموافقة بإيماءة أو إشارة عندما يتعرفون عليّ، ولكن في أكثر من مناسبة همس بعضهم إلي: «يجب أن تبقي رأسك مرفوعاً، أيها الرقيب. لقد فعلت الصواب».

بعد بث المقابلة معي في برنامج «60 دقيقة» على قناة سي بي إس (CBS)، بدأ مزيد من الجنود يتعرفون عليّ، وجاء بعضهم لمصافحتي. في إحدى المناسبات، قالت ابنة ضابط رفيع الرتبة: إنها تتفق معي مئة بالمئة، وإن المؤيدين لموقفي أكثر من المعارضين. بل أيدني عدد من أفراد وحدتي، الذين كانوا يتلقون العلاج في فورت ستيوارت من جراح أصيبوا بها في القتال، وبدا معظمهم مسروراً برؤيتي.

ولكن هناك قلة استنكرت ما فعلته. منها مثلاً جندي من وحدتي نشأت بيننا علاقة صداقة في العراق، لكنه رفض الآن الحديث معي، أو حتى الاعتراف بوجودي. وكذلك الرقيب الأول ديمريست، الذي جاء إلى فورت ستيوارت لتلقي العلاج من جراح أصيب بها بعد أن غادرتُ العراق. وقبل أن ألتقي به مجدداً سمعت أنه في حالة سيئة ويجد صعوبة في المشي.

قلت له بعد ظهر يوم حار: «مرحباً، سمعت أنك في حالة مزرية». لكن سرعان ما أدركت أن أسلوبي لم يكن لائقاً.

قال عابساً، بعد أن رفض مصافحة يدي الممدودة: «لا ، أبداً. أظن أنك أنت في حالة مزرية».

أجبت، وأنا أعيد يدي: «لا أعرف ماذا سمعت عني، أيها الرقيب».

قال: «لم أسمع شيئاً». كانت نبرته حادة عندما قاطعني. «لقد تخليت عن جنودك، ويجب ألا تفعل ذلك. أنت رقيب أول».

حاولت أن أبدو تصالحياً: «لدي أسبابي الداعية لعدم العودة». كنت أحترم ديمريست، وآلمني أن يستنكر موقفي ويرفضه. قلت «ربما نتحدث في وقت آخر».

أجاب: «لا أظن أن لدي ما أقوله لك، يا ميخيا».

قبل أن أتمكن من الرد، سار مبتعداً، وهو يهز رأسه استنكاراً.

تميز ديمريست دوماً بمشيته غير العادية، ولكن عرفت من خطواته العرجاء الآن أن جراحه خطرة. رأيته مرة أخرى في وقت لاحق من الأسبوع ذاته؛ كنا نقف جنباً إلى جنب في الطابور الذي وصلت إليه متأخراً.

قال بعد أن اتخذت مكاني بجانبه، دون أن يلتفت إلي: «طلبوك بالاسم قبل قليل».

قلت: «شكراً أيها الرقيب». سررت لإعادة الاتصال بيننا.

بعد انتهاء الطابور، كان علينا أن نذهب معاً إلى مكتب السرية، وتبادلنا الحديث ونحن ننتظر أمام الباب. إذا لم تخني الذاكرة، فقد أخبرني أن عبوة ناسفة محلية الصنع انفجرت فاخترقت شظاياها الجزء السفلي من جسمه، فأخلي إلى عيادة طبية بالقرب من الرمادي. وعندما

قفز إلى أول شاحنة عائدة إلى عش النسر، كادت الوحدة الطبية أن تتهمه بالغياب دون إذن، قبل أن تعلم بأنه عاد فوراً إلى وحدته.

قال: «لم أستطع التخلي عن رجالي».

«لكنك في حالة سيئة، ولم تكن قادراً على أداء واجبك».

قال: «كان بمقدوري فعل شيء». حل ديمريست محل بار في قيادة الفصيلة، بعد أن أصيب بار في أثناء عملية قطع الطرق: «ربما لم أكن قادراً على المشي برشاقة، ولكني قائد الفصيلة».

لم يصرح ديمريست قط بانتقاده للقيادة علناً، ولكني عرفت أننا نتفق على قضايا كثيرة تتعلق بخطأ المهمات التي قمنا بها. وعرفت أيضاً مدى ما تمتع به من فهم ومعرفة بالإستراتيجية العسكرية، وأنه مفكر عميق، ولكن لم أعرف حتى ذلك اليوم شعوره إزاء الأساليب المؤسفة التي اتبعتها قيادتنا.

قال بعد صمت طويل: «لو أخبرتني، لو قلت شيئاً، لما حدثت مشكلة بيننا».

سألته: «ماذا تعني، أيها الرقيب؟» تساءلت هل كان يقصد أن علي انتقاد الحكومة، أو رؤسائنا في العراق؟

قال: «عن الأمور التي كانت تحدث في وحدتنا».

سألت: «تعني القيادة. ما كان يفعله قادتنا؟ لقد عدتَ إلى الوحدة بعد إصابتك».

«عدت بسبب الجنود، لا القادة. لم أكن آبه بالقادة».

«لقد تحدثتُ علناً عن قيادتنا. عن استغلالها لنا لنيل الأوسمة، عن عمليات القتل دون داع. وجهت انتقادات حادة لها».

سألني، بعد أن نظر إلي أخيراً مقطب الجبين: «متى؟ لم أسمع شيئاً».

قلت: «أجريت كثيراً من المقابلات بعد عودتي، ولكنها سرية، لأني لم أكن مستعداً لتسليم نفسي بعد. كنت أعدّ دفاعاً قانونياً». شعرت بالحاجة إلى شرح موقفي: «حتى بعد العودة إلى الجيش، داومت على الانتقاد. وتحدثت عن كل شيء».

أشاح وجه. جعلني عبوسه ونظراته المتفرسة الحادة أعتقد أن أفكاراً عميقة تتصارع داخل رأسه. بقينا صامتين وهلة. لم أعرف إلى أي مدى وصل في إدانة موقفي، ولكني استشعرت بداية حدوث تغير في موقفه. كان من الصعب معرفة أفكاره الآن. تصورت دوماً أن ديمريست جندي قادر على تحليل الأمور، ولكنه يأخذ طاعة المؤسسة العسكرية على محمل الجد. بدا أن تلك الطاعة، إلى جانب وفائه غير المشروط لجنود وحدته، تضع إحساسه بالواجب العسكري، بغض النظر عن المهمة، فوق أي اعتبار للمشاعر أو الآراء الشخصية.

قلت: «يسرني أنك تستمع إلي». بدا أن مقاطعة الصمت الذي خيم علينا، أو ربما كلماتي، مارست تأثيراً وجدانياً عليه. قلت له: «يسرني أنك تتحدث إلي».

زم ديمريست شفتيه، ليشابه أباً منعه غضبه على ابنه، وفخره به أيضاً، من التحدث إليه بعد أن خيب أمله. أدركتُ مرة أخرى كم أسأت

إلى جنود وحدتي وجرحت مشاعرهم حين رفضت العودة إلى الحرب؛ خصوصاً المقربين إلي.

التفت إلي وعلى وجهه ابتسامة حزينة، وقال: «كان لا بد من التحدث إليك. مهما فعلت، فإنك لا تزال واحداً من جنودي».

بالرغم من المناسبات التي شعرت فيها بالهمة والنشاط وارتفاع المعنويات، كما في تلك المحاورة مع ديمريست، إلا أنني في الحقيقة كنت وحيداً في القاعدة، على الأقل فيما يتعلق بانتقاد الحرب، وتحدي الحكومة والمؤسسة العسكرية. فالجنود في فورت ستيوارت، وأنا منهم، لم يقدروا مضامين المسائل العادية والبسيطة المحيطة بقضيتي. على سبيل المثال، لم يعرف النقيب موهر سبب أهمية وضرورة أن أتقدم بطلب للحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير؛ فقد تصرف بوصفه نقيباً فقط، واتبع الأوامر، وأدى واجبه حسب رأيه، وهذا تحول أحياناً إلى مضايقة صريحة. ومن جانبي، وجدت صعوبة في اتباع كل ما يطلبه لويس، لأني لم أشاطره ما تمتع به من معرفة وفهم للمؤسسة العسكرية والحكومة. فقد رأى نيات مبيتة وراء الأسئلة والمحادثات التي كنت أعدّها عرضية واتفاقية. فهم مدى صعوبة حفاظي على اليقظة والحذر طول الوقت، ولكنه مارس ضغطاً كبيراً عليّ، لأبقى صلباً وصارماً وقوياً.

اعتاد أن يقول: «كاميلو، أعرف أن الأمر صعب. أعرف أنهم يضعونك في غرفٍ حاشدة بضباط وجنود أعلى منك مرتبة، ويحسبون عليك كل عبارة أو إشارة أو تصرف. ولكن يجب ترفض. يجب أن تقول لا».

في المحصلة النهائية، ومع بعض الاستثناءات القليلة، تمكنت من اتباع توجيهات لويس ونصائحه، لكن اضطراري لاتخاذ موقف حازم تجاه

سلسلة القيادة أصبح مصدر توتر شديد. ففي كل مرة أتلقى اتصالاً هاتفياً، أخشى أن يكون اختباراً جديداً لعزيمتي، ولم أعد متأكداً من امتلاك القدرة الأخلاقية على التعامل معه. وصل الأمر إلى حد تشكل خوف رهابي لا عقلاني في نفسي من رنين الهاتف الخلوي. وإلى هذا اليوم، تتسارع نبضات قلبي كلما سمعت نغمة ذلك الرنين المرعب.

واصلت القيادة محاولة حملي على توقيع طلب جديد للمعارض للحرب بدافع الضمير، إلى ما قبل المحاكمة بأسبوعين. ورفضت طلبات لويس بالسماح لي بالسفر إلى ميامي بغرض إجراء التحقيقات المتعلقة بالدفاع عني، وأصرت على حجزي ضمن القاعدة لدراسة الطلب. واحتجّتْ بأن بالسماح لي بالذهاب يضر بالنظام والانضباط في الوحدة. وعندما زارني لويس في القاعدة للتحضير للمحاكمة، أجرينا اللقاءات في مباني الجيش، إذ لم يسمح لي بالذهاب إلى فندق، حتى ذلك الذي لا يبعد أكثر من مئتي متر عن البوابة الرئيسة للقاعدة. التقينا عدة مرات في مواقف السيارات، أو في قاعة الطعام.

لكن مناورات الجيش المخادعة في أثناء الشهرين الفاصلين بين تسليم نفسي والمحاكمة، بهتت بالمقارنة مع انتهاكه الفظ لأنظمته وقوانينه في المحاكمة ذاتها. كنت أُدرك أن قانون العقوبات العسكري منحاز وظالم، ولكن ثبت أن الظلم الذي شهدته في الأيام الثلاثة أمام المحكمة العسكرية، تجاوز حدود الخيال.

***

المحاكمة

في الليلة السابقة على بدء المحاكمة، احتشد عشرون أو ثلاثون من المحتجين خارج بوابات فورت ستيوارت، حاملين لافتات كتب عليها: «أعيدوهم إلى الوطن» و«الحرية لكاميلو». في الأسابيع السابقة، أجرت والدتي وخالتي اتصالات مع مجموعات السلام في سائر أنحاء البلاد، وساعدهما أعضاؤها في استئجار منزل بالقرب من القاعدة لكل من يريد حضور المحاكمة العسكرية.

انتبهت القيادة في فورت ستيوارت للاحتجاج أمام البوابة، وردت عليه بأمر يطلب مني جرد أمتعتي الشخصية وجمع سجلاتي الطبية استعداداً للذهاب إلى السجن. وسوف تدّعي لاحقاً أن ذلك كله إجراء معتاد لكل من يواجه محاكمة عسكرية، في توكيد على مقاربتها للعدالة وفق مبدأ: «مذنب إلى أن تثبت إدانته». شدّدت أيضاً الإجراءات الأمنية في فورت ستيوارت، وقصرت الدخول عبر البوابة الرئيسة على السيارات التي تحمل إذن وزارة الدفاع. أما غير العسكريين الذين يحضرون المحاكمة فقد وجهوا إلى البوابة رقم ثلاثة، التي تبعد مسافة كبيرة عن المدخل

الرئيس، ولا يعرفها حتى كثير من الجنود في القاعدة. أزيلت الإشارات الإرشادية الموضوعة على البوابة، ربما في محاولة لتضليل الذين يحاولون الدخول، ومن ثم منعهم من حضور المحاكمة. وفوق ذلك كله، حدد عدد البطاقات التي تسمح للمدنيين بالدخول إلى القاعدة لحضور المحاكمة.

في صباح التاسع عشر من أيار (مايو) 2004، أول أيام المحاكمة، نُقِلتُ إلى مبنى المحكمة برفقة حارسين من الكتيبة الطبية، وكلفا بملازمتي طوال إجراءات المحاكمة. فوجئ الحراس، مثلي، بمستوى الأمن في فورت ستيوارت ذلك اليوم. فقد طوقت المباني المحيطة بمبنى المحكمة بحواجز إسمنتية، وأخرى مرورية، وشريط أصفر يحذر من أن «المنطقة محظورة». في حين راقب المكان رجال الشرطة المدنية والعسكرية، فضلاً على كلب بوليسي واحد على الأقل.

دخلت مبنى المحكمة عدة مرات من قبل، إحداها بسبب تهمة وجهت إلي، وفي اثنتين أو ثلاث لحضور محاكمات جنود آخرين، بناء على نصيحة لويس لأعتاد على الإجراءات المتبعة في المحكمة العسكرية. ومع أن المبنى بدا من الخارج شبيهاً بكوخ خشبي قديم، إلا أنه شابه في الداخل المحاكم المدنية، حيث اصطفت مقاعد الحضور أمام طاولتين كبيرتين للدفاع والادعاء، ثم كرسي القاضي إلى اليسار، ومقاعد المحلفين إلى اليمين. أما منصة الشهود فقد وضعت بين القاضي والدفاع، في مواجهة هيئة المحلفين مباشرة.

ومع أن ترتيب قاعة المحكمة لم يُلفت النظر، إلا أن عدد العسكريين الحاضرين كان لافتاً. فقد احتل نصفها عساكر بالزي الرسمي: بدءاً بالجنود العاديين وانتهاء بالعقداء. عرفت أن القاعدة لم تعلن المحاكمة،

وعرفت أيضاً حين حضرت محاكمات سابقة، أن قاعة المحكمة لا تعد مكاناً مفضلاً يرتاده الناس، خاصة في أثناء ساعات الدوام الرسمي. وانطباعي أن ذلك إجراء آخر متعمد غرضه إبعاد المدنيين عن «أمور الجيش».

اكتظ الجزء الآخر من القاعة بأفراد العائلة، والأصدقاء، والناشطين، والمراسلين، ومخرجي الأفلام. وباستثناء المصورين التابعين للجيش، خضعت آلات التصوير كلها لتفتيش دقيق عند الباب، إلى جانب أجهزة الكومبيوتر المحمولة، وأجهزة التسجيل، والهواتف الخلوية. واقتصر تسجيل محاضر الجلسة على الكتابة باليد. أما المقابلات المتعلقة بالمحاكمة، فيجب إجراؤها في مركز مخصص للإعلاميين، على بعد ميل من مبنى المحكمة.

عندما دخلت القاعة لمحت ممثلي الادعاء: النقيب بالبو، الضابط البدين الذي حضر توجيه الاتهام، والنقيب ليزا بلوم Lisa Bloom. ثم شاهدت والدتي، وزوجها، وخالتي، وخالي، وجدتي، جالسين خلف حاجز خشبي يفصل طاولة الدفاع عن الحضور. وجلس خلفهم ممثلو جماعة «عائلات الجنود تعلن رأيها»، وجماعة «كود بينك» Code-Pink، و«قدماء المحاربين من أجل السلام»، وعدد من الجماعات المحلية الأخرى المناهضة للحرب. اتخذت مكاني إلى جانب فريق الدفاع، الذي ضم النقيب بيلي ب. رولينغ Captain Billy B. Ruhling مستشار الدفاع العسكري، وانتظرت بدء إجراءات المحاكمة.

استمرت المحاكمة العسكرية ثلاثة أيام، ومرت بثلاث مراحل رئيسة. بدأ المحامون المرحلة الأولى من المحاكمة بنقض صلاحية الجيش وسلطته القضائية المؤهلة لمحاكمتي، لأنني جندي غير مواطن استكملت السنوات

الثماني من الخدمة، ولم أتقدم بطلب للحصول على الجنسية الأمريكية. وهذا جعلني، كما أكدوا بالحجة، غير خاضع لتمديد الخدمة وفقاً للأنظمة والقواعد العسكرية. إضافة إلى ذلك، أشارت غيل إلى اتفاقية دولية بين الولايات المتحدة وكوستاريكا (التي أحمل جنسيتها) تنص على إعفاء مواطني كوستاريكا المقيمين في الولايات المتحدة من الخدمة العسكرية الإجبارية مهما كان نوعها. واستناداً إلى الاتفاقية والقانون المطبق في الجيش، فضلاً على سابقة قانونية رفض فيها مكتب الحرس الوطني طلب وحدة من وحداته تمديد خدمة جندي غير مواطن في ظروف مماثلة تماماً، طلب الدفاع إلغاء المحاكمة.

أكد الادعاء أن الاتفاقية، التي يعود تاريخها إلى عام 1851، لا تنطبق إلا على الذين ألحقوا أو جندوا في الجيش (قسراً)، وليس الذين التحقوا طوعاً وتمتعوا «بثمار وفوائد ومكاسب» الزي العسكري. ادعى النقيب بالبو، بنبرة لا تكاد تخفي الغضب المكبوت، أن تعبير «الخدمة الإجبارية» لا يشمل الجنود الذين هم في مثل وضعي؛ فلو شملتهم، فإنها لن تنطبق على القادمين من كوستاريكا فقط، بل على جميع المقيمين الأجانب الذين أتوا من الصين، وأيرلندا، وإيطاليا، وأسبانيا وعشرة بلدان أخرى[1].

كان البند الثاني على جدول الأعمال طلباً من الادعاء بأن يمنع القاضي ممثلي الدفاع من وضع الحرب والحكومة الأمريكية موضع المساءلة والمحاكمة، على أساس أن القرارات المتعلقة بالقوات المسلحة يجب أن تُترك للسلطتين التنفيذية والتشريعية من الحكومة.

1-Record of Trial: Staff Sergeant Mejia-Castillo, Camilo E., Volume II of V, p. 67.

قال النقيب: «في القضية الراهنة، سيدي القاضي، أبدى المتهم وفريق الدفاع رغبة.. في محاكمة حكومة الولايات المتحدة بسبب أعمالها وقراراتها: الدافع وراء عملية حرية العراق؛ وسلطة الرئيس الأمريكي فيما يتعلق بإرسال الجنود إلى ذلك الجزء من العالم؛ والجوانب القانونية والأخلاقية لذلك النزاع».

كانت تلك واحدة من اللحظات القليلة، طوال الأيام الثلاثة من المحاكمة، التي اتفقت فيها اتفاقاً كاملاً مع النقيب بالبو. فقد كنا نحاول فعلاً القيام بذلك كله، وبالطريقة التي وصفها.

ثمة التماس آخر قدمته الحكومة بأن تعد المحكمة طلبي المؤلف من خمس وخمسين صفحة للحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير (إلى جانب معتقداتي الشخصية)، غير ذي صلة وتبقيه خارج المحاكمة.

ادعى بالبو أن «من الممكن استبعاد البيّنة، حتى ولو كانت ذات صلة، إذ سببت تشويشاً للمحاكمة، وشكلت عبئاً لا داعي له، وأدت إلى تأخيرها»[2].

كان من الواضح أن المحاكمة بكاملها، من وجهة نظر الادعاء، تدور حول: هل ركبت الطائرة إلى العراق في نهاية إجازتي أم لا. وكل شيء آخر كان غير ذي صلة. أراد الدفاع، من ناحية أخرى، تقديم الحجة على إن قراري بعدم العودة له ما يبرره، استناداً إلى ما واجهته ميدانياً على الأرض في العراق، وأن البيّنة التي تثبت ذلك مهمة وأساسية وذات صلة. ومن أجل هذه الغاية، طلبنا إحضار البروفسور فرانسيس بويل Francis A. Boyle بوصفه شاهداً. بويل خبير معروف في القانون الدولي، كان مسؤولاً عن وضع مسودة قانون

2-Ibid., pp. 97-98.

الأسلحة البيولوجية ومكافحة الإرهاب، وعضواً في مجلس منظمة العفو الدولية. تحدث البروفسور إلى المحكمة بواسطة الهاتف.

قبل السماح بمداخلة بويل، طلب القاضي من لويس تقديم تفاصيل عن موضوع شهادته. أوضح لويس أنه سيعرض دليلاً يثبت أن تهمة الفرار من الخدمة لا يمكن أن تنطبق على جندي يتمتع بالحق في أن يترك وحدته، وأنني بموجب القانون الدولي، أتمتع بهذا الحق، لأنني تلقيت أمراً، مع بقية أفراد فصيلتي، بتنفيذ عمل غير قانوني: الإساءة إلى السجناء وتعذيبهم في قاعدة الأسد الجوية.

بعد مواجهة عدد من الاعتراضات التي قدمها النقيب بالبو، وافق القاضي العسكري على السماح للبروفسور بأن يحلف اليمين. سمع صوته بوضوح في قاعة المحكمة من مكبر الصوت:

«إذا صدقنا ما قاله الرقيب ميخيا، يبدو لي أنه صاغ رأياً مفاده أنه راغب عن المشاركة في جرائم الحرب. فالانتهاكات الموصوفة هنا التي حدثت في قاعدة الأسد تشكل بكل وضوح جرائم حرب بموجب معاهدة جنيف لعام 1949، وقانون جرائم الحرب في الولايات المتحدة لعام 1996... وبرأيي، لدينا هنا نظام واسع النطاق من الانتهاكات في هذه القاعدة، تشكل جرائم حرب. ووفقاً لقوانين الحرب، كان من حق الرقيب ميخيا، إن لم يكن من واجبه، النأي بنفسه عن أي مشاركة في السماح بجرائم الحرب، فضلاً على ارتكابها بنفسه، أو تسليم الناس أو السجناء إلى حيث يتعرضون للانتهاكات وسوء المعاملة»[3].

3-Ibid., p. 110.

في أثناء شهادة البروفسور بويل، قاطعه النقيب بالبو باعتراضات مختلفة، أقر بعضها القاضي. ولم يُسمح له بالإشارة إلى التقارير الرسمية عن الانتهاكات التي تعرض لها السجناء في أبو غريب من الصليب الأحمر، أو من «الجنرال أنطونيو تاغوبا» General Antonio Taguba لأنها، حسبما زُعم، ليست مطروحة أمام المحكمة. ولكن من دون مناقشة تلك التقارير، كان من المستحيل التوصل إلى الاستنتاج بأن إساءة معاملة الأسرى التي ارتكبها جنود وحدتي في قاعدة الأسد لم تكن حادثاً معزولاً، بل جزء من أسلوب منتشر وممنهج.

لقد منع القاضي التطرق إلى هذه الحجج لا لأنها تثبت أن المؤسسة العسكرية الأمريكية متورطة في السماح بارتكاب جرائم حرب في العراق، ولا لأنها تقوض تهمة الفرار من الخدمة فقط، ولكن أيضاً لأن تلك الجرائم حين تكون منهجية ونظامية ومنتشرة على نطاق واسع، تتحول إلى جرائم ضد الإنسانية.

بعد رفض المحكمة شهادة بويل، طلب لويس السماح للنائب العام الأمريكي السابق رامزي كلارك Ramsey Clark بدحض قرار الادعاء بمنع الدفاع من إثارة قضايا أوسع نطاقاً تتعلق بالحكومة الأمريكية، ودور جيشها في العراق. بعد عدد من الاعتراضات، وافق القاضي على توجيه الدعوة إلى كلارك.

بدأ كلارك بيانه بالإشارة إلى محاكمة جيريمي سيفتس Jeremy Sivits، أحد حراس سجن أبو غريب، أمام القضاء العسكري، التي بدأت للتو في ذلك الوقت:

«أسمع من الادعاء اليوم، أن المؤسسة العسكرية غير خاضعة، بشكل أو بآخر، للقوانين... أعتقد أن هذه أسوأ رسالة يمكن أن توجهها الولايات المتحدة إلى العالم، ولا أصدقها مطلقاً.

«الحالات في العراق مهمة؛ لأنها مقاضاة مأساوية لشبان أمريكيين، حسبما زعم على أقل تقدير، على انتهاك حقوق السجناء العراقيين وكرامتهم...

«أول ما يفكر به معظمنا عندما نتذكر شرعة نورمبرغ.. الملزمة للولايات المتحدة، هو أن طاعة المرؤوس أمر الرئيس لا تعد دفاعاً عن ارتكاب الجريمة. أعتقد أننا جميعاً نريد الإيمان بصوابية هذا المبدأ؛ لأن من المتعذر كبح السلوك الإجرامي إذا كانت طاعة الأوامر هي المبرر (لارتكاب الجريمة)».

بعد ذلك تحول كلارك إلى قضيتي:

«أمامكم هنا هذا الجندي الشاب.. الذي طُلب منه مواصلة تعذيب السجناء بحرمانهم من النوم، بعد أن تعرضوا لهذا النوع من سوء المعاملة. المسألة افتراضية، أي لا يوجد دليل مباشر أمام المحكمة في هذا الوقت، ولكن، على أساس تصريحه بوصفه معارضاً للحرب بدافع الضمير، نستطيع أن نرى أن جنود جماعته تلقوا أمراً مباشراً بانتهاك كتيب التوجيه الميداني 27 - 10... الذي يحظر التعذيب... أو المعاملة اللاإنسانية، أو التسبب عمداً في معاناة فظيعة أو ضرر جسيم للجسد أو الصحة.

«والآن، أمامكم هذا الوضع الذي لا يصدقه عقل، حيث تسعى الولايات

المتحدة إلى إدانة جنود [في العراق] بزعم انتهاكهم حقوق السجناء، وفي الوقت ذاته تقاضي جندياً شاباً لأنه قطع نصف العالم وفعل ما يجب فعله وفقاً للقانون الدولي، لأنه أدى واجبه وفقاً للقانون الدولي... ورفض العودة إلى القيام بواجب من شأنه أن يورطه... في جرائم حرب.

« تعرّف المادة 85 كلمة /تَرَكَ/ بأنها تدل على شخص غادر [الخدمة] دون إذن من السلطة أو امتنع عن العودة. السلطة هي شرعة نورمبرغ. إنها معاهدة لاهاي ومعاهدة جنيف...

«إن محاولة استبعاد طلبه [للحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير) ستؤدي إلى إلغاء بيّنة مهمة، يجب أن تعرض على المحكمة لتقرر القانون الذي ينطبق على هذه الحالة.

«أهم ما يجب أن تأملوا به أن تكون رسالة المؤسسة العسكرية الأمريكية هي النية الكاملة لالتزام متطلبات القانون الدولي..».

رفعت الجلسة مباشرة بعد مداخلة كلارك. وعندما عادت المحكمة للانعقاد، اشتكى لويس إلى القاضي من مستوى الإجراءات الأمنية المبالغ فيها في القاعدة ذلك اليوم، مدعياً أنها تستهدف الإساءة إلى المحاكمة والانحياز ضد المتهم والضغط على أعضاء هيئة المحلفين، الذين يعملون جميعاً في القاعدة، ليدركوا أنها غير عادية. خطر لي أن الحراس الإضافيين استخدموا أيضاً لتوجيه رسالة إلى جنود فرقة المشاة الثالثة في فورت ستيوارت، الذين يستعدون للعودة إلى العراق، مفادها: اتباع أسلوبي فكرة سيئة ووخيمة العواقب.

ثم دخل لويس في نقاش مع المحكمة حول تحديد الشهود المسموح لنا باستدعائهم لتقديم أدلتهم. ومن المؤكد أن لدينا لائحة مؤثرة بأسماء أشخاص أردنا استدعاءهم، منهم محققون "أشباح" كانوا مسؤولين عن معسكر الاحتجاز في قاعدة الأسد، إضافة إلى مسؤولين كبار في الحكومة مثل وزير الدفاع دونالد رمسفيلد؛ والجنرال ريكاردو سانشيز القائد العام للقوات الأمريكية في العراق؛ والجنرال جوفري ميلر، نائب القائد العام لعمليات الاحتجاز. أما الأس المنطقي لاستدعاء هؤلاء الشهود للمثول أمام المحكمة فكان استكشاف السياسة الكامنة خلف استجواب المحتجزين في العراق. وكنا نأمل بأن نُظهر كيف تسربت السياسة وجو الانتهاكات من أعلى المستويات في حكومة الولايات المتحدة إلى الجنود النظاميين من أمثالي.

سرعان ما اتضح أن الادعاء العام مسيطر على كل جانب من جوانب المحاكمة. وبعد أن قال القاضي إنه سينظر في مستوى الإجراءات الأمنية المبالغ فيها، سارع إلى إصدار حكم عدّ شهادة معظم شهودنا غير ذات صلة. أما أعلى ضابط عسكري رتبة أرغم على الإدلاء بشهادته فكان قائد كتيبتي السابقة، العقيد ميرابل، الذي كان ضمن قائمة ممثلي الادعاء.

من بين شهود الدفاع المهمين الذين لم يسمح باستدعائهم، الرقيب الأول وينغارد Wingard، الذي أبلغ لويس أن إرسالي إلى العراق نتج عن خلل في قاعدة بيانات الحرس الوطني في فلوريدا، وكاتي ترنجيالي Kathy Tringially، التي أبلغتني أن تحقيق الكونغرس في قضيتي استنتج ضرورة تسريحي من الخدمة العسكرية على الفور. كما استبعدت شهادة عقيد في مكتب الحرس الوطني رفض التماساً من إحدى وحدات الحرس الوطني لوقف تمديد خدمة جندي غير مواطن، وضعه مماثل لوضعي تماماً.

في ختام اليوم الأول من المحاكمة العسكرية، رد القاضي على تحركاتنا وخططنا السابقة على المحاكمة. إذ أبلغنا أن من المتعذر عرض مزاعم سوء معاملة السجناء الموصوفة في طلب الحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير أمام أعضاء هيئة المحلفين، ولا يمكن تفسير أي برهان يثبت عدم شرعية الحرب، ضمن سياق القانون العسكري أو الدولي، أمامهم، ولا سماع أي ادعاءات بوقوع جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية من قبل أولئك الذين يقررون "أهلية" القضية. وفي الواقع، سوف يمنع عرض طلب الحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير أمام المحكمة.

في الساعة السادسة مساء غادرنا قاعة المحكمة. رفضت الخطط التي وضعناها قبل المحاكمة كلها تقريباً، ومنع الشهود الأساسيين من تقديم شهاداتهم. توجهنا مباشرة إلى المركز الإعلامي، حيث كان عدد من مراسلي وسائل الإعلام المحلية والوطنية في انتظارنا. بعد أن أجبت عن بضعة أسئلة، ذهبت لرؤية بعض الأصدقاء والناشطين الذين أتوا للتعبير عن المساندة والدعم، ثم توجهت إلى قاعة الطعام لتناول العشاء. وعلى الفور تقريباً صادفت أوليفر بيريز وجنديين آخرين من جماعتي في العراق، إستيم وفونيز. جاء الثلاثة لتقديم شهاداتهم أمام المحكمة.

بدا إستيم وفونيز مسرورين لرؤيتي عموماً، لكني استشعرت وجود مسافة تفصلنا عاطفياً. ربما يكمن السبب في عدم التأكد من أنني الشخص ذاته الذي عرفاه في العراق، أو في اعتقادهما أنني سأكون ضدهما حين أتمتع بصفة المعارض للحرب بدافع الضمير: خرافة داعية السلام الذي يبصق في وجه الجندي العائد من الحرب.

ثمة استياء واضح بسبب عدم العودة إلى وحدتي.

قال إستيم: «أظن أيها الرقيب أنك فعلت ما فعلت لأسباب صحيحة وصائبة، ولكنك سلكت السبيل الخطأ».

أردت أن أشرح كل شيء، وأخبر الثلاثة بمدى الصعوبة التي لم أواجه مثلها في حياتي حين تركت جنودي في العراق. ولكنهم شهود في المحاكمة، ولم يدلوا بشهادتهم بعد، ولذلك كان علي الانتباه لكل كلمة أقولها.

قال فونيز، وكأنه يحدث نفسه، وقد زم شفتيه: «ميخيا، كيف ورطت نفسك في هذا، يا رجل؟» بدا أنه يأسف لحالي.

رددت بابتسامة، محاولاً أن أطمئنه. عرفت أني غير نادم على شيء، وإذا أرسلوني إلى السجن فلن أحمل في قلبي أي مرارة.

قلت: «حسنا، يجب أن أستعد ليوم غد. يعلم الله ما الذي سيحدث، ولكن عند انتهاء هذا كله آمل أن نتمكن من الاجتماع معاً مرة أخرى، أفراد الجماعة كلهم».

قال إستيم: «حسناً أيها الرقيب، انتبه لنفسك».

قلت صادقاً: «سعدت بمرآكم، وسررت لأنكم بخير».

صافحني فونيز بيده وحدق إلي لحظة: «انتبه لنفسك».

لوّح أوليفر مودعاً. ابتسمت ورددت التحية بمثلها، وركبت السيارة إلى غرفتي؛ كان اليوم طويلاً.

بدأ اليوم الثاني للمحاكمة العسكرية عند الساعة الثامنة والنصف

صباحاً. واستهلت الجلسة بمقابلات مع أعضاء هيئة المحلفين. وكان هؤلاء قد عقدوا جميعاً اجتماعات شهرية منتظمة مع القائد العام في القاعدة، الجنرال وبستر، صاحب السلطة المطلقة والعليا على المحاكمة. ولذلك ركزت أسئلة لويس على احتمال تبنيهم مواقف منحازة ومسبقة. وطلب منهم معرفة هل أعدّ برأيهم مذنباً بجرم الفرار من الخدمة لمجرد اتهامي به؟ بعبارة أخرى: هل يمكن إثبات براءتي بعد اتهامي بالجريمة؟

سأل لويس الأعضاء أيضاً هل تعرضوا لأي ضغط من القيادة للموافقة على قرار معين من المحكمة، أو هل أبلغهم أحد أن من واجبهم إدانتي. قد تبدو هذه الأسئلة سخيفة بنظري قبل يوم أو اثنين، ولكن بعد أن منح القاضي هيئة الادعاء كل ما طلبته، ورفض خططنا واقتراحاتنا كلها، فهمت المخاوف التي أقلقت لويس. في نهاية المطاف، استبعد عضوان من أعلى أعضاء هيئة المحلفين رتبة، وكلاهما عقيد. اشتهر أحدهما بالتفريط، والثاني بالإفراط فيما يتعلق بالإدانة. ولكن خطر لي في أثناء هذه العملية أن جميع من في المحكمة يأتمرون بإمرة الرئيس ذاته. ففي قضية «الولايات المتحدة مقابل الرقيب الأول كاميلو ميخيا ـ كاستيلو»، كان جميع الحاضرين هنا، ومنهم أنا شخصياً، وأحد محامي الدفاع، إضافة إلى القاضي، والمحلفين، ومعظم الشهود، والمتهمين، والادعاء، يعملون في خدمة الحكومة الأمريكية. ولعل هذا هو السبب وراء نسبة الإدانة التي بلغت 98% من الأحكام الصادرة وفقاً لقانون العقوبات العسكري الموحد.

شمل عمل المحكمة في اليوم الثاني مناقشة "أهلية" الدعوى وتقويمها؛ لكي يقرر المحلفون هل سيجدونني مذنباً أو بريئاً. تألفت البيّنة التي قدمتها الحكومة أساساً من وثائق تظهر التاريخ الذي كان من المفترض

أن أترك فيه الولايات المتحدة عائداً إلى العراق. وقصر القاضي القضية أساساً على سؤال: هل ركبت الطائرة أم لا؟ أما سائر الاعتبارات الأخرى، القانونية والسياسية والأخلاقية، فقد عُدّت غير ذات صلة.

افتتح النقيب بالبو المرافعة باسم الادعاء، مخاطباً هيئة المحلفين:

«هذه قضية هارب من الخدمة. قضية قائد جماعة تخلى عن جنوده، في اللحظة التي كانوا فيها بأمس الحاجة إليه. قضية رقيب أول، صف ضابط، أدار ظهره إلى كل شيء يمثله ضباط الصف ويؤمنون به».

تبنى الادعاء إستراتيجية من شعبتين لإظهاري بأكثر الصور سلبية، مع التشديد على خطر الوضع في الرمادي، لتبرير العنصر الجنائي في التهمة.

ونظراً للقيود التي فرضها القاضي، حصر لويس دفاعه في دحض الصورة التي رسمها الادعاء لي، وإثبات أني كنت في الواقع «جندياً صالحاً» ربما ارتكب خطأ بنية صادقة:

«مما يشرفني ويسعدني أن أمثّل الرقيب الأول ميخيا... أؤكد لكم بكل احترام، عبر ما أعرضه عليكم، أن صورته ستكون مختلفة كثيراً عن تلك التي رسمها النقيب بالبو للتو... أتوقع أن الدليل سيثبت أن الرقيب الأول ميخيا قائد جماعة مخلص، اهتم برجاله، وصالحهم وسلامتهم».

الشاهد الأول الذي استدعاه الادعاء كان النقيب وارفل. حاول النقيب بالبو، مستخدماً شهادة قائدي السابق، إظهار أن الوضع في الرمادي خطر ومتفجر، وثمة حاجة ماسة لعودتي .

سأل النقيب بالبو: « ما أنواع الإصابات في سريتك؟».

أجاب النقيب وارفل: «معظم الإصابات ناجمة عن العبوات الناسفة محلية الصنع. هناك أيضاً عدة إصابات بسبب القذائف الصاروخية (آر بي جي)، وقنابل الهاون، إضافة إلى الإصابات الناتجة عن الرصاص العشوائي».

«على وجه التقريب، كم عدد الجنود في سريتك؟».

أجاب قائدي السابق: «عندما غادرت فورت ستيوارت كان لدي نحو 131 جندياً في السرية».

تابع بالبو أسئلته، وبدا صارماً متجهماً: «وعندما عدتم إلى الوطن، كم عدد الذين عادوا معك؟».

«خمسة وتسعون جندياً».

«وماذا حدث للآخرين؟ هل كانت غالبية الإصابات التي أخليت نتيجة الاشتباك مع العدو؟».

أجاب وارفل: «كلها على ما أعتقد».

تابع الادعاء: «هل مُنِحت أي أوسمة معينة؟».

أجاب وارفل بصوت خفيض لكن فخور، مشيراً إلى تكريم الجنود الذين أصيبوا من نيران العدو: «نعم، منح وسام القلب الأرجواني لأربعة وعشرين جندياً في سريتي».

كان من المحبط رؤيته هناك، يبدي الاهتمام والقلق، بينما يعرف الكل

تقريباً في السرية أن مطامحه الشخصية أسهمت إلى حد بعيد في ازدياد عدد الإصابات. امتنع قائدي السابق أيضاً عن الإشارة إلى أن كثيراً من الذين أصيبوا بجراح خطرة لم يُرسلوا لتلقي العلاج المناسب؛ بل جرى الاحتفاظ بهم في العراق كي لا يتقلص عدد السرية إلى ما دون الحد المطلوب للقوة القتالية. بدا أن النقيب، الذي قضى خدمته العسكرية في الحرس الوطني، ولم يملك خبرة قتالية ميدانية قبل ذهابه إلى العراق، تفوق في عدد الأوسمة التي نالها على أعضاء هيئة المحلفين من الضباط العاملين (المحترفين)، ومنهم عقداء قضوا حياتهم في الخدمة.

شدد لويس على هذه المسألة في استجوابه للنقيب.

وجه سؤالاً إلى وارفل، فاجأ الجميع: «بالمناسبة، هل أصبت في العراق؟».

أجابه النقيب: «نعم، أصبت».

من الحديث مع الجنود في وحدتي، علمت أن إصابة النقيب المزعومة أثارت قدراً كبيراً من الاستهزاء والسخرية والدعابة.

تابع لويس: «وهل حصلت على القلب الأرجواني؟».

«نعم، رشحت لنيل القلب الأرجواني».

لاحظت أن أعضاء هيئة المحلفين تابعوا هذه الأسئلة باهتمام خاص.

تابع لويس: «من رشحك؟».

كان الجواب: «كتيبتي».

«أنا أسأل من الذي قدم طلب الترشيح تحديداً، يا سيدي؟».

سأل وارفل بعصبية، وهو يعرف السؤال بالضبط: «من الذي قدم طلب الترشيح تحديداً؟».

احتج النقيب بالبو: «اعتراض، سيدي القاضي، ما هي الصلة بالموضوع؟».

أجاب العقيد سميث، قاضي المحكمة: «الاعتراض مرفوض».

أجاب وارفل، مشيراً إلى الملازم غرين: «أعتقد أنه الضابط التنفيذي في سريتي، والطبيب، والطبيب الجراح في الكتيبة. تطلب الأمر جهداً متراكماً من العمل المكتبي».

سأل لويس: «وهؤلاء تحت قيادتك، أليس كذلك؟ أعني الذين عملوا على الأوراق والوثائق؟».

«واحد من الثلاثة المشاركين كان... تحت قيادتي». واجه النقيب صعوبة في صياغة الجملة.

«أين أصبت وما نوع الإصابة، يا سيدي؟».

أجاب النقيب، ولعله خاف أن يطلب منه لويس إظهار الندوب أمام المحكمة: «أُصبت بجراح من شظايا قنبلة يدوية في ذراعي الأيمن».

سأله لويس: «وكيف وضع ذراعك الأيمن حالياً؟».

قال وارفل: «جيد».

«ألم تدخل شظية ذراعك، هل توجد شظية؟».

قال بالبو دفاعاً عن شاهده النجم: «اعتراض، سيدي القاضي، هذا خارج نطاق الموضوع».

وافق القاضي على الاعتراض.

«كيف كان ذراعك في أثناء الساعات اللاحقة على الإصابة؟..».

«اعتراض! سيدي القاضي» بدا النقيب بالبو غاضباً، ولانَ العقيد أخيراً. لم يكن أمراً عادياً أن يفتح القاضي المجال أمام لويس ليسأل عن أي شيء، وفي كل مرة أظهر بالبو انطباعاً بأنه تعرض لخيانة كبيرة.

كان الشاهد اللاحق هو الاختصاصي أوليفر بيريز، الذي استدعاه فريق الدفاع لتقديم شهادته عني، شخصياً وقيادياً. لم تقم إستراتيجية الدفاع على أساس إنكار خطورة الوضع الميداني في العراق، بل لإظهار أنني قدت جنودي بأفضل طريقة ممكنة في مثل تلك الظروف المعادية.

افتتح النقيب رولينغ Ruhling، محامي الدفاع العسكري، استجوابه: «كيف كان الرقيب أول ميخيا بصفته قائد جماعة في العراق؟».

أجاب أوليفر: « كان قائداً عظيماً. أبدى اهتماماً دائماً برجاله، وإذا وجد عيوباً وأخطاء في تخطيط [مهماتنا]، عرضها على الرؤساء، وهذا ما لم يفعله غيره...كان حريصاً على رجاله».

بعد ذلك: سُئل هل يثق بي؟

«اعتماداً على ما رأيت، وما خبرت وجربت، كان صادقاً وأميناً ومخلصاً. وثقت فيه ثقة كبيرة طوال حياتي».

سأل النقيب رولينغ: «ما أنواع المهمات التي كان يقودكم فيها؟».

«كمائن، من الأنواع كلها، دوريات، تطويق وتفتيش؛ عمليات تأمين في شوارع المدينة؛ إقامة مواقع دفاعية في الليل. مهمات منتظمة من هذا القبيل».

« هل واجهتم مقاومة عنيفة في أثناء هذا النوع من المهمات؟».

قال أوليفر: «أجل».

«وكيف كان رد فعله في هذه الحالات؟».

أجاب أوليفر دون تردد: «كان شجاعاً، وحافظ دائماً على السيطرة على جماعته، ولم يظهر قط أي خوف. تحكم دائماً برجاله مثلما يفعل أي قائد جماعة كفء...لم أجد فيه أي عجز، أو شيئاً من هذا القبيل».

تابع ممثل الدفاع: «هل شكك في التخطيط الذي تتبعه القيادة؟».

«أحياناً».

«هل تحلى بالشجاعة الأخلاقية لإثارة تلك المخاوف؟».

«نعم، فعل ذلك».

سأل رولينغ: «ما هي السمات الشخصية التي تتوقعها في ضابط الصف؟».

«يجب أن يملك الثقة لقيادة رجاله. هذا أول ما ينتبه إليه الجنود في قادتهم...وأن يهتم بهم على الدوام؛ وأن يضع المهمة والرسالة نصب عينيه دائماً، لكن دون أن ينسى رجاله».

تابع النقيب رولينغ: «إذاً، مع هذه السمات والخصال التي تميز ضابط الصف المثالي برأيك، ما هي الدرجة التي تمنحها للرقيب ميخيا استناداً إلى تجربتك معه، على مقياس مدرج من واحد (ضعيف) إلى عشرة (ضابط الصف النموذجي)؟».

قال أوليفر بحزم: «أمنحه دون تردد عشر درجات؛ تسع درجات أو عشر».

بعد ذلك استجوب النقيب بالبو الشاهد.

بدأ: «الاختصاصي بيريز».

«نعم يا سيدي».

«هل فوجئت بعدم عودة المتهم إلى العراق؟».

أجاب أوليفر: «فوجئت يا سيدي».

«.....المسؤولية تقتضي منه العودة ومساعدتكم، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح يا سيدي».

«هل تعتقد أن ما فعله يجسد مثالاً جيداً لضابط الصف؟».

قال أوليفر بعد أن فكر قليلاً: «بوصفي ضابط صف، لا أعتقد أنه جسد مثالاً جيداً، لا».

تابع المدعي: «...الآن، أيها الاختصاصي بيريز، ذكرت كيف كان للمتهم تأثير مهدئ في رجاله، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح».

«وقلت إنه تمتع بالثقة اللازمة لقيادة رجاله، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح».

«لا بد أنكم شعرتم بالعار والخجل لغياب هذا التأثير المهدئ طوال خمسة شهور، أليس كذلك؟».

بدا أن أوليفر يخاطب نفسه لا المحكمة: «كانت ضربة موجعة».

تابع بالبو: «مع ذلك ما زلت تريد أن تمنحه عشر درجات؟».

«هذا صحيح».

«لا مزيد من الأسئلة، سيدي القاضي».

بدا النقيب بالبو غاضباً مرة أخرى، كعهده في معظم جلسات المحاكمة. لم يسبق أن رأيت أحداً قط يبذل مثل هذا الجهد العاطفي/الوجداني لتلطيخ صورة شخص آخر، مثلما فعل بالبو معي.

سأل النقيب رولينغ بعد أن طلب إعادة استجواب الشاهد: «إذاً، مازلت تمنحه عشر درجات، بالرغم من خيبة الأمل، لماذا؟».

«بوصفه ضابط صف، لا يزال قادراً على قيادة رجاله؛ حتى هذا اليوم في ساحة المعركة...إذا عاد سيظل قادراً على قيادة رجاله... أثق به إلى حد أنني أضع حياتي بين يديه؛ لأنه قادر على قيادة رجاله في المعركة. ولو عاد سأخوض معه المعارك، والنزاعات، وأكثر الأوضاع خطراً وتوتراً. مازلت أثق فيه، ولذلك سأمنحه أعلى الدرجات، مثلما فعلت».

وجدت صعوبة في مغالبة دموعي بعد سماع شهادة أوليفر. ومع أنني

أدركت أن ذلك هو القرار الصحيح، بل القرار الوحيد المتاح، آلمني أشد الألم أن أترك جنودي وأرحل. فمن أجلهم كدت أعود إلى العراق.

كان أوليفر صادقاً ومصيباً في الثقة بي إلى هذا الحد، ولكن عرفت أنني لن أضع نفسي مرة أخرى في موقع يضطرني لقيادة جماعة مشاة في المعركة. من الناحية الأخلاقية، لا يمكن أن أشارك في حرب من جديد.

كان الجندي إستيم الشاهد اللاحق الذي استُدعي للشهادة:

« تحدث إلينا. جاء فاتحاً ذراعيه: مثل.. أب. اهتم بنا؛ حرص على توفير كل ما نحتاج إليه.. فضلنا على نفسه، هذا ما فعله».

سأل النقيب رولينغ: «هل تثق به الآن، وهو جالس هنا؟».

أجاب إستيم إنه يثق بي، ولكن بمرور الوقت بدا واضحاً أنه أشد انتقاداً لتصرفي من أوليفر. وعندما سئل هل يحترم حكمة القرارات التي اتخذتها، لم يتردد في التمييز بين رأيه في قيادتي قبل مغادرة العراق وبعدها.

قال: «القرارات التي اتخذها قبل أن يغادر العراق كانت عظيمة برأيي.. فعندما كان يتخذ قراراً كنت أتبعه».

حاول بالبو الاستفادة إلى أبعد حدٍ من موقف إستيم الانتقادي عبر المقارنة بين موقفه وموقفي.

سأله: «لم تذهب لزيارة شقيقتك بعد تعرضها لحادث سيارة، أليس كذلك؟».

أجاب إستيم: «هذا صحيح، يا سيدي».

«والمتهم عاد إلى الوطن قبلك، أليس كذلك؟».

«نعم، يا سيدي».

فكر بالبو لحظة، ثم قال: «في الواقع، بقيت هناك لأداء واجبك الوطني، أليس كذلك؟».

«كان عليّ أن أفعل ذلك، يا سيدي».

«لأن هذا واجبك».

رد إستيم: «هذا واجبي».

ربطتني علاقة خاصة بإستيم في العراق. لم أشعر بالاستياء من شهادته، ولكن أتمنى لو أستطيع أن أشرح له سبب استحالة اتخاذ سبيل آخر، غير رفض الحرب.

احتفظت المحكمة بالشهادة الأخيرة لي، مع أنه لم يبقَ الكثير لأقوله دفاعاً عن موقفي، نظراً للقيود التي فرضها القاضي. فقد منعنا من الإشارة إلى كل ما يتعلق بجرائم الحرب، أو الجرائم ضد الإنسانية. ولا يمكن أن أُسأل عن إساءة معاملة السجناء في قاعدة الأسد، أو الخوض في تفاصيل طلب الحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير. كل ما أمكنني قوله إنني قدمت الطلب، وإن المعارضين للحرب بدافع الضمير يجب ألاّ يكلفوا، برأيي، بتنفيذ مهمات تنتهك معتقداتهم.

إذاً، انحصر الدفاع في نطاق شرحنا لهيئة المحلفين أنني أملك الحق والأهلية بالبقاء غائباً عن وحدتي، وأنني آمنت بصدق بذلك حينئذ، بالرغم من قرار المحكمة بحرماني من هذا الحق. هذه الحجة معروفة باسم «خطأ الحقيقة».

في حين اقتصر الادعاء على إظهار عدم حصولي على إذن من أي قائد بالغياب عن العراق، وأن وثائق إجازتي تقتضي بأن أعود، وأنني جسدياً قادر على ركوب الطائرة. وما عدا هذه الاعتبارات لم يطرح النقيب بالبو أي أسئلة مهمة طوال الجلسة.

طرحت المجادلات الختامية في صباح اليوم اللاحق. استغل بالبو، الذي افتتح الجلسة، الفرصة ليرسم صورة تظهرني بمظهر الكاذب الأناني، والجبان، الذي حاول خداع النظام تفادياً للخطر. وحث أعضاء هيئة المحلفين على القيام بما انعقدت المحكمة العسكرية بكاملها من أجله:

«الحكومة تطلب منكم تجريم المتهم بتهمة الفرار من الخدمة».

كانت حجة لويس الختامية أكثر شمولاً ووضوحاً من حجة بالبو، لكن عرقلتها ضرورة البدء بالإقرار بأنني ارتكبت خطأً، عن حسن نية، بعدم العودة إلى العراق. بذل قصارى جهده، ضمن القيود التي فرضتها عليه المحكمة، لإثارة بعض التفاصيل في طلب الحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير، ومنها عمليات قتل المدنيين التي شهدتها بأم عيني، وعمادتي في نهر الفرات. ثم أعاد التوكيد على شهادة زملائي الجنود، في محاولة لدحض زعم بالبو بأنني شخص مخادع وكاذب بالأساس.

ثم سنحت الفرصة للنقيب بالبو لتفنيد حجة لويس، ولكنه لم يفعل أكثر من تكرار ادعاءاته السابقة: «..المتهم لم يكن جندياً كفئاً»، وتخلى عن أهم المسؤوليات الأساسية للمهمة، ألا وهي «العودة إلى العراق!».

بعد اختتام المناقشات والمرافعات، أعطى القاضي تعليمات إلى أعضاء هيئة المحلفين حول الأسلوب الذي يجب اتباعه عند إجراء المداولات. ثم خرجوا من القاعة للتداول والعودة بعد نحو ساعتين.

قال القاضي: «ليقف المتهم والمحامي». ثم أضاف مخاطباً هذه المرة المحلفين: «أيها العقيد نيكول، يمكنك إعلان النتائج التي توصلت إليها المحكمة».

قرأ العقيد الأشيب الحكم من مكان هيئة المحلفين، دون أن يقف:

«أيها الرقيب ميخيا كاستيلو، وجدت هذه المحكمة العسكرية، استناداً إلى ملابسات التهمة، أنك مذنب».

بعد وقتٍ قصير من تلاوة الحكم، رفعت الجلسة لاستراحة الغداء. نظراً للقيود التي فُرضت على الدفاع، لم يكن الحكم مفاجئاً. ومع ذلك، فقد بقيت حتى النهاية متشبثاً بالأمل بتحقيق العدالة، وعندما غادرنا قاعة المحكمة شعرت بخيبة أمل مريرة، لأن الحكم صدر ضدّنا.

بدأت المرحلة الأخيرة من المحاكمة، مرحلة إصدار الحكم والعقوبة، بعد استراحة الغداء. سعت الحكومة إلى استصدار أقصى عقوبة: السجن مدة سنة، وتخفيض الرتبة إلى أقصى حد، والتسريح بسبب سوء السلوك. في حين طالب الدفاع بالبراءة، والاكتفاء بتسريحي من الخدمة وإرسالي إلى البيت.

استدعى الادعاء أول شاهدين. لم أفاجأ برؤية رقيب فصيلتي القديم، فيرنون وليامز، يستدعى من الادعاء. وعلى الرغم من عدم وجود عداوة بيننا، إلا أنني وضعت أكثر من مرة سلطته وأهليته موضع المساءلة والتشكيك في العراق، وهذا ما أوجد نوعاً من الاحتكاك بيننا. لكن لم أكن مستعداً على الإطلاق لطريقة وليامز في تشويه الحقائق من منصة الشهود. عندما سئل عن أدائي، قال للمحكمة: إنني بقيت جندياً كفئاً إلى

انطلاق عملية قطع الطرق، ليشهد سلوكي تدهوراً كبيراً. وأشار إلى أن ذلك مرتبط تحديداً بالإصابة التي تعرض لها ريسيو.

سأله بالبو: «هل كان لدى المتهم ردّ فعلٍ على الإصابة؟».

أجاب وليامز: «نعم، عندما عدت [من مهمة في القصر]، قال لي الرقيب ديمريست: إن ميخيا يرفض الخروج في دوريات معنا بعد الآن... فقلت: دعني أتحدث معه. جاء إلى غرفتنا، وإذا صح ما أتذكره، كنت أنا والرقيب ديمارست وميخيا داخل الغرفة. وناقشنا أساساً سبب رفضه الخروج».

تابع ممثل الادعاء: «وماذا قال لك؟».

«قال: إن الوضع بالغ الخطورة، ومن الجنون أن يُطلب منا أداء المهمة ذاتها مرة بعد أخرى.. شرحت له أننا عندما نؤدي المهمات لا نكررها. ولا نريد تكرارها».

أغفل وليامز حقيقة أن المهمة التي قمنا بها تكررت بالضبط على مدى أربع ليال متتابعة، وأسهم هذا القرار إسهاماً كبيراً في إصابة أربعة جنود من سريتنا وقطع رأس أحد المدنيين. كنّا نكرر المهمات ذاتها لنستفز هجمات المتمردين ونخوض معارك يكافأ ضباطنا عليها بالأوسمة والنياشين؛ كان هذا بالضبط سبب قلقي، وهذا ما شرحته له.

زعم وليامز، الذي نصحني بأن أقول لرؤسائي: إنني أخاف من خوض المعركة بدلاً من تقديم شكوى رسمية ضد قائد كتيبتي، أنه قال لي: «هذا ليس الوقت المناسب لكي تنهار. خلف الستار، أجل، لا بأس. كل واحد

يتألم، كل واحد يشعر بالأسى والحزن، لا بأس في ذلك كله». وأضاف: «لكن أمام جنودك، لا يمكنك أن تتصرف بشكل يظهر خوفك من أداء واجبك».

أنهى وليامز شهادته بإبلاغ المحكمة أنه سعى من أجل منحي إجازة لحل مشكلاتي المتعلقة بالهجرة والجنسية مع توقعه الكامل لعودتي، وأنه أُصيب بخيبة أمل لأنني لم أرجع.

تذكرت ما حدث بطريقة مختلفة: لقد شجعني على البقاء في الولايات المتحدة، بل قال مرة: «ما الذي سيفعلونه معك؟ بطاقة الإقامة ستنتهي مدة صلاحيتها؛ ولا يمكن للجيش أن يفعل بك شيئاً».

ركز استجواب لويس على رفضي الخروج في الليلة الخامسة من عملية قطع الطرق.

سأل: «هل سألته ماذا يقصد بالوضع بالغ الخطورة؟».

«لا، لم أسأل».

تابع لويس: «هل كرر ما قاله على مدى أربع ليالٍ متتابعة؟».

قاطعه الرقيب الأول: «نعم، ولكن لم يشر تحديداً إلى السبب وراء الوضع بالغ الخطورة، ولم أسأله من جانبي. والسبب أنني لم أهتم. أنا قائد الفصيلة. أنا أختار المهمات، ونحن ننفذها. إذا احتجت إلى مدخلات، أطلب مدخلات أو إرشادات، ولكن في الوقت ذاته لا أسمح لقائد جماعة تحت إمرتي بأن يقول لي ما الذي لن يفعله، وماذا سأفعل؟ هذا غير مقبول، يا سيدي».

بانت نيات وليامز الحقيقية على السطح أخيراً. إذ لم يكن ليسمح بمساءلة سلطته أو أهليته للقيادة، والسبب الحقيقي للتوتر بيننا حقيقة: أن ذلك ما فعلته بالضبط بين الحين والآخر.

لم أعرف ماذا أتوقع عندما سمعت أن الشاهد اللاحق الذي يستدعيه الادعاء هو فونيز. كان يبدو الشخص الذي بذل أقصى جهد لفهم شكوكي ومخاوفي في العراق، ولكني لم أكن متأكداً من حقيقة فهمه لموقفي.

بدأ النقيب بالبو الاستجواب:

«هل تصف لنا أداء المتهم بصفته قائد جماعة؟».

فكر فونيز قليلاً قبل أن يجيب، وانتقى كلماته بعناية.

«يمكن القول: إنه اهتم بنا جميعاً. تمتع بشخصية كاريزمية آسرة. عرف تماماً واجبه. رتبته في الحرس الوطني تعادل رتبة رقيب أول في الجيش ، وله خبرة طويلة، ولذلك عرف واجباته».

تابع بالبو: «هل يمكنك القول: إنه كفء من الناحيتين التقنية والتكتيكية؟».

«بمعنى من المعني، نعم».

«هل تكون أكثر دقة وتحديداً؟».

تابع فونيز: «أقصد، ما من أحد كامل الأوصاف. في بعض الأحيان يكون أداؤه جيداً، وفي أخرى سيئاً».

قال بالبو، الذي بدا أنه أكثر شبهاً بمحام الدفاع: «على مقياس للأداء متدرج من واحد (ضعيف) إلى عشرة (ممتاز)، أي علامة تمنحه؟».

أجاب فونيز «ربما ثماني درجات. أجل، ثمان».

سأل النقيب بالبو: «ما هي برأيك أفضل مهاراته؟».

فكر فونيز بالجواب مجدداً: «كان الرقيب ميخيا يحرص على رعاية جنوده كلهم بأي طريقة ممكنة..».

تابع بالبو: «بوصفك جندياً في جماعته، ما هو شعورك عندما أدركت أنه لن يعود؟».

أجاب بصوت صارم متجهم: «شعرت فعلاً بخيبة الأمل. وبالغضب. ولكن غالباً بخيبة الأمل.. لأني شعرت أنه أفضل من أن يقوم بتلك الخطوة؛ وأذكى».

عاد النقيب بالبو مرة أخرى إلى عقيدة ضباط الصف، التي تصف كيف يتصرف القائد المخلص الكفء. سألني من قبل عن هذه العقيدة، وقلت له: إنني لا أتذكرها جيداً. ومنذ ذلك الحين استغل حقيقة أنني لا أحفظها عن ظهر قلب بوصفها دليلاً لا يدحض على ضعف قيادتي.

قال بالبو لفونيز مشيراً إلى رتبته الجديدة: «أنت الآن رقيب أول من الرتبة الخامسة، وأفترض أنك مطلع على عقيدة ضباط الصف، أليس كذلك؟».

لم يتمكن النقيب بالبو من فهم حقيقة أن جنود المشاة لا يحملون نسخة مكتوبة من هذه العقيدة إلى ساحة المعركة، أو أن عدم حفظي لها عن ظهر قلب لا يعد سبباً كافياً لإدانتي.

قال الرقيب فونيز: «لا أحفظها ظهر قلب. لكن أتذكر النقاط الرئيسة الآن».

تابع النقيب، متجاهلاً ما قاله فونيز: «وبما أنك تعلم سبب وجودنا هنا، وأن المتهم أدين بالفرار من الخدمة، فهل تعتقد أنه يجسّد كل القيم التي تتضمنها عقيدة ضباط الصف؟».

قال فونيز بنبرة حادة: «مثلما قلت من قبل، لا أحفظ عقيدة ضباط الصف عن ظهر قلب، وأفترض أنه ربما كان، إذا جاز هذا الأسلوب، مخلصاً ومواليًا لنا..». تردد قليلاً ثم توقف لحظة: «أعني، شعرت في المدة التي قضيناها معاً على الأقل، أنه صديقي بطريقتي الخاصة، وأني أحترمه فعلاً، وكان مثل أخ». توقف مرة أخرى. «أصبحنا جميعاً إخوة. جمعتنا [علاقة] حب وكره في آن معاً، مثلما يحدث في كل مكان، نتيجة التناقض في الشخصيات. ولكني لا أعتقد أن بمقدورك مغادرة...».

قاطعه بالبو: «بوصفك مرؤوساً تحت إمرته.. قلت إنك شعرت بأنه أخ؛ ألم تكن تفضل أن يعود؟».

بدا كأن فونيز يعاني صراعاً وجدانياً حقيقياً في أثناء شهادته، ولكن بالبو لم يفكر قط بمنحه لحظة للتعبير عن مشاعره بالكلمات؛ بل استهدف دوماً تهييج غضبه وخيبة أمله لتلطيخ صورتي.

أجاب فونيز: «نعم، لأنني أعتقد بوجود طريقة صحيحة، وأخرى خاطئة. أنا من هذا الصنف. هنالك صواب وخطأ على الدوام».

«وكيف تصف أفعاله؟».

«أعتقد أن طريقته كانت خاطئة. ثمة خطوات صائبة، ولكن ضمن الصورة الشاملة كان التحرك خاطئاً».

في أثناء إعادة استجواب الشاهد، حاول النقيب رولينغ إظهار التعقيدات في موقف فونيز تجاهي، وتجاه ما فعلته.

بدأ قائلاً: «رقيب فونيز، من الصعب الإدلاء بشهادة على هذا النحو، أليس كذلك؟».

أجاب فونيز متجنباً السؤال الحقيقي: «لا أحب الوقوف أمام المحاكم يا سيدي».

رد رولينغ مستوضحاً: «ولكنك معجب فعلاً بالرقيب ميخيا؟».

«نعم».

«في الواقع، تعتقد أنه شخص طيب وجيد، أليس كذلك؟».

اعترف قائلاً: «نعم، إنه إنسان عظيم».

سأله رولينغ، مع أن كلماته كانت أقرب إلى التصريح من السؤال: «إنسان مازلت تنظر إليه بإعجاب، على الرغم من تحفظاتك وهواجسك. شخص مازلت تحترمه، على الرغم من اتخاذه خياراً خاطئاً، كما قلت؟».

«بالطبع».

«وركزت انتباهك على تصرفاته وردات فعله في أثناء المهمات، وما بعدها، أليس كذلك؟».

أجاب فونيز: «نعم».

«وبعد المهمات، كثيراً ما لجأ إلى التفكّر والتأمل، أليس كذلك؟».

«نعم، يا سيدي».

«أظهر انتباهاً كبيراً واهتماماً وجدانياً عميقاً فيما يتعلق بصوابية المهمات وأهلية القادة، الذين يخططون لها، ويأمرون بتنفيذها؟».

ألمح رولينغ، دون أن يصرح، على ما يبدو إلى مشاعري بعد القبض خطأً على المدنيين، أو الإساءة إلى السجناء، أو ذبح الأبرياء. وبدا فونيز عارفاً بما يرمي إليه:

«بعد أي معركة أو غارةٍ، كان الرقيب ميخيا يفكر بعمق فيما حدث، مثلما فعلنا جميعاً. ولكنه نقل تفكيره التأملي إلى مستوى آخر... كنت أفكر بالأحداث خمس دقائق، ثم تغيب عن ذهني. أما الرقيب ميخيا فكان يواصل تحليل الوضع، بل يبالغ في تحليله كما أعتقد. وبالطبع، تأتي في بعض الأيام أخبار سيئة؛ وتمر أيام سيئة فعلاً».

اعتقدت أن فونيز نجح في التعبير بأسلوب بليغ ودقيق عن الوضع: تأتي في بعض الأيام أخبار سيئة، وتمر علينا أيام سيئة فعلاً. لم نشهد قط أياماً جيدة.

تابع النقيب رولينغ بلطفٍ: «وعلى وجه الخصوص، ركز بؤرة الاهتمام على الجانب الإنساني من المهمة، أليس كذلك؟».

قال فونيز: «نعم، إلى حدّ بعيد».

«وكانت تلك أفكاراً مهمة بالنسبة له؟».

أجاب فونيز: «بالتأكيد».

«هل تعتقد أنه من النوع الذي لا يريد العودة لمجرد نزوة؟».

«لا، أبداً».

«ألا يمكننا القول بأسلوب أكثر اتساقاً إنه من النوع الذي يحاول التحليل والبحث، وتجريب الخطوات الضرورية لتصويب الأسلوب والمسار، قبل اتخاذ أي قرار؟».

شعرت بشيء من القلق من طريقة النقيب رولينغ في طرح السؤال، لأنني عرفت أن قراري استند إلى الضمير، وأن استقصاء المسائل القانونية المعقدة لم يتدخل به. ولكن أدركت صعوبة اتخاذ سبيل آخر في محكمة رفضت مراراً وتكراراً النظر في أي اعتبارات أخلاقية.

أجاب فونيز: «نعم، أعتقد ذلك».

«شكراً لك، لا مزيد من الأسئلة».

كان فونيز آخر شاهدٍ استُدعي إلى المنصة من الادعاء. والآن جاء دور الدفاع. استدعينا أولاً مستشارينا السابقين من جامعة ميامي، خوسيه رودريغز Jose Rodriguez والدكتورة فكتوريا نورييغا Dr. Victoria Noriega. شعرت بالتأثر والامتنان لشهادتيهما اللتين رسمتا صورة إيجابية جداً لي من الناحيتين الدراسية والإنسانية. تبعهما فرناندو سواريز ديل سولار، الذي قتل ابنه، الجندي في مشاة البحرية (المارينز)، في العراق بنيران صديقة (نتيجة انفجار قنبلة عنقودية). أمّا فرنسيس بويل، أستاذ القانون في جامعة إلينوي الذي سبق أن أدلى بشهادته عبر الهاتف، فقد حضر شخصياً ليشرح قوانين الحرب، حسبما وصفت في الكتيب الإرشادي الميداني 27 - 10، فيما يتعلق بسوء معاملة السجناء المتضمن في طلبي الحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير. وكان قد سمح باستخدامه في مرحلة إصدار الحكم.

آخر شاهد استدعيناه، قبل أن نختتم شهود الدفاع، كان الملازم بار، قائد الفصيلة الأولى في أثناء عملية قطع الطرق؛ بدت شهادته وكأنها تشير إلى أن قيادتنا عرضتنا للخطر للحصول على ترقيات ومكاسب شخصية، مع أنه لم يعبر عن ذلك صراحة.

قال الملازم بار عن عملية قطع الطرق: «جوهرياً، كنّا نعرض أنفسنا للفشل بسبب ذهابنا إلى المكان ذاته في الوقت ذاته».

قال لويس: «وفي اليوم اللاحق ألم تعمل على التصدي لهذه المخاوف المقلقة مع النقيب وارفل؟».

أكد الملازم بار أنه فعل ذلك مراراً وتكراراً، ولكن بدا أن النقيب غير مهتم بما قاله الملازم. بعد أن نفذت المهمة بالطريقة ذاتها بالضبط على مدى ثلاث ليالٍ متتابعة، فاتحه الملازم بالأمر مرة أخرى في الليلة الرابعة.

شرح بار قائلاً: «قبل خروجنا في المرة الرابعة، ازدادت حدة المناقشات بيني وبين النقيب وارفل...أكدت له أنني لم أفهم لماذا لا نستخدم ما لدينا من معرفة تكتيكية، ونضيف إليها قدراً من.. المنطق السليم. كانت احتمالات تعرضنا للهجوم تزداد باطراد، كلما خرجنا إلى هناك».

تابع لويس: «والآن، هل كنت الوحيد الذي شعر بذلك في فصيلتك؟».

أجاب بار مؤكداً «كلا، يا سيدي».

بعد ذلك، أبلغ المحكمة كيف أدى إلحاحه على النقيب وارفل لتعديل المهمة إلى تدهور العلاقة بينهما، إلى حدّ انتقاده الملازم علناً وإضعاف موقفه في اجتماعات القيادة. وبعد أن ثبتت عبثية النقاش في الليلة الرابعة

ولا جدواه، قال بار: إنه أذعن وقبل أداء المهمة بأي طريقة ممكنة. بعد ذلك، انتقل إلى وصف الهجوم الذي حدث في تلك الليلة بمزيد من التفصيل، متوقفاً من حينٍ لآخر لجمع شتات نفسه، كلما اكتسحه طغيان الذكرى المؤلمة.

أبلغ المحكمة كيف تعرّضت فصيلته لضربة موجعة، على الرغم من الجهد الذي بذله، وكيف بترت يد طبيبه، الاختصاصي مايورغا، بنيران العدو، وبقي مع ذلك يشرف على علاج ريسيو الذي كان يحتضر. وكيف تسلق الرقيب الجريح في فصيلته، ماتيو، عربة مدمرة ليصل إلى المدفع الرشاش. بدا واضحاً، من شهادته، أن تخليه عن إلحاحه السابق على العيوب والمثالب والأخطاء القاتلة المتأصلة في المهمة، تحول إلى شبح شيطاني مازال يطارد الملازم ويؤرقه.

استوضح لويس بلطفٍ: «ملازم بار، عندما تنظر إلى الماضي، هل يقلقك أسلوبك الحاد والعنيف في عرض الحجة لمصلحة تغيير المهمة؟».

بدا جلياً أن الملازم بار انزعج، كما أكد.

«قضيت في الجيش بضعة أعوام، ولا أزعم أني أعرف كل شيء، ولكن لم أجد أي منطق أو معنى وراء المهمة. اختلفنا، أنا والنقيب وارفل، بضع مرات. لديه واجب صعب يجب أن يؤديه، كحالنا كلنا، وعرضت أسباب القلق بأفضل أسلوب ممكن... والأسوأ ربما أن ذلك كله ما كان يجب أن يحدث. كرهت نفسي لأنني.. شخصياً شعرت كأنما رضخت وأذعنت.. وكان يجب أن أتعامل مع الأحداث بطريقة مختلفة».

ركز بالبو في استجوابه على الطريقة التي واصل الملازم بار اتباعها

لأداء واجبه، حتى حين كلف مرة أخرى، بعد التعرض للهجوم، بمهمة أشد خطراً، مهمة قيادة القوافل من الرمادي إلى قاعدة الأسد. لم يأت على ذكر قرار وارفل بطرد الملازم من قيادة الفصيلة الأولى. بدلاً من ذلك، سأله هل كان سيرغب في أن أعمل تحت أمرته، في حالة صدور القرار بإدانتي بتهمة الفرار من الخدمة؟

أجاب بار: «لا، يا سيدي».

أخيراً جاء دوري للوقوف على المنصة. كان لويس قد أوضح لي أن هذه هي الفرصة الأخيرة لمخاطبة المحكمة (شهادة دون قسم)، وربما لن أُستجوب حولها.

قال لي لويس على مائدة الغداء التي شاركتنا فيها غيل، في اليوم اللاحق على إعلان الحكم بالإدانة: «هذه فرصتك لمخاطبة المحلفين والقاضي».

«بإمكانك التطرق إلى عملك التطوعي في ميامي، ومساعدتك للمشردين. إضافة إلى أنك عضو في ثلاث جمعيات شرفية في الجامعة».

بذل لويس قصارى جهده كي لا يظهر أمارات القلق من النتيجة المحتملة للحكم، ولكنه لم يستطع أن يخفي تورطه العاطفي الشديد فيما يمكن أن يحدث لاحقاً.

أردف قائلاً: «يجب أن تحدثهم عن علاقتك مع سامانثا، وعن الأشياء التي تفعلانها معاً. أخبرهم بمدى معاناة ابنتك جراء عدم وجود والدها بجانبها».

فكرت بذلك كله لحظةً، وأدركت أنني فعلاً لا أشعر بالارتياح لإثارة مثل هذه المسائل. لم أرتكب خطأً ـ بل على العكس تماماً في الحقيقة ـ واستجداء الرحمة واللين من المحكمة لا يبدو صائباً. من ناحية أخرى، شعرت بالتزام نحو فريق الدفاع، وضرورة بذل قصارى جهدي لتفادي الذهاب إلى السجن. وعندما أخبرت لويس عن انزعاجي رأيت أنه فهم وجهة نظري فوراً. تبادل النظرات مع زوجته، فتكلمت.

«لقد وجدوا منذ الآن أنك مذنب، وربما قرروا فعلاً الحكم عليك بأقصى عقوبة. لذلك، ما فائدة التماس الرحمة والصفح؟ بح لهم بما في صدرك، ولا تكتم شيئاً».

شعرت بالامتنان لغيل على هذه التوجيهات. وعندما وقفت على المنصة لآخر مرة، استعرضتُ شهادات مختلف الشهود الذين استمعنا إليهم، وأكدت مجدداً على أن اعتراضي على طريقة تنظيم عملية قطع الطرق لم يكن بسبب خطورتها، بل لأنها عرضتنا لخطر لا لزوم له. وأعدت التوكيد على أنه من غير المقبول تعريض حياة الجنود والمدنيين للخطر في سبيل حصول القادة على التكريم والأوسمة. ثم تحولت إلى مخاطبة هيئة المحلفين مباشرة:

«أُكن احتراماً كبيراً لهذه المحكمة، واحتراماً كبيراً لكم... أقف الآن مداناً، ومذنباً... ولديكم السلطة لوضعي خلف القضبان سنة، وطردي من الخدمة بتهمة سوء السلوك. ولكن مع كل الاحترام الذي تستحقونه أنتم والمحكمة، يجب أن أقول لكم من أعماق قلبي: إنني أجلس هنا رجلاً حراً، وسأجلس خلف القضبان رجلاً حراً.. اتبعت ما أملاه علي ضميري،

واتخذت تلك القرارات من أعماق قلبي. لقد حررتني أفعالي ومعتقداتي في أثناء الحرب وبعد الحرب، ومع كل الاحترام، لست نادماً. لست نادماً على شيء.

سوف يحزنني أن ينتهي المطاف بي في السجن. لدي ابنة، وسيكون من المؤلم ألاّ أراها. كثيرون يحبونني، ومن ضمنهم المحامون الذين دافعوا عني. سيدفعون الثمن هم أيضاً. لن أقول: إن الأمر لا يهمني ولا يزعجني، لكن سأذهب إلى هناك مرفوع الرأس، لأني أعرف أن ما فعلته هو الصواب.

نعم، لديكم السلطة لإدانتي، وإصدار حكم عليّ، وطردي من الخدمة بتهمة سوء السلوك.. فأنا جندي سيء برأيكم. لديكم هذا القدر الهائل من السلطة والقوة، ولكن (تذكروا) أنني جزء من المؤسسة العسكرية... أنا واحد منكم، وهذه أسرتي أيضاً.

نحن نُحاكم جميعاً. لست وحدي، أنا الجالس هنا، من يحاكم، بل كل عسكري هنا، وكل مواطن في هذا البلد... جرائم حرب؟ سوء معاملة السجناء؟ جيش الولايات المتحدة؟! لا. بضعة جنود، ربما رقيب واحد، من فعل هذا كله. لقد فعلوا هذا كله لأنهم لم يملكوا الشجاعة لفعل ما فعلته أنا، ولأنهم تاهوا في وضع يصعب فيه تمييز الصواب من الخطأ. ربما خافوا من طاعة أوامر القادة. ربما قرروا أن الأسهل فعل ما يفعله الآخرون. ولذلك، فإن من الأسهل الآن الحكم على هؤلاء ومحاكمتهم وتوجيه اللوم إليهم... أنا لا أقول: إنهم لا يتحملون المسؤولية. بل يتحملون جزءاً منها، مثلما أتحمل بعض مسؤولية ما فعلته في العراق، أنا أتحملها

بالطبع. ولكن إذا أردنا النظر إلى أنفسنا باعتبارنا عسكريين، وأردنا فعلاً المحافظة على كرامتنا وكبريائنا وشرفنا بوصفنا عسكريين، فلا بد لنا أن نبدأ من القمة....

القرار عائد لكم، ليس فقط بصفتكم أعضاء في هذه الهيئة..».

قال القاضي مقاطعاً، وهو ينظر إلي: «حسناً، يجب أن تكف عن توبيخ أعضاء هذه الهيئة. وإذا كنت بحاجة إلى التركيز على الموضوع مرة أخرى، يمكنك أن تفعل ذلك، ولكن يجب أن تكف عن توجيه ملاحظات مباشرة إلى الأعضاء».

نهض لويس وقال: « أعترض، سيدي القاضي، مع كل الاحترام».

أجاب القاضي: «حسناً. لا يمكن للمحامي أن يفعل ذلك ولا المتهم أيضاً». ثم التفت إلي: «تابع».

أجبت: «أفهم، سيدي القاضي. نحن نحاكَم جميعاً، لأن فعل ما نعتقد أنه صواب، حتى مع دفع الثمن على الصعيد الشخصي، يتطلب قيادة ملهمة ومتميزة، وشجاعة أخلاقية. ولأني لست محامياً، لم أعرف حجم ذلك الثمن، ولكن عرفت أني سأعرض قضيتي أمام المحكمة، وعرفت العواقب. عرفت أني سأتهم بارتكاب كثير من المخالفات، وربما أسجن سنين عديدة. ولكني آمنت إيماناً راسخاً بما فعلته، وأشير، بكل احترام، إلى أنني لم أرتكب جرماً بمجيئي إلى هنا: فليس من السهل أحياناً توفير القيادة الرشيدة، ومهما بدا ذلك ملتوياً ومشوهاً، أعتقد الآن، وأنا جالس على هذا الكرسي، أنني أوفر تلك القيادة. أشعر الآن أني حر. هذا كل شيء لدي، سيدي القاضي».

عندما نزلت من منصة الشهود، وقف عدد من الحاضرين وصفقوا استحساناً. أمكنني رؤية عيون خالتي وخالي الدامعة. وعندما نظرت إلى والدتي وجدت أنها لا تبكي. عرفت أن الألم يعصر قلبها، ولكنها قررت البقاء صلبة وقوية. وقف لويس وغيل لإعادتي إلى مكاني.

قال القاضي مخاطباً الحضور بحزم: «حسناً. جلوس».

لم يعره أحد انتباهاً، فاضطر لتكرار الطلب.

صاح القاضي بصوت أعلى من الضجيج: «جلوس وهدوء!».

في نهاية المطاف، خيم الصمت والهدوء على قاعة المحكمة، وطلب القاضي أن يستمع إلى المناقشات الختامية. اعتلى الادعاء المنصة أولاً، فاستأنف بالبو حملته الشعواء لتشويه سمعتي. ولكنه الآن اضطر على أقل تقدير للسماح باحتمال كوني قائداً جيداً.

قال، غاضباً ونكداً كعهده دوماً: «حتى إذا اعتقدتم أن الرقيب الأول ميخيا قائد جماعة عظيم...فهذا يدعو أكثر للحاجة إلى بقائه. وإذا شعر بأنه ركيزة للفضيلة في مكان صعب وخطر، وإذا تمتع بإحساس أقوى بالصواب والخطأ، وإذا شعر أن جنوده كانوا في خطر داهم، وأنهم افتقروا إلى القيادة، كان يجب عليه البقاء لا الفرار... لم يتحمل المسؤولية عندما أدلى بشهادته». ثم حدق في هيئة المحلفين عابساً مستاءً.

«يشعر أنه لم يرتكب خطأ. ولا يندم على شيء. ها هو يقف أمامكم متحدياً، والأسوأ أنه عارف بتخليه عن رجاله وخذلانهم. لم يتواضع مرة واحدة ليقول آسف. وبناء على ذلك كله، تطلب الحكومة من هذه الهيئة أن توصي بأقصى عقوبة».

بدأ لويس مرافعته ببلاغته المعهودة وأسلوبه الرقيق، دون غضب ودون صراخ ، معتمداً على الحكمة ودقة الكلمات.

«السادة أعضاء الهيئة، يشرفني أن أمثل الرقيب الأول ميخيا في قضية تتصل بجوهر جيش الولايات المتحدة وقيمه الأساسية. أمامي الآن كتاب عنوانه: "ضابط القوات المسلحة" نشرته وزارة الدفاع».

رفع لويس الكتاب بيده لتراه للمحكمة.

«لا ضرر في العودة إلى المبادئ المؤسِّسة لجيشنا، وثمة فقرة معينة هنا وثيقة الصلة بما يجري الآن في قاعة المحكمة هذه، وفي أنحاء العالم، إذا ما استمر الجيش الأمريكي بإصدار الأوامر لجنوده بالقيام بأفعال، كالتي أُمر بها الرقيب الأول ميخيا».

بعد أن رفض القاضي اعتراض بالبو على الفقرة، قرأ لويس من الكتاب:

«ضمن مدرسة الفكر العسكري عندنا، لا تعدّ السلطة العليا نفسها معصومة عن الخطأ، سواء في أرض المعركة أو خارجها. في أي حالة تصبح فيها غالبية الأمريكيين المدربين عسكرياً غير مستعدين لأداء الواجب، يكون هذا سبباً كافياً لكي تعيد السلطة العليا النظر في ما تتبعه من الأحكام، وقواعد الانضباط، ومناهج العمل».

أغلق لويس الكتاب بعد قراءة الفقرة.

قال ملاحظاً: «يا له من مفهوم مدهش لمؤسسة عسكرية! إذاً، لا تعد أعلى سلطة في المؤسسة العسكرية الأمريكية نفسها معصومة عن الخطأ.

لدينا هنا جيش مفكر، أفراد مطلوب منهم التفكير، لا مجرد الطاعة العمياء، والرقيب الأول ميخيا أظهر لنا أنه شخص يفكر».

عاد لويس بعد ذلك إلى عملية قطع الطرق، وأبلغ هيئة المحلفين أن ما حدث في الليلة الخامسة للمهمة هو أن عدداً من الجنود الذين يفكرون، وأنا منهم، قد سألوا القيادة إعادة النظر فيما تتبعه من الأحكام، ومناهج العمل في المعركة. وطلبوا منها، كما قال في شهادته (دون قسم)، وبمعنى أوسع كثيراً، مراجعة منهاج العمل.

تابع لويس مشيراً إلي: «ربما كان الوحيد آنذاك، ولكن، مع كل الاحترام، أقول لكم ربما سيكون هناك كثيرون مثله —مئات، أو آلاف، أو عشرات الآلاف في المستقبل، إذا لم تُعد السلطة العليا النظر فيما تتبعه من الأحكام وقواعد الانضباط ومناهج العمل.

أؤكد لكم، مع كل الاحترام، أن الخيار المناسب هنا، في هذه المحاكمة التاريخية، ليس العقوبة أبداً، بل السماح للرقيب الأول ميخيا بمتابعة حياته، وقبول طلبه للحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير. هذا ما أطلبه باسم عميلي، وأقترح عليكم، بكل احترام، أن ذلك هو أفضل قرار في هذه القضية، ليس فقط لعميلي، بل لجيش الولايات المتحدة برمته».

بهذه العبارة أنهى لويس مرافعته الختامية، وجلس في مقعده. ثم قدم القاضي لهيئة المحلفين إيجازاً عن الإجراء السليم للتوصل إلى الحكم، فغادروا القاعة للمداولة. وبالرغم من حجم الأدلة والشهادات التي أمامهم، عادوا إلى المحكمة في غضون عشرين دقيقة فقط. دعا القاضي المحكمة العسكرية إلى الانعقاد، وخاطب رئيس هيئة المحلفين:

«هل توصلتم إلى حكم في هذه القضية؟».

أجاب العقيد نيكول: «نعم، سيدي القاضي».

ناول المأمور القضائي صفحة الحكم إلى القاضي، الذي تفحصها باقتضاب، دون أن يظهر أي رد فعل. ثم طلب من المأمور إعادتها إلى رئيس هيئة المحلفين، ونظر إلينا وقال:

«ليقف المتهم والمحامي».

وقفنا.

قال القائد: «عقيد نيكول، يمكنك إعلان حكم المحكمة».

قال العقيد: «أيها الرقيب ميخيا كاستيلو، حكمت عليك هذه المحكمة العسكرية بخفض رتبتك، وبغرامة قدرها 795 دولاراً شهرياً مدة اثني عشر شهراً، وبالسجن اثني عشر شهراً، والطرد من الخدمة بتهمة سوء السلوك».

عندما حان الوقت ليرافقني الحراس إلى خارج القاعة ثم إلى السجن، طلبت لحظة لتوديع أسرتي. عانقت زوج أمي، وخالي، وخالتي، وجدتي. ثم التفت إلى أمي الحبيبة. ذكرتني رؤيتها بمصدر قوتي المعنوية. لقد ربتني دوماً على التساؤل، وفعل الصواب، بغض النظر عن العواقب. لم تظهر على وجهها أمارات الهزيمة؛ قالت لي: إنها تحبني وقبّلتني قبلة الوداع.

لم أشعر بالحزن أو المرارة أو الخوف حين خرجت من قاعة المحكمة. بدلاً من ذلك كله، خبرتُ إحساساً عميقاً بالقوة في ذلك اليوم الجميل.

حين أنظر إلى الوراء، أستطيع رؤية مسافة الرحلة الشاقة للوصول إلى فهم حياتي التي تبدو اليوم واضحة بكل جلاء أمام ناظري. أدرك الآن أن قرار رفض المشاركة في حرب يتعذر الدفاع عنها أخلاقياً، كان يجب اتخاذه منذ البداية. ولكن تطلب ذلك تجربة الذهاب إلى الحرب لرؤية الأشياء من منظور أوسع وإدراك أنني، في أعماق أعماقي، معارض للحرب بدافع الضمير.

يمكن الادعاء بأن حرباً من الحروب مبررة سياسياً، أو تحظى بتأييد المجتمع الدولي ومباركة القانون الدولي. لكن هذه الحجج لا يمكن أن تنقل الصور، أو الأصوات، أو الروائح، أو أي شيء يعبر عن لمحة خاطفة من الصورة الكاملة لفظاعة الحرب. ولا ريب في أن التذرع بهذه الحجج يشجع شن الحروب وما تلحقه بالبشر دوماً من ضرر يتعذر إصلاحه، ومن أذى بكل ما هو جدير بالحب على ظهر الأرض.

الحرب، في المحصلة النهائية، هي تدمير الحياة.

قبل الذهاب إلى العراق، اقتنعت بالأكاذيب المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل، ومحاربة الإرهاب العالمي، ولكن حتى لو لم تكن هذه مجرد أكاذيب بل حقائق، فليس في صدري أدنى شك اليوم بأنني مازلت أكره الحروب كلها وأعارضها كلها.

مرت أوقات في العراق أخفقت في أثنائها في رؤية الأشياء بالطريقة التي يُفترض بي، بوصفي جنديّاً، رؤيتها: حين عرفت أن ما سميناها أهدافاً لم تكن في الحقيقة سوى منازل، أو ساحات عامة، أو أسواق، وأن من دعوناهم مقاتلين أعداء، أو إرهابيين، أو صداميين، لم يكونوا في

الحقيقة سوى أبناء وبنات وآباء وأمهات العراقيين، وهؤلاء بشر من لحم ودم ومشاعر. في تلك المناسبات التي سببت فيها الدمار والخراب للحياة الإنسانية، حين امتنعت عن رفض الأوامر، تنكرت أيضاً لنفسي، وجنودي، والشعب العراقي، والبشرية جمعاء.

كان يجب علي رفض طاعة الأوامر، والنضال من أجل كرامة الحياة والحفاظ عليها. ولكني لم أفعل؛ لأن الخوف تملكني، ولأنني كنت سجيناً، حتى دون أصفاد وسلاسل، سجيناً وراء قضبان خوفي الداخلي الذاتي. عرفت السبيل الصحيح؛ عرفت التصرف السليم، ولكني لم أشعر بأنني حر لفعل ما أيقنت في أعماق قلبي بأنه صواب.

أعرف الآن تماماً ما الذي زودني بهذه القوة عند مغادرة قاعة المحكمة. ومع أن الأصفاد كبلت يديّ عند نزولي على الدرج إلى سيارة الشرطة، فقد كانت تلك اللحظة التي نلت فيها حريتي. فهمت آنذاك أن الحرية ليست حالة جسدية مادية، بل حالة معنوية في العقل والقلب والروح. في ذلك اليوم، تعلمت أنه لا توجد حرية أعظم من حرية اتباع الضمير. في ذلك اليوم كنت حراً، شعرت بحرية لم أعهدها من قبل.

***

ملاحظة للمحرر

بدأ تنفيذ الحكم بسجن الرقيب الأول ميخيا بعد انتهاء المحاكمة مباشرة بتاريخ 21 أيار (مايو) 2004. ولدى صدور الحكم دعته منظمة العفو الدولية «سجين الضمير». ذكرياته عن المدة التي قضاها في السجن إيجابية غالباً؛ وفي الحقيقة، كانت مدة السجن، من عدة وجوه، مفيدة وملهمة وعلاجية. فقد اختار أن يضع نفسه في موقع يمكنه من أخذ زمام المبادرة وتقرير كل ما هو مهم في حياته: الامتناع عن قتل الناس، وإذلالهم، وسجن الأبرياء، والإساءة إلى السجناء وانتهاك حقوقهم. احتل في النهاية أيضاً موقعاً يسمح له باتخاذ قراراته الخاصة فيما يتعلق بالأسلوب الذي يمضي فيه وقته. كان لديه متسع من الوقت للقراءة، والكتابة، وممارسة التمارين الرياضية، وبدت كلها في نظره مزايا مترفة حظي بها. فبعد أن خاض المعارك، ثم أصبح هارباً قبل دخول السجن، استطاع أخيراً أن يتمتع بالراحة والأمان بعد انتهاء حالة الحذر والترقب والتوجس.

تنوعت لائحة الكتب التي قرأها ميخيا واتسعت: بدءاً من الكتاب المقدس والأعمال الفلسفية لسقراط، وكامو، وسارتر، مروراً بالروايات

الشهيرة مثل: «شيفرة دافنشي» (The Davinci (Code وكتب الملاحظات والاكتشافات، وانتهاء بـ «زعزعة السلام»، قصة الأب روي بورجوا Father Roy Bourgeos، أكثر الكتب التي قرأها في السجن تأثيراً في نفسه ورسوخاً في ذاكرته. أعار الكتاب لزملائه؛ فدفع أحد رجال القوات الأمريكية الخاصة (Green (Beret إلى البكاء، وحوّل نزيلاً آخر ـ أقرب صديق إليه في السجن ـ إلى ناشط مدافع عن حقوق المهاجرين. أما كتابات ميخيا، فقد تراوحت بين رسائل بعث بها إلى صحيفة السجن، وقصة فكاهية نشرت في مجلة Hispanic Heritage Month. وتمكن من تحفيز بعض الحوارات والأفكار السياسية خلف القضبان.

ووفقاً لميخيا، فإن أسوأ لحظة مرّ بها في نحو تسعة شهور أمضاها في السجن، كانت عندما جاءت ابنته سامانثا لزيارته. فقد جعلته رؤيتها، ثم مراقبتها وهي تغادر من دونه في نهاية الزيارة، يشعر بأنه سجين حقيقي، بأن شيئاً جوهرياً انتزع من حياته. مع ذلك، حتى في تلك اللحظة، لم يندم ولم يعد النظر بقراراته. إذ يعتقد أن آلاف رسائل التأييد التي تلقاها وهو في السجن، مثلت جزءاً من سبب بقائه صامداً ثابت العزيمة. ومن المؤكد أن الرسائل لم تكن إيجابية كلها، ولكن أغلبيتها الساحقة ذكّرت بأن ملايين الناس من سائر أنحاء العالم عرفوا أن حرب العراق كانت حرباً إجرامية.

الآن، يقف غالبية الأمريكيين ضد الحرب، خلافاً لحالهم عام 2004. لكن الناس، في بلدان العالم الأخرى، عرفوا منذ البداية أن الحرب ظالمة ولا أخلاقية. ووجهوا انتقادات مريرة لطريقة معالجة الولايات المتحدة للحرب، ولقضيته، وأبلغوه بموقفهم.

عند إطلاق سراحه، يوم 15 شباط (فبراير) 2005، وجه ميخيا رسالة شكر مفتوحة إلى «الناس كلهم وسائر المنظمات التي ساندت عائلتي، وأيدتني طوال أصعب وقت في حياتنا». وفي حين أسعده الإفراج عنه مبكراً لحسن سلوكه، فقد غادر السجن ذلك اليوم وقد اختلطت مشاعره وعواطفه. إذ عقد أواصر الصداقة مع كثير من النزلاء، واعتاد برامج معينة وأنشطة روتينية مكررة. وعلى الرغم من بهجته بالعودة إلى الأسرة وعدم رغبته بشيء سوى قضاء الوقت معها، إلا أنه عرف أن عليه الابتعاد عنها مراراً؛ وشعر بأن عليه واجباً أخلاقياً يدعوه إلى التنقل في أرجاء البلاد للتعبير عن مناهضته للحرب.

تحول ميخيا إلى ناشط فاعل على الفور، فتحدث في مدينة أوكلاهوما غداة إطلاق سراحه. وعند العودة إلى ميامي، خطب أمام جماعة Medea Benjamin of Code Pink، التي يواصل العمل معها من حين إلى آخر. ومن هناك انطلق وبدأ يتحدث في مختلف أرجاء الولايات المتحدة. وقبل ذلك، انضم إلى منظمة مناهضة للحرب، «منظمة قدامى المحاربين في العراق ضد الحرب»، وتحدث أمام أعضائها لأول مرة في اجتماع حاشد في مدينة فايتفيل، بولاية كارولينا الشمالية، قرب قاعدة فورت براغ (Fort Bragg). ومارس نشاطاً فاعلاً مع جماعة «قدماء المحاربين من أجل السلام»، وجماعة «قدماء المحاربين من أجل قدماء المحاربين» وهي منظمة توفر المشورة والنصح لقدماء المحاربين في العراق، وتمكنهم من إسماع صوتهم، والمشاركة في العمل السياسي.

لا يسافر ميخيا كثيراً هذه الأيام؛ فهو يدرس بدوام كامل في ميامي، ومن المقرر أن يتخرج من الجامعة في شهر أيار (مايو) 2007. ومع أنه

لا يزال مهتماً بنيل شهادة الدكتوراه، إلا أنه يأمل الآن بدراسة العلوم السياسية بدلاً من علم النفس. والأهم أنه يمضي وقتاً طويلاً مع أسرته كل يوم.

بعد نحو عامين من خروجه من السجن، لم تحل المشكلات كلها في حياة ميخيا، ولعلها لن تجد طريقها إلى الحل أبداً. فما يزال القرار النهائي بشأن طلبه الحصول على صفة المعارض للحرب بدافع الضمير، الذي قدمه منذ أكثر من عامين، قيد البحث والدراسة، كحال قرار تسريحه من الخدمة لسوء السلوك، الذي استأنفه. مع ذلك كله، فإنه يشعر بالرضى على ما فعله، وما اجتازه من محن. لقد أصبح الإنسان والأب اللذين أمل بأن يكونهما في أزقة الرمادي وحواريها. وهذا يكفيه الآن.



كلمة شكر

أولاً وقبل كل شيء، أتوجه بالشكر إلى أهم شخصين في حياتي: والدتي، ماريتزا، التي ربتني على التمرد ورفض الطاعة العمياء، والتساؤل والتشكك، وفعل الصواب دوماً؛ وابنتي سامانثا التي زودتني بالهدف والغاية، وكانت القوة الدافعة وراء التمرد والعصيان. الشكر كل الشكر لأفراد أسرتي كلهم على دعمهم الكامل لكل خطوة اتخذتها على هذا الطريق الطويل، خصوصاً خالتي نورما - الصديقة الموثوقة في الليل والنهار والعتمة والنور ـ وجدتي أنتونيا، وزوج أمي خوليو، وخالي ألكس، وشقيقي ووالدي (اللذين يحملان معاً اسم كارلوس).

أعرب عن الشكر الجزيل للويس فونت وغيل غليزر، اللذين شجعاني على اتخاذ موقف، ودافعا عني كما لو كنت ابنهما. وإلى تود إنساين، ورامزي كلارك، وجولز لوبل، وفرنسيس بويل، وإلى الذين قدموا لي النصح والمشورة في جامعة ميامي، وإلى أسرتي الجديدة، آل راندا، والناشطين الرائعين في دير السلام، وإلى تشارلي ونانسي. أعبر عن كثير من الحب والتقدير لجميع الناشطات في جماعة «كود بينك»، وحبيبتي

صوفي، وصديقيّ الحميمين كريستيان وكيم؛ على ما كرسوه من وقت ثمين ومشورة مفيدة.

لقد آمن كولن روبنسون، المحرر والصديق، بأهمية هذه المذكرات، حتى قبل أن أؤمن بها أنا، وتحمّل الكثير من نوبات الغضب والإحباط طوال عملية تحرير المذكرات: أدين بالفضل والشكر لك، يا صديقي. أشكر أيضاً صديقي أندي روبنسون على صلتي بـ"كولن ونيوبرس"، والمساعدة في العنوان. وإلى اليزابيث سيدلين برنستاين: إن إرشاداتك الكريمة والرقيقة والمطمئنة زودتني بالسلام والطمأنينة في أثناء كتابة المسودة. أشكر جميع العاملين في نيوبرس، وخاصة إيلين أدلر وميشيلا دانييل، على العمل الشاق واستكمال المسودة والعمل (حتى في المنزل) في عطلات نهاية الأسبوع، لجعل هذا الكتاب أفضل أسلوباً وإعداداً. أشكر أيضاً وكيلي الأدبي، فرنسيس غولدن، لأنه كان أفضل وكيل يمكن لكاتب أن يجده، ولحبه لي: أنا أحبك أيضاً.

«طريق من الرمادي» اعتمد أساساً على طريق حقيقي، طريق حدّق فيه كثيرون دون أن يتخذوا خطوة إلى الأمام. حدقت أنا أيضاً في طريقي الخاص، وبقيت ردحاً من الزمن مشلولاً وعاجزاً عن الحركة أو حتى عن التفوه بكلمة. ومع أن الرحلة كانت مظلمة ومرعبة أحياناً، استشعرت دوماً أنني لست وحيداً، وداومت على البحث عن السلام والأمان والطمأنينة. أود الاعتراف بجميل الذين ساروا معي، عن قصد أو دون قصد، ومنحوني القوة لأتابع المسيرة. ومن هؤلاء، أعضاء في حركة السلم والعدالة، وجنودي، وشعب العراق، حتى الذين أطلقوا عليّ النار. هذه هي حكايتي.

تعقيب

كريس هيدجز

هناك نوعان من الشجاعة - شجاعة جسدية وشجاعة أخلاقية. شاهدت الشجاعة الجسدية في ساحة المعركة طوال عقدين من السنين قضيتهما مراسلاً حربياً في أمريكا اللاتينية، وإفريقيا، والشرق الأوسط، والبلقان. ولكن نادراً ما رأيت الشجاعة الأخلاقية. الشجاعة الأخلاقية أشد صعوبة؛ فهي تتطلب من الجندي الشجاع الابتعاد عن عناق الرفاق بحرارة، وإدانة خرافة الحرب، لأنها مزورة، وتسميتها مشروعاً لا أخلاقياً للموت والقتل، وإدانة نفسه، ومن حوله، بوصفهم قتلة. وهي تؤدي إلى تحول الشجاع إلى منبوذ. نحن لا نحب أن تتعرض أساطيرنا، الأساطير التي نرويها عن أنفسنا، للتحدي. نحب أن نشعر بالتمكين الذي توفره قوتنا، وقصة نبلنا وطيبتنا الخرافية. لا نريد أن نسمع أو نرى ما يرتكب باسمنا. ولذلك فإن أولئك الذين يستحضرون الشجاعة الأخلاقية ـ مثل كاميلو ميخيا ـ لإدانة بربرية الحرب وعبثية احتلال العراق، ويرفضون الاشتراك في فسادها، إنما يقفون بيننا مثل بقع الضوء المبهر في بحر من العتمة.

تسعى الآلة العسكرية وبيروقراطية الدولة، في سياق المطلب لإخضاعنا، إلى إسكات الجنود العائدين من الحرب، ومنعهم من قول الحقيقة.

ولذلك، اقرأ هذا الكتاب بوصفه حكاية تحذيريّة، وتذكرة صارخة بأن الحرب مسلخ صناعي، وأن جوهرها الموت، وأنها تشوه كل من يتورط فيها، وأن الشيوخ يضحون دوماً بالشباب في الحرب، وأن المتشككين بدوافع البشر الخيرة يرسلون المثاليين إلى حتفهم، وأن السياسيين يبيعون الجنود ذاتهم الذين أغروهم بخوض المعركة. في المحصلة النهائية، الحرب تتعلق دائماً بالخيانة والغدر. فالمتربعون على عرش السلطة، ومن ضمنهم كبار الضباط الطامحين، الذين أرسلوا ميخيا وجماعته لخوض المعارك لتلميع سِيَرهم المهنية، لم يقاتلوا في سبيل الله والوطن، بل من أجل المكاسب الذاتية والمطامح الشخصية. والذين يدفعون الثمن في الحرب، جنود الجيش العاديون أو مشاة البحرية، يتعرضون للنبذ والإحباط والخذلان عندما يعودون إلى الوطن، ويُتركون وحدهم دون معين لمواجهة كابوس ما ارتكبوه وما ارتكب بحقهم.

ميخيا ابن لثائرين من نيكاراغوا، ساعدا في إطاحة دكتاتورية أناستازيو سوموزا. والده، أحد أشهر الموسيقيين والناشطين في نيكاراغوا، كان مطارداً في حقبة الديكتاتورية. وسمى ابنه تيمناً ببطلين ثائرين في أميركا اللاتينية: كاميلو توريس، الكاهن الكاثوليكي الكولومبي الذي قتل في ميدان المعركة، وإرنستو تشي غيفارا، قائد الثورة الكوبية.

أما ميراث ميخيا، إلى جانب ذكائه وتعاطفه وعطفه، فكان مصدر قوة عندما أزف الوقت لمساءلة السلطة وتحدّي القيادة العسكرية في العراق. تراوحت حظوظه وحظوظ أسرته بين صعود وهبوط وفقاً لموجات المد السياسي التي اكتسحت وطنه في أميركا الوسطى؛ لكن ما لم يضعف أو ينحسر قط هو ضميره وإدراكه، اللذان ورثهما عن والديه: الطاعة العمياء

لأي قضية أو لأي مصدر سلطة - حتى الحركة الساندينستية اليسارية - شكل من أشكال العبودية.

عندما بلغ ميخيا الثامنة عشرة، كان هو وأمه يعيشان في فقر مدقع في ميامي. لم يكن أجر أمه، العاملة في سوبر ماركت، يكفي لتغطية أجرة البيت وإطعام العائلة. فلمّا بلغ المراهقة، عمل في مطعم للوجبات السريعة، حيث كنس أرضية موقف السيارات، ورتب الكراسي والطاولات، ونظف الحمامات كل صباحٍ، قبل أن يعمل ست ساعات في المطبخ. كانت لديه استراحة مدة ساعتين قبل الذهاب إلى المدرسة الليلية للدراسة ونيل الشهادة الثانوية. كانت أيامه تبدأ في الخامسة والنصف صباحاً، وتنتهي في العاشرة ليلاً. وبعد أن نال الشهادة، بدأ يحضر دروس الكلية المتوسطة، ولكن نفد ماله. وعلى شاكلة كثيرين من الشباب والشابات الذين لم تعرض عليهم أمريكا سوى وظائف مسدودة الأفق، أصبح الجيش الأمل الأخير.

كتب يقول: «لم يكن المسؤول عن التجنيد مضطراً لبذل الجهد لإقناعي بالتوقيع على العقد الخبيث المخادع، إذ وفر لي الجيش الاستقرار المالي والتعليم الجامعي، وهما ميزتان بدا من الصعب العثور عليهما في مكان آخر». ولكن تضمن العقد بنداً يفرض على كل من يلتحق بالجيش التزاماً بالخدمة ثمانية أعوام، حتى ولو كان من الجنود العاملين، كحال ميخيا، منذ ثلاثة أعوام. أوشك عقد الأعوام الثمانية على الانتهاء في شهر أيار (مايو) عام 2003، عندما أعلن جورج بوش، الذي جنبه ما يتمتع به من مزايا وثروة المشقات التي تعرّض لها أمثال ميخيا، الحرب على العراق في شهر كانون الثاني (يناير) من تلك السنة، جند ميخيا دعماً لعملية «حرية

العراق». ومددت خدمته في الجيش إلى عام 2031. وبعد شهرين ونصف الشهر وصل إلى العراق.

تبدى الوجه القبيح للعنصرية والشوفينية الأمريكية لحظة وصول وحدته إلى الشرق الأوسط. فعلى الفور، سخر رفاقه الجنود من المراحيض عربية الطراز، لأنها فرضت عليهم «أن يقضوا حاجتهم كالكلاب». وعامل الجنود من حوله العراقيين، الذين يجهلون لغتهم وثقافتهم، معاملة الحيوانات تقريباً. وسرعان ما أصبحت كلمة «حجي» تعبيراً شائعاً لأبلسة العراقيين وازدرائهم، على غرار كلمة «مخاط» (gook) التي استُخدمت لتحقير الفيتناميين، أو «الرأس المحشو بالخرق» «rag head» للاستخفاف بالأفغان وتوكيد دونيتهم. هزأ الجنود وسخروا من «طعام الحجي» و«مساكن الحجي» و«موسيقا الحجي». أما السجناء المذهولون، الذين اعتقلوا في غاراتٍ عبثية وحشية لا تفرق بين الأبرياء والمتمردين، فقد نزعت ملابسهم ووقفوا ساعات طويلة، عرايا مذعورين وقد أربكهم الذهول والحيرة، تحت أشعة الشمس الحارقة، وهم يتعرضون لوابل متواصل من الإهانات والإساءات، بدءاً بالألفاظ البذيئة وانتهاء بالانتهاكات الجسدية.

هذه المشاهد الوحشية من الانتهاكات، التي بدأت بعد الغزو الأمريكي مباشرة، كانت أكثر قليلاً من ممارسات جماعية سادية. راقب ميخيا ما يحدث دون أن يجرؤ على التدخل، لكنه شعر بالتقزز من معاملة المدنيين العراقيين. رأى رأي العين كيف أدى سوء استخدام السلطة/القوة، بكل ما صاحبه من قسوة ووحشية وانفلات، إلى استعداء العراقيين أولاً، ثم إلى كراهية متأججة لقوات الاحتلال. وعندما أغارت وحدات الجيش

على البيوت، اقتحمها الجنود دون رحمة وأجبروا العائلات المذعورة على التكوم في الزوايا والأركان تحت تهديد السلاح، ثم تناولوا ما شاء لهم من طعامها وشرابها.

تعرضت العائلات العراقية بصورة روتينية لإطلاق النار عند الاقتراب من نقاط التفتيش، في إحدى الحالات قطع رأس أب أعزل أمام طفله برصاص مدفع رشاش من عيار 50 مم، ومع ذلك، كما يقول ميخيا، فإن «هذا النمط من قتل المدنيين خطأ لم يعد يثير أي اهتمام أو تعليق من زمن بعيد». كان الجنود يطلقون النار على عبوات البنزين البلاستيكية، فيحدثون ثقوباً يتدفق عبرها الوقود، ثم يلقون قنابل حارقة على برك الوقود فتشتعل. و«عدّ معظم الجنود ذلك لعبة مسلية». بل أطلق بعضهم النار على أطفال يرمون الحجارة. وعندما تنفجر العبوات الناسفة محلية الصنع، يبدأ الجنود إطلاق النار عشوائياً على أحياء مكتظة بالسكان، فيسقط الضحايا الأبرياء، الذين يتحولون إلى «تلف جانبي غير مقصود»، بلغة الحرب الوحشية عديمة الرحمة.

أججت عبثية الاحتلال ووحشيته نار التمرد في العراق، إلى أن وجد ميخيا وجنوده أنفسهم وسط بحر متلاطم من العداء. في إحدى المرات، طوق الوحدة حشد غاضب من الجماهير المحتجة على الاحتلال. فتح ميخيا وجماعته النار على عراقي يحمل قنبلة يدوية، فخرّق الرصاص جسده. ثم تحقق ميخيا من مخزن بندقيته، فوجد أنه أطلق إحدى عشرة رصاصة على الفتى. أما العدو المراوغ الغامض، الذي قلما رآه الجنود الأمريكيون، وبدأت قنابله ومتفجراته تفتك بهم، فقد جعل ميخيا ومن حوله يحوّلون كل عراقي إلى عدو مستهدف. قصفت الوحدات دون مبالاة

وبدم بارد الأحياء السكنية المزدحمة بالمدافع الرشاشة الثقيلة وقاذفات القنابل. خرج العالم عن السيطرة. وأصبح احتلال العراق حلقة وحشية مفرغة لا نهاية لها.

سرعان ما فقد الجنود الأمريكيون بوصلتهم الأخلاقية. هاهم ينتهكون حرمة جثث القتلى العراقيين، ويعبثون بها. في إحدى الحالات، روى ميخيا كيف ضحك الجنود ملء أشداقهم عندما سقطت جثة عراقي من شاحنة.

قال جندي في جماعة ميخيا التابعة للفصيلة الثالثة، وهو يلف ذراعه حول الجثة: «التقطْ لي صورةً مع ابن العاهرة».

سقط الكفن عن الجثمان، فكشف عن شاب لا يلبس سوى سراويل. وثمة ثقب أحدثته رصاصة في صدره.

ضحك الجندي قائلاً: «اللعنة، لقد قتلوك، أليس كذلك؟».

ويذكر ميخيا أن المشهد حضره أشقاء القتيل وأقرباؤه.

تأتي أكثر اللحظات إثارة للألم والأسى في الكتاب، عندما يتعمد ميخيا ورفاقه في مياه الفرات على يد قس عسكري، ولكن المعمودية لا تكفي للخلاص من لعنة العنف والدم. فآفة الحرب أصابت بعدواها ميخيا. إذ اكتسحته موجة غضب في أحد الأيام عند نقطة تفتيش، فصوب بندقيته الهجومية (إم16-) نحو عراقي جريح في سيارة إسعاف، خشية أن تكون السيارة مفخخة. لكنه امتنع عن إطلاق النار في آخر لحظة حين تدخل جندي آخر. إلا أن الحادث مثل نقطة تحول مفصلية بالنسبة إلى ميخيا، الذي اشمأز من الدرك التي انحدر إليه، والحال التي أوصلته الحرب إليها، وما يحدث في العراق. عند تلك النقطة، اتخذ قراراً أنقذ إنسانيته.

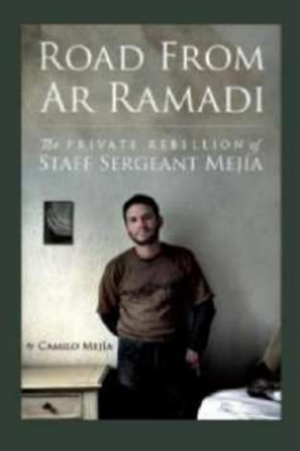
فقد قرر أن يمتنع منذ ذلك الحين عن إطلاق النار على العراقيين. وسوف يغدو معارضاً للحرب بدافع الضمير. سوف يتحمل سخرية رفاقه الجنود، ولن يصبح جزءاً من عصبة القتلة، ولن يتخلى عن ضميره.

بدا أن حفنة من كبار الضباط قد أزعجتهم أيضاً أعمال القتل. لكن أغلبهم ابتعدوا عن ميدان القتال بقدر استطاعتهم، ليرسلوا الجنود في مهمات عبثية عقيمة، سعياً وراء شارة المشاة القتالية. فالحصول عليها، كما يكتب ميخيا «أمر جوهري لارتقائهم سلم الرتب الرفيعة». كان هذا النمط يعني أن «قلة قليلة من كبار الضباط شاركوا فعلاً في القتال، في حين خاف الضباط الأدنى مرتبة من معارضتهم عندما يخطؤون». وحين وزعت الشارات ـ التي تحمل شعار بندقية قديمة في وضعية الإطلاق فوق إكليل من السنديان ـ على القادة أخيراً، أحضروا على الفور خياطين عراقيين لتثبيتها على الجيب الأيسر لسترهم العسكرية الصحراوية.

أصبح ميخيا، الذي قضى إجازة في فلوريدا، متغيباً عن الخدمة دون إذنٍ. ثم سلّم نفسه إلى السلطات العسكرية بعد خمسة شهور ليمثل أمام محكمة عسكرية.

قال العقيد المسؤول في جلسة إصدار الحكم: ««أيها الرقيب ميخيا كاستيلو، حكمت عليك هذه المحكمة العسكرية بخفض رتبتك، وبغرامة قدرها 795 دولاراً شهرياً مدة اثني عشر شهراً، وبالسجن اثني عشر شهراً، والطرد من الخدمة بتهمة سوء السلوك».

عندما رافقه الحراس من قاعة المحكمة إلى السجن، والأصفاد تكبل يديه، عانق أمه، وأدرك أنه نال حريته بفعل التحدي هذا.



كيف حدث أن انتهى بي الأمر في هذا المكان؟ لقد كان هذا سؤالاً ما برح يلحّ عليّ تكراراً إبان خدمتي في العراق خلال فصل الصيف من عام 2003. كان من شأني أن أجد نفسي راكباً في مؤخرة شاحنة تعبر الشوارع المغبّرة في الرمادي التي مزقتها الحرب، وهي مدينة سنية ثلاثية الشكل تقع إلى الغرب من مدينة بغداد. وكان يفترض بي أن أوجه كل انتباهي إلى مراقبة المقاتلين الذين جعلوا من امتداد الطريق الذي كنا نسلكه، مصيدة موت للقوات الأمريكية. بيد أنه كان من شأني أن أرى أولاداً يتراكضون أمام أبواب منازلهم من حيث كانوا يراقبون سيارتنا وهي تمر مسرعة، وكان من شأنهم تذكيري بالأولاد الذين كنت أشاهدهم سابقاً في نيكارغوا، البلد الذي ولدت فيه: إنهم فتيان حفاة أجسامهم ضامرة وتعاني من القذارة، ووجوههم لوّحتها حالة الطقس. كانوا يظهرون عند الشارة الضوئية بالعشرات، يتسابقون للحصول على فرصة لمسح الزجاج الأمامي للسيارات، أو عند محاولتهم جعل الناس يقدمون لهم أجراً لقاء حراستهم لسياراتهم خلال ذهاب أصحاب السيارات للتسوق في البقاليات. وكان من شأن ذهني أن يطرح التساؤلات عن مهمة حصر عدد المهالك التي لا تحصى وهي شبيهة بالقنابل التي تفجر إلى جانب الطريق والقناصة، وهذا ما تأكدت أن هؤلاء الأولاد كانوا ذاتهم الذين سبق أن رأيتهم. وكنت عدت بالذاكرة إلى زمن طفولتي في نيكاراغوا بعد عهد ساموزا التي كنت فيها ابن قادة سندانستيين، حيث كنت طفلاً محظوظاً من أبناء الثورة. مرة أخرى يتردد صدى السؤال في داخلي كيف انتهى بي الأمر في هذا المكان؟


ISBN:978-603-503-025-0
9786035030250

موضوع الكتاب: العراق - التراجم الذاتية

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com